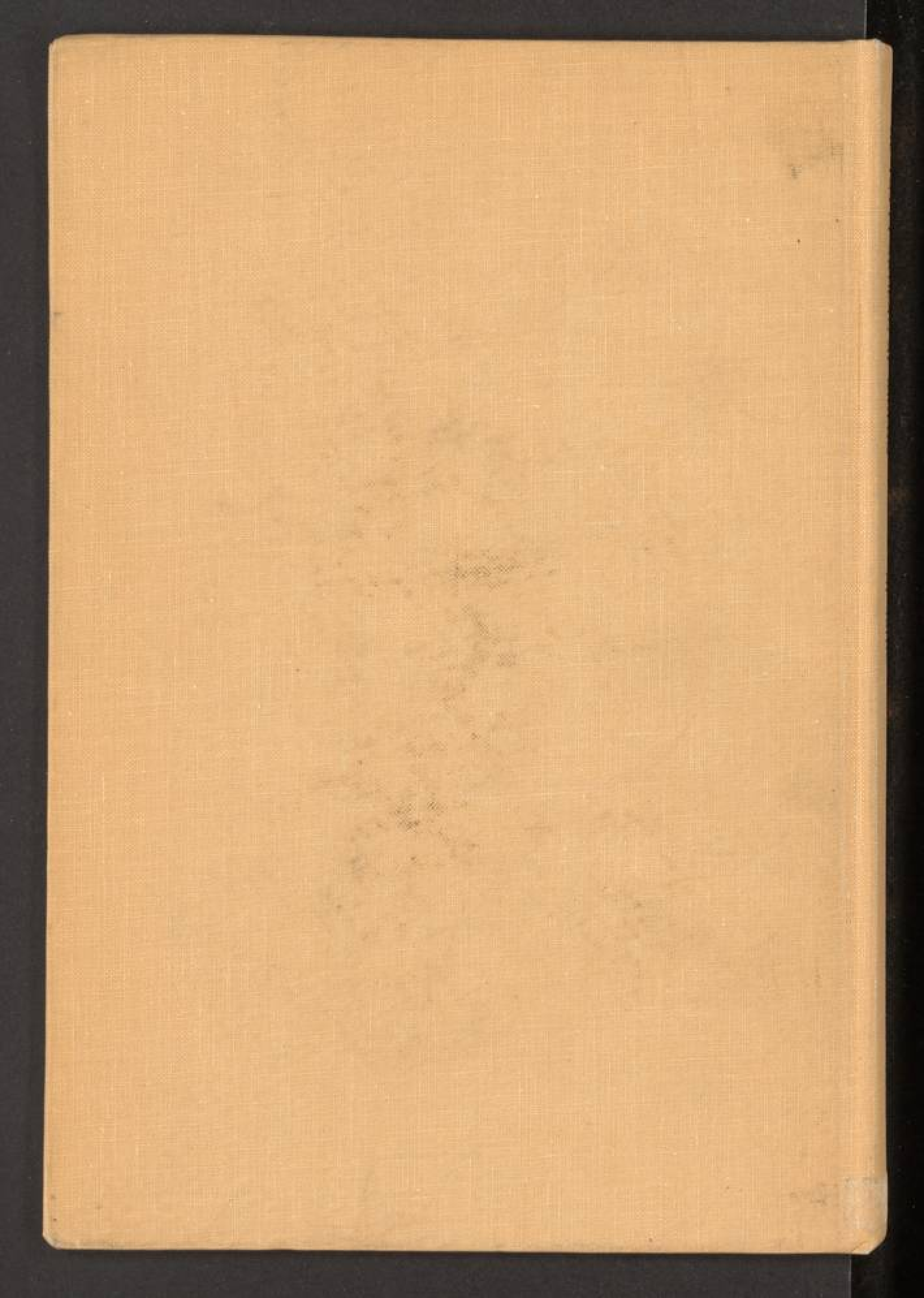
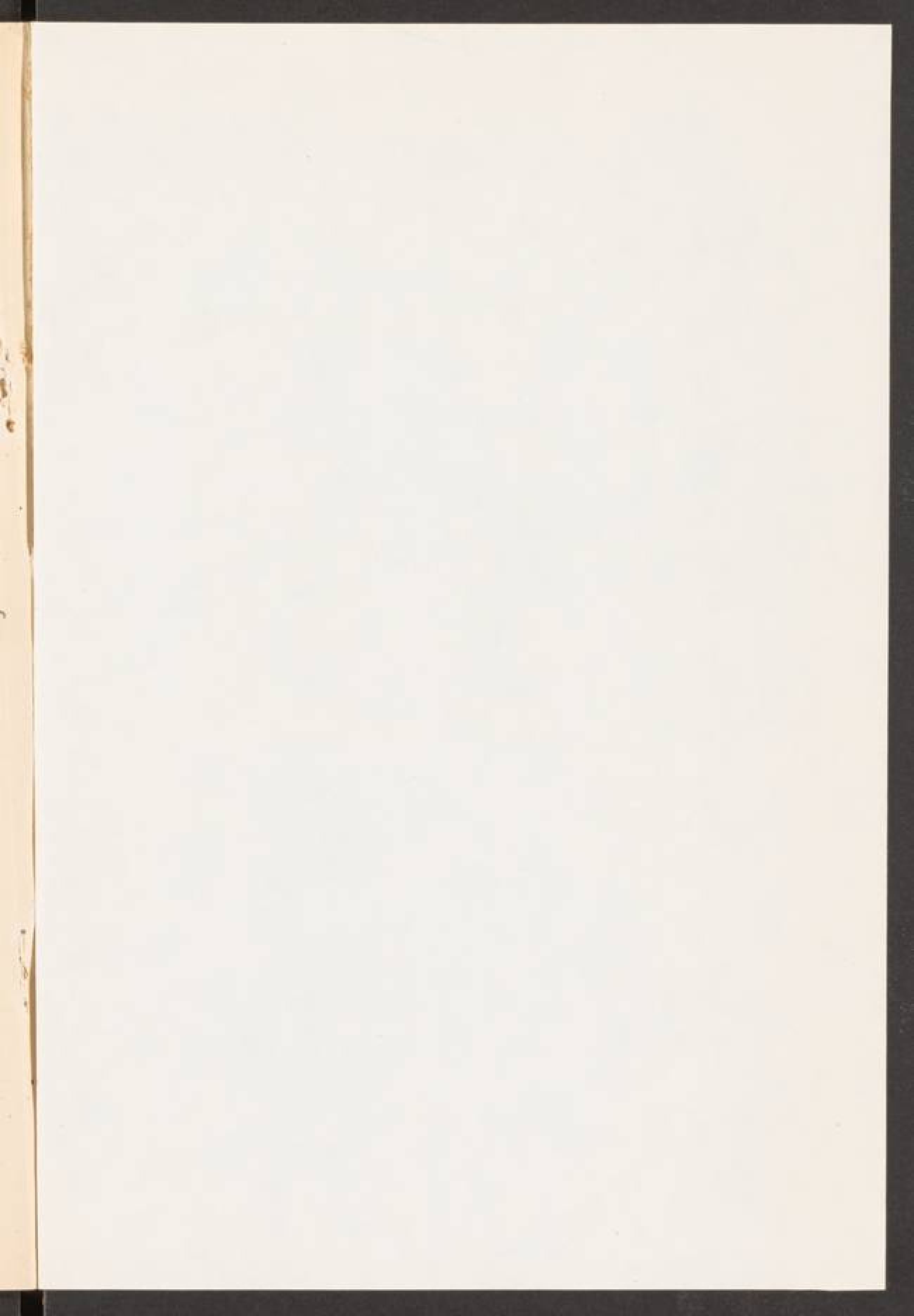








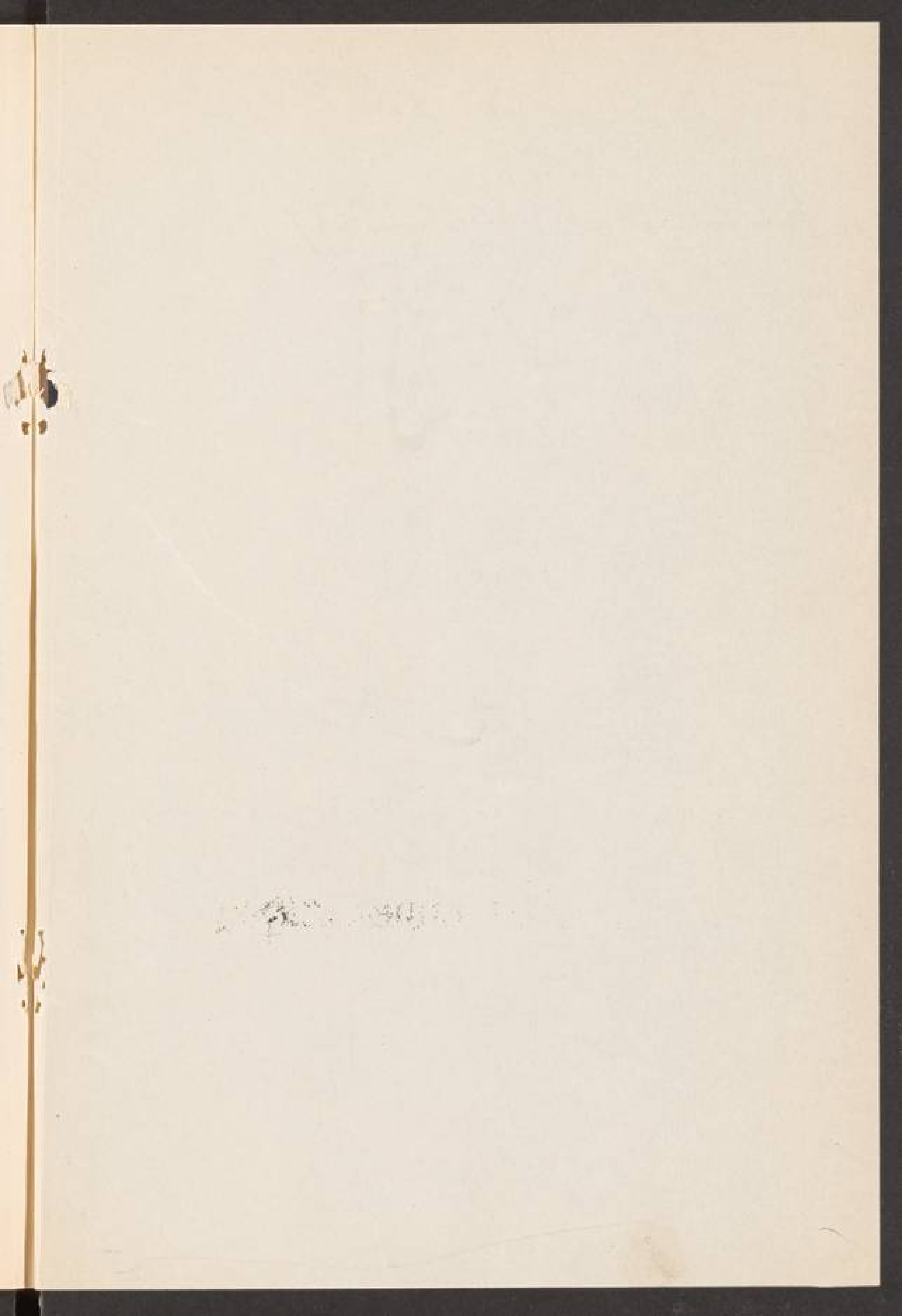


+

front

S

B



al-Jāḥiẓ, ʻAmr ibn Bahr

/al-Tāj fī akhlāq al-mulūk/



في

أخلاق الملوك

الجاحظ

تحقيق ونشر :

دار الفكر – بيروت
لصاحبها : ابراهيم الزين
سنة ١٣٧٥ ﻫ

دار البحار – بيروت
لصاحبها : اديب عارف الزين
سنة ١٩٥٥ م

الى القراء الكرام

رغبة منا في اخراج هذا السفر النفيس اخراجاً لائقاً بفوائده الغزيرة قد اتفقنا مع الاديب الفاضل الاستاذ محمد اديب نجل العلامة الشيخ احمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان على تحقيق هذا الكتاب وطبعه طبعاً جيداً دقيق التصحيح . وبالله المستعان

بيروت تشرين اول سنة ١٩٥٥ — دار الفكر



(الراموز الاول)

تمثل فيه طرة النسخة السلطانية وهذه النسخة محفوظة بخزانة طوب قبو بالقسطنطينية ، رقم ١٣٣ أدب

كتاب أخلاق الملوك

في أمور الديانة

تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر

المشهور بالجاحظ تغمده الله

بغفرانه ورضوانه

٢٨٢٧

(الراموز الثاني)

تمثل فيه طرة النسخة الثانية المحفوظة بخزانة آيا صوفيا تحت رقم ٢٨٢٧ .

مقدمة

كتاب التاج

(الصورة الثانية)

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لمحقق هذا الكتاب

« واجب على كل ذي مقالة ان يبتدئ بالحمد قبل استفتاحها ، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها [1] » .

نظرة عامة في الكتاب ومؤلفه

وبعد ، فهذا الكتاب ، كتاب « التاج » . وهو المشهور ايضا بكتاب « أخلاق الملوك » هذا الكتاب : وضعه الجاحظ أيام كانت بغداد دار السلام ، وقبة الاسلام ، ومركز الخلافة ، وجنة الارض وقطب العالم ، ومعدن الظرائف ، ومنشأ أرباب الغايات ؛ أيام كان العراق بستانا زاهراً بأنوار المعارف والمعالي ، وكانت امصاره وقراه

(١) هكذا صدر سهل بن هارون احد كتبه ، وكان معاصرا للجاحظ . انظر (البيان والتبيين)

مناهل عذبة يزدحم عليها طلاب العلوم والآداب .

هذا الكتاب : قد ضمنه الجاحظ طائفة كبيرة من نظامات الدولة العباسية على عهده ، مما تقرّاه هو بنفسه او كان متعارفا في عصره . ولقد اودعه ما وصل اليه علمه مما يندمج تحت هذا الباب من الرسوم والاصطلاحات التي كانت فاشية بين العرب او شائعة في صدر دولتهم على ما بلغ المؤلف بالسند المتصل عن الحجة الصادق والثقة الامين .

هذا الكتاب : قدجعله الجاحظ مرآة تتجلى فيها مشاهد الخلفاء والاكابر في حفلاتهم الرسمية وحشودهم العامة ، الى ما هنالك من طرائق ملوكية [1] وترتيبات سياسية اقتبس العرب بعضها من الفرس حينما دالت الدولة الى الاسلام ، واجتمعت الكلمة في العرب الكرام : لا سيما بعد ما سادت المسودة [2] من آل عباس وخفقت على رؤوسهم

(١) هذه النسبة قد استعملها كثير من فحول البلغاء . قال الهمداني في « صفة جزيرة العرب » : وبها آلة الحرير النفيسة الملوكية (ص ٢٠٢) وان الامام ابن جني الف كتابا سماه « التصريف الملوكي » .

(٢) كان السواد شعاراً لبني العباس ، وكان اشياعهم يرتدون به . ولذلك سماهم التاريخ « المسودة » [بكسر الواو المشددة] اما بنو امية فكان شعارهم البياض ، وذووهم والمنتصرون لهم يسمون « المبيضة » [بكسر الياء المشددة] . وقد اصطلح الكتاب والمؤرخون على ان يقولوا : « سود اهل المدينة الفلانية » او « بيضوا » دليلا على انضوائهم تحت لواء العباسيين او انضمامهم الى بني امية .

البنود والاعلام ، وجلس على سرير الخلافة سابعهم ، الميمون النقيبة ، المبارك الناصية ، واعني به المأمون بن هارون . وكان ذلك بفضل اشياعه واوليائه من اهل خراسان وما والاها ، على ما هو معلوم .

هذا الكتاب : شرح لنا فيه الجاحظ احوال امراء المؤمنين ، وسادات المسلمين في احويتهم [1] الخصوصية ، وفي انديتهم العمومية ، ووقفنا فيه على سمرهم في سهرهم ، وقصفهم في ليالي انسهم ، الى ما كانوا يصنعون في مجالي حظهم ، ومسارح لهوهم ، ومراتع طربهم . وناهيك بمجالسهم في الاغاني والمنادمة ، ومجامعهم في الملاعبة والمداعبة ، ومشاهدهم في المسايرة والمباسطة !

هذا الكتاب : فيه تبصرة لنا بأساليب القوم في اللبس والطيب وغير ذلك من الرسوم والآداب التي كانت معتبرة لدى السراة والاماثل في أيام العرب ، وفيما بعد الاسلام .

هذا الكتاب : يتضمن من اساليب التعبير والتفكير ما لا يكاد يجري به قلم غير قلم الجاحظ ، او يرتع فيه رجل سوى شيخ

(١) مفرده « حواء » وزان كتاب . وهي جماعة البيوت المتدانية . وقد استعمل الجاحظ « الاحوية والاندية » في كتاب « البخلاء » .

الادب ، او يتبجح فيه غير ذلك العميد لكل مفيد ومستفيد .

تحقيق بشأن هذا الكتاب

[الجاحظ] هو صاحب تلك البدائع الروائع التي يتطلع اليها اهل الادب من العرب ومن غير العرب . ولقد امتاز هذا النابغة بمزية لم يشركه فيها الى اليوم أحد غيره من المتقدمين والمتأخرين : بين الشرقيين او الغربيين . تلك الميزة ــ ولا ادري اهذه التسمية مطابقة لمرادي ام لا ــ هي ان نفثات صدره ونفحات قلمه ما عتمت ان اصبحت متاعا مشاعا ونهبا مقسما بين فرسان الكتابة وقرصان الادب فقديماً سطا عليها المتقدمون من ارباب الاقلام ؛ ثم هذه بقاياها التي وصلت الينا : لا تزال ملكا مباحا لكل من يتعاطون الانشاء ، يرونها طرفة لكل خاطف ، وثمرة لكل قاطف .

قاعدة قررها القاضي الفاضل ، وناهيك بمكانته التي لم يصل اليها احد من بعده ! أفما تراه قد سجل اعترافه على نفسه ، وشرع هذا المورد لمن اقتدى به او حاول الجري على سننه ، منذ قال كلمته المأثورة : « واما الجاحظ ، فما منا معاشر الكتاب الا من دخل داره ،

او شن على كلامه الغاره ، وخرج وعلى كتفه منه الكاره[1] » ؟

حكم اعتمدته الجماعة ، وقابلته بالسمع والطاعة ، ومـا زالت تدأب في تنفيذه الى هذه الساعة ! حتى ان المتصفح لدواوين الادب ليرى كثيرا من المتقدمين والمتأخرين ينقلون عبارة الجاحظ برمتها فينسخونها نسخا ، وآخرين يبترونها بترا أو يمسخونها مسخا . وكأني بهم قد تالؤوا كلهم على عدم الاشارة اليه ، اللهم الا في النادر .

ما اسم هذا الكتاب

لكن العجب العجاب ، أنه مع كثرة الناقلين عن هذا الكتاب ، لم يشر اليه واحد منهم على الاطلاق ! بل انني لم اعثر على اسمه في كل ما وقفت عليه من اسفار المتقدمين والمتأخرين ، مع شدة التنقيب والبحث ، ومداومة التقليب والحرث[2] .

(١) روى هذه الكلمة ابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الابصار » والصفدي صاحب « الوافي بالوفيات » وابن شاكر صاحب « عيون التواريخ » في ترجمتهم للجاحظ . [والكارة ما يحمله الرجل على ظهره من الثياب . وهي تقارب التي تسمى الآن في البلاد العربية «بقجة» . كلمة تركية، وعربيتها الفصحى «عكمة»]

(٢) في « اساس البلاغة » : « حرثت القرآن : اطلت دراسته وتدبره »

زد على ذلك ان التاريخيين الذين كتبوا لنا سيرة الجاحظ ، وأن الاخباريين الذين افادونا بعض ما له من الكتب والرسائل ، لم يشيروا قط الى هذا الكتاب باسم « كتاب التاج »[1] .

وقد وضع بعضهم في طرتها فوق حرف الباء من لفظة « كتاب » كلمة « التاج » مكتوبة بخط غير الخط الاصلي ؛ وكذلك تحت كلمة « كتاب » وضع قوله « في امور الرياسة »[2] .

وقد حصلنا ، بحمد الله ، على صورتها الفتوغرافية في الوقت المناسب . وهي التي رمزت لها بحرف (ص) وتمكنا من استخدامها بكل دقة في تحقيق هذه الطبعة .

عودة الى التحقيق في اسم التاج

والراجح عندنا ان اسم «التاج» قد صار اطلاقه على هذا الكتاب

(١) مع انه هو المكتوب على طرة النسخة المحفوظة بخزانة طوب قبو ، كما تراه في أحد الرواميز الفتوغرافية المرفقة بهذا الكتاب . ومع انه مكتوب ايضاً بطريق العرض على نسخة آيا صوفيا كما تراه في الراموز المطبوع [وهو مكتوب ايضاً في آخر نسخة « الادب الصغير » الموجودة في ضمن المجموعة المحفوظة بطوب قبو] .

(٢) انظر هذا العنوان في الراموز الثاني من الرواميز الفتوغرافية .

بعد وفاة مؤلفه بزمان. نعني فيما وراء القرن الثامن للهجرة، اي بعد عصر ياقوت والصفدي وابن شاكر الكتبي. على اننا لا يتسنى لنا ان نعين ـ ولو بطريق التقريب او التخمين ـ الوقت الذي اطلقوا فيه اسم « التاج » على كتاب اخلاق الملوك ».

هذا وانا نستبعد كل البعد ان يكون ذلك المجهول الذي كتب لفظة « التاج » على طرة النسخة الموجودة في آيا صوفيا قد استمد ذلك من النسخة الموجودة في خزانة طوب قبو. فان هذه الخزانة كانت لا تزال موصدة الابواب الى سنة ١٩٠٨ للميلاد.

وفوق ذلك، فهذا فهرسها خلو من العناوين : « التاج » و « اخلاق الملوك » بل يسوغ لنا ان نحكم بأن واضع ذلك الفهرس لم يعرف عن كل من العناوين شيئاً على الاطلاق. لان القرائن كلها ـ فيما يتعلق بهذا الكتاب وبغيره ـ تدلنا على ان واضع ذلك الفهرس انما اكتفى بأخذ العنوان الموجود في الورقة الاولى من كل مجلد، دون ان يتصفح المجلد بأكمله، ليرى ما اذا كان في تضاعيفه وثناياه كتب اخرى : كما هي العادة في كثير من كتب المشارقة، وكما هو حاصل بالفعل في تلك الخزانه نفسها.

الكتب المسماة باسم التاج

فما ظهر من المصنفات في اللغة العربية بهذ العنوان ، مرتبا على حسب تواريخ وفيات المؤلفين :

١ ـ كتاب التاج[1] في سيرة انوشروان ، لعبد الله بن المقفع (وهو اول كتاب صدر بالعربية بهذا العنوان) .

٢ ـ كتاب التاج[2] لابي عبيدة ، المتوفى فيما بين سنتي ٢٠٧ و٢١٣ للهجرة .

(١) كتاب الفهرست (ص ١١٨) . [ولعله هو الذي نقل عنه صاحب العقد الفريد ـ لاننا لم نجد في كتاب الجاحظ الذي نقدمه اليوم للقراء ما اورده ابن عبد ربه عن كتاب « التاج » ـ في الجزء الاولى من العقد الفريد (ج ١ ص ١١ ، ٢٦ وغيرهما) ولا ما اورده ابن قتيبة في كتاب « عيون الاخبار »] .

(٢) ذكر القفطي في كتاب « إنباه الرواة على انباه النحاة » كتابين لابي عبيدة احدهما باسم « التاج » والثاني بأسم « الديباج » . كذلك فعل ابن خلكان في ترجمة ابي عبيدة .

ولم يذكر هذين الكتابين ابن الانباري في « نزهة الالباء » ولاالسيوطي في « بغية الوعاة » .

وقد نقل ابن عبد ربه في العقد الفريد عن « كتاب التاج » الذي لابي عبيدة

٣ ــ كتاب التاج [١]، لابن الراوندي [٢]، المتوفي سنة ٣٠١ (ونقضه ابو سهل اسماعيل النوبختي [٣] في كتاب سماه « السبك »).

٤ ــ كتاب التاج للصابي، المتوفي سنة ٣٨٤ . ويسمى « المتوج في العدل والسياسة ».

٥ ــ كتاب التاج [٢]، لابن فارس، صاحب « مجمل اللغه »، المتوفي سنة ٣٩٥ .

ولكن ابن النديم وابن خير الاندلسي وصاحب « تاج العروس » لم يذكروا له غير كتاب الديباج . ومما ينبغي التنبيه اليه ان العبارة التي نقلها صاحب « تاج العروس » عن جمرات العرب (وقال انها عن ابي عبيدة في كتاب الديباج) نراها واردة بنصها تقريبا عن « كتاب الديباج » ايضا في كتاب « الكامل » للمبرد وهي واردة ايضا مع زيادة ونقص طفيفين في الالفاظ في العقد الفريد وصاحبه يقول بانه نقلها عن كتاب « التاج » لابي عبيدة .

نعم ان التحريف كثير في العقد الفريد ولكنه ذكر هذا « التاج » ثلاث مرات وقد شهد القفطي وابن خلكان بأن لأبي عبيدة هذا كتابين أحدهما «التاج» وثانيهما «الديباج» فهل هما كتاب واحد؟ ربما يكون ذلك كان . ولعل الرجل سمى كتابه بالديباج ثم لقبه هو أو غيره بالتاج . وذلك لأن النقول التي أوردها صاحب العقد الفريد تدل على انه موضوع في بيان مفاخر العرب وبيوتاتها، وذلك مما يحمل على الظن بأن صاحبه أراد ان يضاهي به كتاب التاج الذي ألفه الفرس. على ان المعلوم أن أبا عبيده كان من الشعوبية وكان يكره العرب، وقد ألف كثيراً في مثالبهم .

(١) ذكره في كشف الظنون، ولم يعرفنا بموضوعه .

(٢) عرفنا به ابن خير الاندلسي في جملة الكتب التي رواها عن أشياخه بالسند المتصل إلى مؤلفيها، في كتابه المطبوع بمدينة سرقسطة من اعمال إسبانيا سنة ١٨٩٥

٦ _ التاج [1] في زوائد الروضة على المنهاج ، في الفقه ، لاحد علماء القرن التاسع .

هذه هي بعض الكتب التي عرفناها بهذا الاسم ، فيما قبل الجاحظ وبعده ، مما قد بلغنا خبره وان لم يصلنا اثره [2] .

الى هنا انتهينا من انه لا مانع ان يكون الكتاب الذي بين ايدينا قد سماه صاحبه او الذين جاؤوا من بعده باسم « التاج » ولا شك عندنا ولا عند غيرنا في انه هو كتاب « اخلاق الملوك » .

من هو المؤلف لهذا الكتاب

بقي علينا امر آخر ، وهو من الجلالة بمكان .

---

(١) ذكره صاحب « كشف الظنون » في حرف التاء ثم في حرف الراء والميم

(٢) ثم ان العرب أضافوا هذا الاسم إلى غيره . فألفوا : تاج الاسماء ، تاج الانساب، تاج التراجم في طبقات الحنفية ، تاج الحرة للمعرى، تاج السلاطين في معرفة الأبالبس والشياطين ، تاج العارفين ، تاج العروس في الزهد ، تاج المداخل ، تاج المذكرين ، تاج المصادر ، تاج المعاني، تاج المعلى ، تاج المفرق،تاج النسرين. [ذكرها كلها صاحب كشف الظنون ، وقد اهملنا مما أورده ما هو بالتركية او الفارسية] ثم تاج الحلية ذكره ابن خير الأندلسي ، التاج في كيفية العلاج ، تاج الجامع ، التاج المرصع في شرح رجز أبي مقرع ، تاج المعارف وتاريخ الخلائف ، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، وهذه الكتب موجودة بخزانة باريس الأهلية ثم تاج العروس في شرح القاموس للزبيدي ، الخ الخ .

فمن هو المؤلف لهذا الكتاب ؟ ... الجاحظ ام غيره ؟

ان الجاحظ ترك نحوا من ٣٦٠ مؤلفاً ، رآها سبط بن الجوزي كلها تقريبا في مشهد ابي حنيفة النعمان ببغداد ، وان كان لم يذكر لنا شيئاً من اسمائها في « مرآة الزمان ».

ولما كان الجاحظ لم يشر في مقدمة كتاب « الحيوان » الا لشيء يسير جدا من تآليفه (وليس فيها كتاب « التاج » ولا كتاب « اخلاق الملوك ») و كذلك الحال فيما وقفنا عليه من اسفاره الاخرى، فقد بقينا من ذلك الامر في شك مريب .

نظرة في اسلوب الكتاب من حيث الانشاء

ويزداد هذا الشك متى قلنا بأن أسلوب الكتاب في مجموعه قد لا يوافق ما هو معهود من كتابة الجاحظ وظرافته ومجانته ، او ما هو معروف عنه من التمسك بأوهى الاسباب للتلاعب بالالباب .

لكننا اذا قررنا ان هذا الكتاب سفر آداب واخلاق لا دفتر تبيين وبيان ، وانه خاص بموضوع معين محصور في امر واحد معلوم ، فقد يزول ذلك الارتياب الذي ربما يعلق ببعض الاذهان .

على اننا مع ذلك نراه في «التاج» ـ كلما تراءت له سانحة او هزته نشوة ـ قد يغلبه طبعه فيستطرد ويستدرك ثم يعود ادراجه ، ولكن في المعنى الواحد وفي البابة[1] الواحدة .

واذا نظرنا بعد ذلك الى ما تضمنه « التاج » من بعض العبارات ، نرى أسلوبه يتحلى فيها على احسن مثال . فبينا هو ينقل عن آداب الفرس واحوال ملوكهم ، اذا به قد اخذته النعرة العربية فعقب بما يماثل هذه الاحوال او ما يجانسها مما كان قد وقع للعرب قبل الاسلام . وذلك كله على سبيل الاستطراد والاسترسال ، اللذين هما من اخص سجاياه .

فلو كان المؤلف رجلا غير الجاحظ ، لكان قد اشار ـ ولو عرضا او مرة واحدة ـ الى المنقول عنه بطريقة التصريح او التلميح ، او كان استعمل عبارة مبهمة تفيد النقل على اي وجه كان .

---

(١) البابة معناها : الحدّ ، الوجه ، الخصلة ، الشرط ، القبيل ، النوع . وباستعمالنا لها هنا هو بالمعنيين الأخيرين. قال الجاحظ في الحيوان (طبع دار الفكر) : « فليس الديك من بابة الكلب ، لأنه ان ساوره قتله قتلاً ذريعاً ». وقال ايضاً : « وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته » . ثم روى أيضاً ابياتاً لتميم بن مقبل ، هذا محل الشاهد منها :

بني عامر ، ما تأمرون بشاعر تخيّر بابات الكتاب هجائيا؟...

الناقلون السارقون

واذا نظرنا الآن من جهة اخرى ، رأينا ان جماعة من المؤلفين قد سطوا على هذا الكتاب ، كما اغار غيرهم على كثير من بقية الآثار التي دبجها بنان الجاحظ . وقد اشرنا الى شيء كثير من هذا القبيل في

وقال الجاحظ أيضاً في كتاب البخلاء (طبع دار العرفان) : « أنت من ذي البابة ... ؛ وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة » .

– ومثل ذلك (في نفح الطيب ، قول القاضي محمد بن بشير الاندلسي" :

إنما أزرى بقدري أنني لست من «بابة» أهل البلد...

وفي « تاج العروس » ما خلاصته : « هـذا بابته أي شرطه ؛ وإذا قال : الناس من بابتي ، فمعناه من الوجه الذي أريده ويصلح ... ...

والبابة في الحساب والحدود ونحوه الغاية .

وقال البيروني" في كتاب « تحقيق ما للهند » : وبسببه أقول فيما هو بابتي منهم ... (ص ١٢) .

وفي « شفاء الغليل » انهم يقولون للعب خيال الظل بابة [أي لكل نوع وقسم من انواع التمثيل واقسامه التي نسميها الآن فصول الرواية] فيقولون بابات خيال الظل : وقد أورد الخفاجي هناك تفصيلاً لطيفاً وتورية بديعة في اشعار رائقة. فانظرها .

وعلى ذلك قول ابن إياس المؤرخ المصري : « فكانوا مثل بابات خيال الظل": فشيء يجيء وشيء يروح » (بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١ ص ٣٤٧).

الحواشي التي حُلِّيَتْ بها صفحات هذه الطبعة .

فعلينا ان نبحث فيما اذا كان القلم قد خان بعض الناقلين فتركوا اثراً محسوسا ملموسا يُستدل به تصريحا او تلميحا على ان كتابنا هذا انما هو من نفثات يراع الجاحظ .

فهذا المسعودي، قد استحوذ على حديث يزيد بن شجرة مع معاوية ولما اضطر لنقل حكم الجاحظ ، حاسب ذمته وراجع ضميره فلم ينسبه لنفسه بل اكتفى بقوله : « قال بعض اهل المعرفة والادب ممن صنف الكتب في المعنى وغيره » .

وهذا البيهقي ، حذا حذو المسعودي . ولكنه تخبط عند ما نقل حكم الجاحظ والحديث الذي يرويه ممن القاه اليه .

وهذا صاحب « محاسن الملوك » سطا على « التاج » فنقله تقريبا : تارة بالحرف وغالبا بالاختصار . وكانه قد عاهد نفسه ان لا يذكر الجاحظ قط ، غير انه سها في آخر الامر فذكره وسماه بأسمه مرتين واورد الفاظه بمعناها .

على ان هذه الشواهد ـ وان كان التدليل بها ، كما يقول الجاحظ،

قائما في العقل مُطَّرِداً في الرأي غير مستحيل في النظر [1] ـ فانها ، والحق يقال ، لم تصل بنا الى حد اليقين الذي يحسن التسليم به والسكوت عنده ، لانها لا تتضمن القول المقنع ولا الدليل الذي تثلج به الصدور . ونحن انما نتلمس البرهانات النيرة الناصعة ، والحجج الظاهرة الساطعة ، والشهادات القائمة اللامعة ، التي ينتهي اليها العلم ، ويقف عندها البيان .

بحث عن الكتب المسماة اخلاق الملوك

اذا ما نظرنا فيما وصل الينا عن الكتب المسماة بـ « اخلاق الملوك » نرى أن الامر لا يتعدى ثلاثة من الناس ، وهم : الفتح بن خاقان ، ومحمد بن الحارس التغلبي (او الثعلبي) ، والجاحظ .

فلننظر ايهم هو صاحب كتابنا هذا !

التعريف بالفتح بن خاقان

١ ـ الفتح بن خاقان . هذا الوزير كان من المغرمين بالكتب

١ ـ كتاب الحيوان

غراماً شديدا . وكانت له خزانة حكمة لم ير الناس اعظم منها : كثرة وحسنا . جمعها له عليّ بن يحيى المنجم من كتبه ومما استكتبه الفتح نفسه [1] .

وقد كان يشمل برعايته كثيرا من اكابر العلماء ، وكان يحضر داره فصحاء الاعراب وعلماء البصرة والكوفة . وممن كان في جملته المفضَّل بن سلمة اللغوي المعروف [1] . وكان الفتح يَتَبارى في تف ير الآيات مع المبرد وأمثاله [2] . وللبحتري فيه مدائح كثيرة ، هي من غرر ديوانه . وصنف جماعة منهم كتبا باسمه – اي قدموها اليه – ومن جملتهم الجاحظ ، وكذلك العلأمة الشهير أبو جعفر محمد بن حبيب الذي صنف باسمه « كتاب القبائل الكبير » . ومثلها صاحبنا محمد بن الحارث ، صاحب الكتاب المسمى « اخلاق الملوك » الذي سيأتي الكلام عليه عما قريب .

فلا غرابة ان رجلا مثل الفتح في محبته للكتب واجتماعه بالعلماء ومشاركته لهم في المباحث الدقيقة يكون هو ايضا من جملة المصنفين . فقد روى له صاحب « الفهرست » اربعة كتب ؛ وهي :

(١) انظر كتاب الفهرست ، والوافي بالوفيات في ترجمة الفتح بن خاقان

(٢) انظر مروج الذهب

(١) كتاب الصيد والجوارح ،

(٢) كتاب الروضة والزهر ،

(٣) كتاب البستان ،

(٤) كتاب اختلاف الملوك . (هكذا بالتاء والفاء)

فاما الكتاب الاول والثاني والثالث فهي خارجة عن موضوعنا وعن دوائر « اختصاصنا » وبحثنا . ولا شبهة لنا في انه من تصنيف هذا الوزير ، لا سيا انه يتعلق بأمور ، يالفها الملوك والامراء والوزراء والسادات . ونحن نعلم انه كان فارساً مقدما وانه قتل اسدا ، على ما تشهد به احد القصائد الطنانة التي مدحه بها البحتري .

واما الكتاب الرابع ، فالظاهر ان اسمه ورد محرفا عن « اخلاق الملوك » . ولا نستشهد بأن صاحب « معجم الادباء » ولا صاحب « كشف الظنون » ولا صاحب « الوافي بالوفيات » لم يذكروا ان للوزير كتابا باسم « اختلاف الملوك » او « اخلاق الملوك » لانه ربما يكون قد فاتهم ، هذا ان كان . ولكننا نقول هنا انه يجوز ان يكون هذا الكتاب للفتح ، او لمحمد بن الحارث ، او للجاحظ .

فان كان للفتح كتاب باسم « اخلاق الملوك » او « اختلاف

الملوك » فهو عـلى كل حال ليس الذي بأيدينا . لان كتاب (التاج) يتضمن في اوله وفي آخره مدحا للفتح بن خاقان وتنويها بذكره ، وينادي صاحبه بأعلى عقيرته انه قدمه للفتح بن خاقان .

وعلى كل حال فليس للفتح بن خاقان شأن فيما نحن بصدده .

كلام عن محمد بن الحارث

بقي علينا ان نبحث عما يتعلق بابن الحارث التغلبي (او الثعلبي) الذي يؤكد لنا ابن النديم بانه الف كتابا باسم (اخلاق الملوك) .

إنا لا نرى مـانعاً أن يكون هذا الرجل ألف كتاباً بهذا الاسم وقدمه الى الوزير . وانما اقول ان ذلك لا يعارض ان يكون الجاحظ أيضا قد ألف كتابا آخر وترجمه بنفس ذلك العنوان ثم قدمه الى الوزير نفسه . فكثيرا ما المتعاصرين يؤلفون كتبا بعنوان واحد ويقدمونها الى سريّ واحد [1] .

---

(١) انظر كتاب الفهرست ، ومعجم الادباء ، وكشف الظنون (في غير ما موضع) .

استفتاء الكتاب نفسه لمعرفة موءلفه

تعالوا بنا نسائله ليخبرنا هو عن مؤلفه الحقيقي بما يزول معه كل ارتياب وتتجلى به الحقيقة ناصعة دون حجاب .

الكتاب يدلي بحجة صاحبه وينادي على رؤوس الاشهاد بأنه من تأليف الجاحظ .

اسلوب الجاحظ

اولا – ان الجاحظ قد امتاز بأسلوب مخصوص من الكتابة والتعبير : أسلوب فيه حلاوة ، وعليه طلاوة ، وله رشاقة ؛ أسلوب تتجلى فيه الالفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة؛ والطبع المتمكن ، والمعاني التي اذا طرقت الصدور غمرتها ، واذا صارت الى القلوب اصلحتها من الفساد القديم ، واذا جرت على الالسنة فتحت لها ابواب البلاغة .

وها هو « التاج » اذا أجلنا النظر في تضاعيفه وثناياه واعطافه ، وجدناه حاليا بعيون الكلم الروائع والفقر الحسان ، والنتف الجياد ، مما ينادي بأن صانعه الماهر ، وصائغه الحاذق ، هو هو « الجاحظ » صاحب السبك الجيد ، ورب الكلام الذي له ماء ورونق وفيه قرة العين وجلاء الصدور . تلك الصنعة عليها طابع الجاحظ كما هو معهود عند نقاد الالفاظ وصيارفة النثار والنظام وجها بذة المعاني .

بعض مصادره

ثانياً ـ ان بعض المصادر التي عول عليها صاحب « التاج » نجدها متفقة مع ما نراه في الكتب التي لا ريب في انها من اثار (الجاحظ) .

فقد اعتمد الجاحظ على ابن نجيح [١] وعلى ابراهيم بن السندي ابن شاهك [٢] وعلى محمد بن الجهم [٣] وعلى صباح بن خاقان [٤] .

---

(١) في « التاج » وفي « الحيوان »

(٢) في « التاج » وفي « الحيوان » وفي « البخلاء » وفي « البيان والتبيين » وفي « مناقب الترك » وفي « العشق والنساء » .

(٣) في « التاج » وفي « الحيوان » (في مواضع كثيرة من جميع الاجزاء) وفي « البخلاء » وفي « البيان والتبيين » وفي « مناقب الترك » .

(٤) في « التاج » وفي « الحيوان » وفي « البيان »

وكذلك شأنه في النقل عن (كليلة ودمنة) [1].

اما المدايني والهيثم والشرقي بن القطامي ، فالنقل عنهم كثير جداً في كل كتبه . فلا نطيل بالاستدلال بهم فيما نحن بصدده .

تكرار الجاحظ وترداده

ثالثا ــ ان الجاحظ مشهور بالتكرار والترداد . وهو امر نشاهده ايضا في كتاب (التاج) والدليل :

١ ــ في كلامه على تفرد الملوك .

٢ ــ في بيانه لكمية الشرب وكيفيته .

٣ ــ في شرحه لاستماع حديث الملوك .

٤ ــ في ذكره لطريقة تحديث الملوك .

٥ ــ في سرده سيرة الخلفاء والملوك في الشرب .

٦ ــ في اتيانه على آداب اهل الزلفى بعد المضاحكة .

٧ ــ في دلالته على وجوب الاحتياط على الملك عند الدنو منه .

(١) في « التاج » وفي « الحيوان »

وهنالك مواضع اخرى من هذا القبيل ، اضربنا عن ذكرها لانها مبثوثة في الكتاب يراها المتأمل بغير عناء .

اشارته الى كتبه المتقدمة

رابعاً — لان المؤلف نفسه يقول في أول (التاج) .

« ولعل قائلا يقول ، اذا رآنا قد حكينا في كتابنا هذا بعض اخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب : « قد ناقض واضع هذا الكتاب اذ زعم أنه ليس لاخلاق الملك الاعظم نهاية » فيظلم في اللفظ ويعتدي في المقال . وأولئك الملوك عند ملوكنا كالطبقة الوسطى عند النمط الأعلى . أنت تجد ذلك عيانا وتشهد عليه بيانا . وعلى ان هذه المقالة لا يقولها من نظر في سير من مضى وسير من شاهد وبالله التوفيق ! »

وبديهي ان محمد بن الحارث لا يصح له ان يقول مثل هذه الكلمة لان كتبه الثلاثة (الصيد والجوارح) و (الروضة والزهر) و (البستان) لا تحتمل ان تكون موضوعا لبعض (اخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب) . اما الذي له الحق الصراح في ان يأتي بمثل هذا القول فانما هو الجاحظ دون صاحبه . وها هي كتب الجاحظ التي

وصلت الينا نراهـا مفعمة بتفاصيل من هذا القبيل ! فما ظنك بالتي ضن بها علينا الزمان ؟

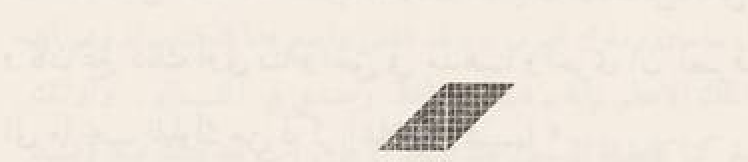
تصريحه بكتاب معين له

خامساً ـ لان مصنف « التاج » يقول في خطبته : « انا ألفنـا كتاباً قبل كتابنا هذا فيه اخلاق الفتيان وفضائل اهل البطالة . وكان غير ذلك اولى بنا واحق في مذهبنا واحرى ان نصرف عنايتنا الى ما يجب للملوك من ذكر اخلاقها وشيمها » .

تأكيده لهذا التصريح

سادساً ـ ان المؤلف يعود فيؤكد ذلك بقوله : «فرأينا اذ اخطأنا في تقديمنا أخلاق اهل البطالة ـ وان كان فيها بعض الآداب ومـا يحتاج اليه اهل الشرف من محاسن الاخلاق ـ ان نتلافى ما فرط منا بوضع كتاب في اخلاق الملوك وخصائصها التي هي لها في نفسها » .

فهذان نصان صريحان في ان الذي ألف كتابا في اخلاق اهل البطالة هو نفس الذي صنف كتاب « اخلاق الملوك ». ولا مرية عند احد في ان الجاحظ هو الذي صنف كتاب الفتيان واخلاق اهل البطالة .



الحمد لله الذي قتل ابرويز على يديك وملّكك ما كنت أحق به
منه وأراح آل ساسان من جبريته وعتوه وبخله ونكده
فإنه ممن كان يأخذ بالحنة ويقتل بالظن ويخيف البريء ويعمل
بالهوى فقال شيرويه للحاجب احمله الى الحبس فقال له
كم كانت ارزاقك في حياة ابرويز قال كنت في كفاية من العيش
قال فكم زيد في رزقك اليوم قال ما زيد في رزقي شيء
قال فهل آذاك ابرويز فانتقصت منه مما سمعت من كلامك
قال لا قال فما دعاك الى الوقوع فيه ولم يقطع عنك رزقا
ولا آذاك في نفسك وما للعامة والوقوع في الملوك وهم
رعيته فأمر ان ينزع لسانه من قفاه وقال عمرو يقال
ان الخرس خير من البيان بما لا يجب ه وحدثني
صباح بن خاقان قال حدثني رجل ان ابا جعفر لما اتي برأس
ابرهيم بن عبد الله فوضع بين يديه جاء بعض اولئك
الروندية فضرب الراس بعمود كان في يده فقال
المنصور للمسيب دق وجهه فدق المسيب انفه ثم قال له

(الراموز الثالث)

تتمثل فيه احدى صفحات النسخة السلطانية (وهي صفحة ٩٣ من الاصل)

٢٩

الآن وعرفت غرضه فقلت آخذ بسبعين ولك ثلثون قال شانك فانصرفت
بسبعين بدرة وانصرف ملك الموت عن الدار   قال وكان الرشيد
في اخلاق ابي جعفر خلفا كلها الا في العطايا فانه كان يحتذو افعال
ابي العباس والمهدي ومن اخبرك انه رآه يشرب الا الماء فكذبه وكان
لا يحضر شربه الا خاص جواريه وربما طرب للغناء فتحرك حركة بين
الحركتين في القلة والكثرة وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل
للمغنين مراتب وطبقات على ما وضعهم اردشير وانوشروان وكان
ابرهيم وابن جامع وزلزل في الطبقة الاولى وكان زلزل يضرب ويغني
هذان عليه والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن
اشبههما والطبقة الثالثة اصحاب المعازف والونج والطنابير
وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم   وكان اذا وصل
واحدا من الطبقة الاولى بالمال الكثير الخطير جعل لصاحبيه الذين

(الراموز الرابع)

تتمثل فيه احدى صفحات النسخة المحفوظة في آيا صوفيا (وهي صفحة ٢٩)

مقدمة المؤلف

الجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمدُ لله الذي لَهُ ما في السَّموَاتِ وما في الأرضِ ولَهُ الحمدُ في الآخرةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ . »

احمده على تتابع الائه ، وتواتر نعمائه ، وترادف مننه ؛ واستهديه واستوفقه لما يرضيه ويرضى فيه .

واشهد ان لا اله الا الله الذي لا شبيه له ولا نظير ، الذي جل عن الاجزاء والتبعيض ، والتحديد والتمثيل ، والحركة والسكون والنُّقلة والزوال ، والتصرف من حال الى حال . الا هو الكبير المتعال !

واشهد ان محمدا عبده ورسوله وامينه ونجيُّه ! ابتعثه على فترة

من الرسالة وطموس من الهداية ودروس من شرائع الانبياء والمرسلين « لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ » والعرب تئد اولادها وتتسافك دماءها وتتباوح[1] اموالها وتعبد اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى. فصدع بأمر ربه، وجاهد في سبيله، ودعا الى معالم دينه، وجاء بما اعجز الجن والانس ان يأتوا « بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً . » فصلى الله عليه وعلى جميع المرسلين! وخصَّه بصلاة من نوافله دون العالمين! وعليه السلام ورحمة الله وبركاته!

اما بعد.

فان الذي حدانا على وضع كتابنا هذا معان:

منها ان الله (عز وجل) لما خص الملوك بكرامته، وكرمهم بسلطانه، ومكن لهم في البلاد، وخولهم امر العباد، اوجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظهم، كما اوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم. فقال في محكم كتابه: « وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . »

وقال عز وجل: « أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ

(١) قال في لسان العرب: والاباحة شبه النهبى وقد استباحه اي انتهبه.

مِنكُمْ . »

ومنها ان اكثر العامة وبعض الخاصة ، لما كانت تجهل الاقسام التي تجب لملوكها عليها ــ وان كانت متمسكة بجملة الطاعة ــ حصرنا آدابها في كتابنا هذا لنجعلها قدوة لها واماما لتأدبها .

وايضا فان لنا في ذلك اجرين : اما احدهما فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها ، واما الآخر فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها ورد كل نافر اليها .

ومنها ان سعادة العامة في تبجيل الملوك وطاعتها ، كما قال اردشير بن بابك : « سعادة الرعية في طاعة الملوك ، وسعادة الملوك في طاعة المالك . »

ومنها ان الملوك هم الاس والرعية هم البناء . وما لا أس له مهدوم .

ومنها انا ألفنا كتاباً قبل كتابنا هذا ، فيه اخلاق الفتيان وفضائل اهل البطالة وكان غير ذلك اولى بنا واحق في مذهبنا واحرى ان نصرف عنايتنا الى ما يجب للملوك من ذكر اخلاقها وشيمها اذ فضلها الله على العالمين ، وجعل ذكرها في الباقين الى يوم الدين .

الا ترى حين ذكر الله تعالى الامم السالفة والقرون الخالية، لم يقصد من ذكرها الى وضيع ولا خمل ؟

بل قال تعالى حكاية عمن مضى منهم : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . » وقال تبارك اسمه : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ . »

وقال جلّت عظمته : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ . »

وقال جلّ وعلا : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ . »

وقال تقدست أسماؤه : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً . »

وقال تبارك وتعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

وقال عز وجل ، وقد بعث موسى عليه السلام الى اعتى خلقه وأشدهم عُنوداً وصدوفاً عن أمره : (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) .

فليفهم الحكماء هذه الاعجوبة التي وصلت عن الله تبارك وتعالى ! فان فيها حكمة عجيبة وموعظة بليغة وتنبيها لمن كان له قلب .

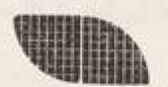
حدثنا اصحابنا عن شبابة عن ورقاء عن ابن ابي نجيح عن مجاهد في قوله تبارك وتعالى : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) قال : كنياه[1]

وانما امرهما بذلك لان الملوك ـ وان عصى اكثرها ـ فمن حقها ان تدعى الى الله باسهل القول والين اللفظ واحسن المخاطبة . فاذا كان هذا حكم الله في العاصي من الملوك والذين ادعوا الربوبية وجحدوا الآيات وعاندوا الرسل ، فما ظنك بمن اطاع الله منها ، وحفظ شرائعه وفرائضه ، وقلد مقام انبيائه ، وجعله الحجة بعد حجته ، وفرض طاعته حتى قرنها بطاعته وطاعة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ؟

(١) انظر كتب التفسير وانظر المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي.

اهداء الكتاب

فرأينا - اذ أخطأنا في تقديمنا اخلاق اهل البطالة ، وان كان فيها بعض الآداب وما يحتاج اليه اهل السرف من محاسن الاخلاق - ان نتلافى ما فرط منا بوضع كتاب في اخلاق الملوك وخصائصها التي هي لها في انفسها ، وان نخص بوضع كتابنا هذا (الامير الفتح بن خاقان) مولى امير المؤمنين : اذ كان بالحكمة مشغوفا ، وعلى طلبها مثابرا ، وفيها وفي اهلها راغبا ، ليبقى له ذكره ويحيا به اسمه ، ما بقي الضياء والظلام . وبالله التوفيق والاعانة !



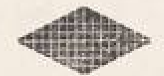
الفاتحة

وبعد ، فان اكثر كلامنا في هذا الكتاب انما هو على من دون الملك الاعظم . اذلم يكن في استطاعتنا ان نصف اخلاقه ، بل نعجز عن نهاية ما يجب له لو رمنا شرحها . وايضاً فان من تكلف ذلك بعدنا من الناس باقصى تكلّف واغور ذهن وأحد فكر ، فلعله ان يعتذر بمثل اعتذارنا .

وليس لاخلاق الملك الاعظم نهاية تقوم في وهم ، ولا يحيط بها فكر . وانت تراها تتزيّد مذ اول ملكٍ ملك الدنيا الى هـذه الغاية . ومن ظن انـه يبلغ اقصى هذا المدى ، فهو عندنا كمن قال بالتشبيه مثلاً ، وبالجسم معارضة .

ولعل قائلاً يقول ، اذا رآنا قد حكينا في كتابنا هـذا بعض اخلاق الملوك الماضين من آل ساسان وملوك العرب : (قـد ناقض

واضع هذا الكتاب ، اذ زعم انه ليس لاخلاق الملك الاعظم نهاية) فيظلم في اللفظ ويعتدي في المقال . واولئك الملوك هم عند ملوكنا كالطبقة الوسطى عند النمط الاعلى . انت تجد ذلك عيانا وتشهده عينك بيانا . وعلى ان هذه المقالة لا يقولها من نظر في سير من مضى وسير من شاهد . وبالله التوفيق !

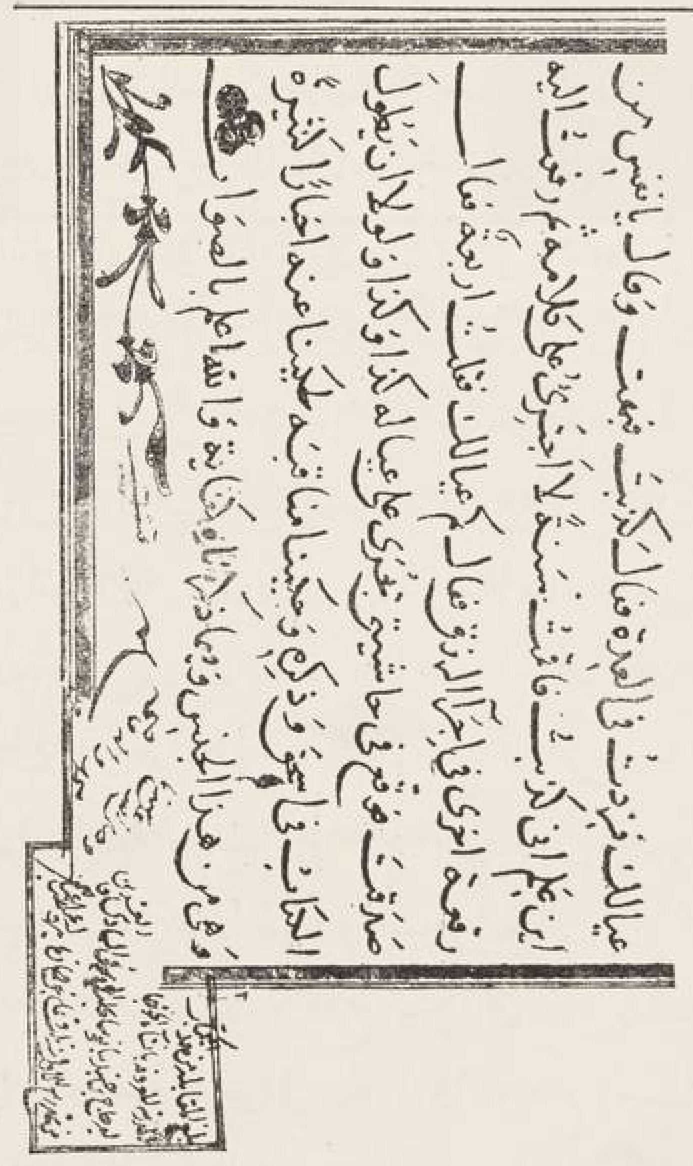


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم العلامة
ذو التصانيف المفيدة والمقاصد الحميدة
أبو عثمن عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم
الخبير أحمده على تتابع آلائه وتواتر نعمائه وترادف مننه وأستوفقه
لما يرضيه ويرضى فيه وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لا شبيه له ولا نظير
الذي جل عن الأجزاء والتبعيض والتحديد والتمثيل والحركة والسكون
والنقلة والزوال والتصرف من حال إلى حال لا إله إلا هو الكبير
المتعال أما بعد فإن الذي يحدونا على وضع كتابنا هذا أشياء منها أن
الله عز وجل لما خص الملوك بكرامته وأكرمهم بسلطانه ومكن لهم في البلاد
وخولهم أمر العباد وجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيرهم
كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم فقال في محكم كتابه وهو
الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وقال
عز وجل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ومنها أن أكثر
العامة وبعض الخاصة لما كانت تجهل الأقسام التي تجب للملوك عليها
وإن كانت متمسكة بجملة الطاعة حضرنا أن نثبت في كتابنا هذا [illegible] بجملة

(الراموز الخامس) تتمثل فيه الصفحة الاولى من النسخة الحلبية (المكتوبة في سنة ٨٨٣ هجرية)



(الراموز السادس)

تتمثل فيه الصفحة الاخيرة من النسخة الحلبية

باب

في الدخول على الملوك وفيما يجب على الملك اذا دخل الرجل عليه

الاشراف وسلامهم وقعودهم وانصرافهم

ان كان الداخل من الاشراف والطبقة العالية ، فمن حق الملك ، ان يقف [1] منه بالموضع الذي لا ينأى عنه ولا يقرب منه ، وان يسلم عليه قائما . فان استدناه ، قرب منه فاكب على اطرافه يقبلها . ثم تنحى عنه قائما حتى يقف في مرتبة مثله . فان أومأ اليه بالقعود ، قعد ؛ فان كلمه ، أجابه بانخفاض صوت وقلة حركة . وان سكت ، نهض من ساعته قبل ان يتمكن به مجلسه بغير تسليم ثان ولا انتظار امر.

(١) اي الداخل

الاوساط سلامهم وقعودهم وانصرافهم

وان كان الداخل من الطبقة الوسطى فمن حق الملك اذا رآه ، ان يقف وان كان نائياً عنه. فان استدناه ، دنا خطىً ثلاثا او نحوها . ثم وقف ايضا . فان استدناه ، دنا نحواً من دنوه الاول ، ولا ينظر الى تعب الملك في اشارة او تحريك جارحة . فان ذلك ، وان كان فيه على الملك معاناة ، فهو من حقه وتعظيمه .

وان كان دخوله عليه من الباب الاول يقابل وجه الملك ويحاذيه ـ وكان له طريق عن يمينه او شماله ـ عدل نحو الطريق الذي لا يقابله فيه بوجهه ثم انحرف نحو مجلس الملك ، فسلم قائما ملاحظاً للملك . فان سكت عنه ، انصرف راجعاً من غير سلام ولا كلام . وان استدناه ، دنا خطى ايضا ثم رفع رأسه حتى اذا أمسك الملك عن اشارة او حركة وقف (في ذلك الموضع الذي يقطع الملك فيه اشارته) قائما فان أومأ اليه بالقعود ، قعد مقعياً [1] او جاثيا . فان كلمه ، اجابه بانخفاض

(١) في النسخة : « مقنعا » واقنع الرجل رأسه نصبه او لا يلتفت يمينا ولا شمالا وجعل طرفه موازيا . (قاموس) .

صوت وقلة حركة وحسن استماع . فاذا قطع الملك كلامه، قام فرجع القهقرى . فان امكنه ان يستتر عن وجهه بجدار او مسلك لا يحاذيه اذا ولى ، مشى كيف شاء .

استقبال الملك للمساوين له وتشييعهم

وعلى الملك ــ اذا دخل عليه من يساويه في السلطان والتبع والعز والولادة والبيت ــ انيقوم فيخطو اليه خطى ويعانقه ، ويأخذ بيده فيقعده في مجلسه ويجلس دونه . لان هذه حال يحتاج الملك الى مثلها من الداخل عليه ، اذا زاره . فان بخسه حظه ومنعه ما يجب له ، لم يأمن الملك ان يفعل به مثل ذلك. ومتى فعل كل واحد منهما بصاحبه ما هو خارج عن النواميس والشرائع ، تولد من ذلك فساد وحدثت ضغائن بين الملوك يقع بسببها التباغض والتعادي والتحاسد واذا اجتمع ذلك في المملكة، كان سبباً للبوار وداعية الى التحارب .

وعلى الملك ــ اذا اراد هذا الذي قدمنا صفته الانصراف ــ ان يقوم معه اذا قام ، ويدعو بدابته ليركب حيث يراه ويشيعه ماشيا قبل ركوبه خطى يسيرة ، ويامر حشمه بالسعي بين يديه .

وعلى هذا كانت اخلاق آل ساسان من الملوك وابنائهم . وبهذه السياسة اخذهم اردشير بن بابك . فلم تزل فيهم حتى ملك كسرى ابرويز فغيرها . فكان مما اعتدَّ عليه شيرويه ، ابنه ، في ذكر مثالبه ومعايبه [1] .

وقد قلنا ان من حق الملك ان لا يطيل احد عنده القعود . فان اخطأ مخطئ في ذلك ، فمن اذن الملك له بالانصراف ان يلحظه . فاذا عرف ذلك فلم يقم ، كان ممن يحتاج الى ادب ، وكان الذي وصله بالملك ظالماً له ولنفسه .

---

(١) أبرويز هذا كاتبه النبي يدعوه للاسلام فمزق كتابه وقال: يكتب هذا وهو عبدي فدعا عليه النبي بتمزيق ملكه . استبد بفارس فوثب عليه ابنه شيرويه (وهو ايضاً شيري) فحبسه وارسل اليه ينعى عليه ما ارتكبه من المثالب والمعايب في في رسالة خشنة يقطر منها الدم في تقريعه بافاعيله ثم قتله وارسل شيرويه بعد ان جلس على سرير الملك كتابا الى النبي في جملته : اما بعد فانني قتلت كسرى ، ولم اقتله الا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل اشرافهم وتجميرهم في ثغورهم [وتجميرهم العساكر حبسهم في ارض العدو وعدم ارجاعهم الى وطنهم] . هذا ولكن شيرويه لم يظفر بالملك بعد ابيه سوى ستة اشهر فمات بعلة افاض المؤرخون في وصفها .

ومن غريب الاتفاقات التي لاحظها كتاب العرب ان الملك الذي يقتل اباه لا يهني عليه بالملك سوى ستة اشهر فقط ، كما حصل لزيد بن عبد الملك الاموي ، وكما حصل للمنتصر العباسي .

باب

في مطاعمة الملوك

تخفيف الاكل بحضرة الملك

ومن حق الملك – اذا تبذل مع احد وانس به حتى طاعمه – ان لا ينبسط بين يديه في مطعمه. – فان في ذلك خلالا مذمومة :

منها، ان انبساطه يدل على شرهه ؛

ومنها. ان في ذلك سوء ادب وقلة تميز ؛

ومنها، ان فيه جرأة على الملك ببسط اليد ومدها و كثرة الحركة.

وليس في كثرة الاكل مع الملك معنى يحمد، الا ان يكون الآكل كميسرة التراس او جفيص الكيال [1]، الذين انما يحضرون

(١) اورد المسعودي هذين الاسمين هكذا : « ميسرة التمار » و « حاتم الكيال ». وسمى طابع الابشيهي اولهما « ميسرة البراش ». وقد اوردا، هما

لكثرة الاكل فقط . فاما اهل الادب وذوو المروءة ، فانما حظهم من مائدة الملك المرتبة التي رفعهم اليها والانس الذي خصهم به .

قال : وحدثني بن السندي (بن شاهك) [1] عن ابيه ، قال : دخل شاب من بني هاشم [2] على المنصور ، فاستجلسه ذات يوم ودعا بغدائه ، وقال للفتى : ادنه . فقال الفتى : قد تغديت . فكف عنه الربيع حتى ظننت انه لم يفطن لخطإه . فلما نهض للخروج ، امهله . فلما كان من وراء الستر ، دفع في قفاه . فلما رأى الحجاب ذلك منه ، دفعوا في قفاه حتى اخرجوه من الدار . فدخل رجال من عمومة الفتى فشكوا الربيع الى المنصور . فقال المنصور : ان الربيع لا يقدم على مثل هذا ، الا وفي يده حجة ؛ فان شئتم اغضيتم على ما فيها ، وان شئتم سألته وانتم تسمعون . قالوا : فسله ! فدعا الربيع ، وقصوا قصته . فقال الربيع : « هذا الفتى يسلم من بعيد وينصرف . فاستدناه امير المؤمنين ، حتى سلم عليه من قريب ، ثم امره بالجلوس . ثم تبذل [3]

والراغب الاصفهاني ، نوادر كثيرة لطيفة لمشاهير الاكلة ، انظر العقد الفريد ومروج الذهب وكتاب البخلاء للجاحظ والاغاني لابي الفرج الاصفهاني وغيرها من المصنفات .

(١) ذكره في « تاج العروس » في ماده س ن د ، وارد له شعراً .

(٢) هو محمد بن عيسى بن علي الهاشمي [كما في « المحاسن والمساوي »]

(٣) اي الفتى . [وروى الجاحظ هذه الحكاية بهذه الالفاظ عن ابراهيم بن السندي عن ابيه في كتاب « البيان والتبيين » ج ٢ ص ٣٨ – ٤٨ طبع مصر]

بفضيلة المرتبة التي صيره[1] فيها ان قال حين دعاه الى طعامه : « قد فعلت . » واذاً ليس عنده لمَن اكل مع امير المؤمنين الا سد خلة الجوع . ومثل هذا لا يقومه القول دون الفعل » .

حدثني احمد بن عبد الرحمن الحراني[2] ، قال : « كنت احضر على مائدة اسحاق بن ابراهيم[3] ، انا وهاشم ابن اخي الابرد والنا قدي . فكنت اعد على مائدته ثلاثين طائرا . فأما الحلو والحامض والحار والقار ، فاكثر من ان احصيه . فلا نرزأ[4] من ذلك كله الا مقدار ما يأكل الطائر . انما نكسر الخبز بأظفارنا . » قلت : فما كان ينشطكم ؟ قال لا ، ولو فعل ما فعلنا . قال : فما هو الا ان نتوارى عن عينه حتى ننتهب .

وكذلك يجب للملوك ان لا يشره احد الى طعامهم ، ولا يكون غرضه ان يملأ بطنه وينصرف الى رحله[5] : الا ان يكون الآكل اخا الملك او ابنه او عمه او ابن عمه ، او من اشبه هؤلاء ؛ ويكون ايضاً

(١) اي الخليفة .

(٢) ذكر الطبري رجلا بهذا الاسم (سلسلة ٣ ص ٢٣٨١) ووصفه بالراوي .

(٣) هو الامير اسحاق بن ابراهيم المصعبي حاكم بغداد في ايام المأمون والمعتصم والواثق وهو الذي سيرد ذكره كثيراً في هذا الكتاب .

(٤) اي : نصيب منه . يقال : انه لقليل الرزء من الطعام ، اي قليل الاصابة منه . (تاج العروس)

(٥) بيته .

ممن يقصر بعد الاكل ويطيل المنادمة ، ويجعل ما يأكل غذاء يومه وليلته ، اذ كان لا يمكنه الانصراف متى شاء[1] .

عقوبة الشره عند الفرس

وكانت ملوك فارس ، اذا رأت احدا في هذه الحال التي وصفنا من شره المطعم والنهم ، اخرجوه من طبقة الجد الى طبقة الهزل ، ومن باب التعظيم الى باب الاحتقار والتصغير .

والملك ـ وان بسط الرجل لطعامه ـ فمن حقه على نفسه وحق الملك عليه ان لا يترك استعمال الادب ولا يميل الى ما تهوى طبيعته . فانه من عرف بالشره ، لم يجب له اسم الادب ؛ ومن عرف بالنهم ، زال عنه اسم التمييز .

واذا وضع الملك بين يدي احد طعاماً ، فليعلم ذلك الرجل انه لم يضعه بين يديه ليأتي عليه ، بل لعله ـ ان كان لم يقصد بذلك الى اكرامه او مؤانسته ـ ان يكون اراد ان يعرف ضبطه نفسه ، اذا

(١) روى هذه الآداب بزيادة وباختصار في « محاسن الملوك » (ص ٢٨) واورد فيها قولهم : « موائد الملوك للشرف لا للسرف . »

رأى ما يشتهي من بسطه لها .

وحسب الرجل ـ اذا اتحفه الملك بتحفة على مائدته ـ ان يضع يده عليها . فان ذلك يجزئه [1] ويزيد آدابه [2] .

بين معاوية والحسن بن علي بشأن دجاجة

الا ترى الى معاوية بن ابي سفيان حين وضع بين يدى الحسن عليه السلام دجاجة ففكها، نظر اليه معاوية فقال : هل كان بينك وبينها [3] عداوة ؟ فقال له الحسن : هل كان بينك وبين امها قرابة [4] ؟

ضيافات معاوية في عاصمته وسائر قواعد مملكته

ان هذا الكلام الذي دار بينهما قد قرح [5] في قلب كل واحد

(١) اي يكفيه .

(٢) اورد صاحب « محاسن الملوك » هذه الآداب المتقدمة مختصرة في باب ادب مؤاكلة الملوك . (ص ٢٩) .

(٣) وقد روى هذه الحكاية صاحب «المستطرف» وعلق عليها بقوله : « اراد معاوية ان الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك ، والحسن اعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة » (ج ١ ص ٢١٣)

(٤) تغدى رجل مع بعض الرؤساء ، فقدم اليه جديا ، فجعل يمعن فيه . فقال له الرئيس : انك لتمزقه حتى كأن اباه نطحك ! فقال له : وانت تشفق عليه كأن امه ارضعتك . فخجل وانقطع. (انظر «مطالع البدور في منازل السرور» ج٢ص٥٢)

(٥) معناه جرح

منها . ومعاوية لم يقل هذا القول ، لانه كان يعظم عليه قدر الدجاجة .

فكيف يكون ذلك ، وهو يكتب الى اطرافه وعماله والى زياد [1] بالعراق باطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة ، وله في كل يوم اربعون مائدة يتقسّمها وجوه جند الشام ! ولكن علم ان من حق الملك توقير مجلسه وتعظيمه . وليس من التوقير والتعظيم مد اليد واظهار القَرَم وشدة النهم وطلب التشبع بين يدي الملوك وبحضرتها وعلى هذا كانت ملوك الاعاجم من لدن اردشير بن بابك الى يَزْدَجِرْدَ [2] .

اختبار سابور لرجل رشحه لقضاء القضاة

ويقال ان سابورذا الاكتاف [3] لما مات مُوبَذَانُ مُوبَذ [4] ،

(١) هو زياد ابن أبيه الذي استلحقه معاوية ببيته . واخباره مشهورة معلومة تكفلت بها كتب التاريخ

(٢) بعضهم يضبط هذا الاسم بفتح الجيم وبعضهم بكسرها ، وطائفة تقول بالروايتين . والصواب الكسر دون سواه ، وهو الذي اعتمده الامام الذهبي في كتاب « المشتبه في الاسماء » ، وكذلك العلامة رتشاردصن في معجمه الفارسي العربي الانكليزي .

(٣) تعريب شاه بور . وسماه العرب ذا الاكتاف لانه انتصر عليهم فخلع اكتافهم .

(٤) اي قاضي القضاة في دولة الفرس قبل الاسلام . وبقيت وظيفة الموبذ اي القاضي الى اواخر الدولة العباسية ، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا في الذمة .

وصف له رجل من كورة اصطخر ، يصلح لقضاء القضاة في العلم والتأله والامانة. فوجّه اليه. فلما قدم، دخل عليه. ودعا بالطعام ودعاه اليه. فدنا فأكل معه. فأخذ سابور دجاجة فنصفها. ووضع نصفها بين يدي الرجل ونصفها بين يديه ثم أومأ اليه أن كل من هذه، ولا تخلط بها طعاما، فانه أمرأ لطعامك واخف على معدتك. واقبل سابور على النصف، فأكل كنحو ما كان يأكل. ففرغ الرجل من النصف قبل فراغ سابور. ثم مد يده الى طعام آخر، وسابور يلحظه.

فلما رفعت المائدة قال له: ودع وانصرف الى بلدك! فان آباءنا وسلفنا من الملوك كانوا يقولون: «من شره بين يدي الملك الى الطعام كأن الى اموال الرعية والسوقة والوضعاء أشد شرها.» فلم يستكفه[1]

---

(١) «لم يستكفه» بمعنى انه لم يطلب كفايته لمؤونة العمل وكثيرا ما يستعمل الجاحظ وغيره، استكفاه بمعنى ولاه ومن هذه المادة «الكفاة» وهم العمال اهل القدرة على العمل والنهوض به. ومنها ايضاً «كافي الكفاة» لوظيفة كبيرة كانت في الدولة الاسلامية. يؤيد ذلك انه قيل لعروة بن عدي بن حاتم (وهو صبي) في وليمة كانت لهم: قف بالباب، فاحجب من لا تعرف وادخل من تعرف. فقال: والله لا يكون اول شيء استكفيه منع الناس عن الطعام! (طراز المجالس للشهاب الخفاجي ص ٩٢). هذا. وربما يجوز ان تكون محرفة عن «يستكفئه» اى «يجده كفوا».

على ما كان احضره[1] له .

عدم النظر للملك عند موءاكلته

ومن حق الملك ان لا يرفع احد اليه طرفه، اذا اكل ، ولا يحرك يده معه في صحفة .

التسوية بين الملك وبين مدعويه

ومن قوانين المُلك ان توضع بين يدي كل رجل صحفة فيها كالذي بين يدي الملك من طعام غليظ او دقيق او حار او قار ، ولا يخص الملك نفسه بطعام دون اصحابه . لان في ذلك ضعة على الملك ودليلا على الاستئثار .

غسل اليد بحضرة الملك

ومن حق الملك ان لا يغسل احد بحضرته يديه من خاصته

(١) وردت هذه القصة بحروفها ما عدا بعد الفاظ في صحيفتي ٢٦و٢٧ من كتاب « تنبيه الملوك والمكايد » . وهي مختتمة بهذه العبارة : « فلم يستكفه لما كان احضره اليه وعول فيه عليه » . ووردت ايضاً مبتورة في « محاسن الملوك » (ص ٢٩و٣٠) .

وبطانته، الا ان يكون معه من يساويه في الجاه والعز والبيت والولادة. فقد بينا ما يجب لاولئك آنفا.

ايناس الملك لمدعويه

ومن العدل ان يعطى الملك كل احد قسطه، وكل طبقة حقها؛ وان تكون شريعة العدل في اخلاقه كشريعة ما يقتدى به من اداء الفرائض والنوافل التي تجب عليه رعايتها والمثابرة على التمسك بها، وايناس الناس في بسط ايديهم في الطعام حتى يُسَوَّى في ذلك بين الملوك والنمط الاوسط والعامة.

مباينة الملوك لمن سواهم

وليس اخلاق الملوك كأخلاق العامة. وكانوا لا يشبهون في في شيء. وانما تحسن كثرة الاكل مع الصديق والعشير والمساوي في منازل الدنيا من الرفعة والضعة. فاما الملوك فيرتفعون عن هذه الصفة ويجلون عن هذا المقدار.

قيام الملك عن الطعام

ومن حق الملك ـ اذا رفع يديه عن الطعام ـ ان ينهض عن مائدته كل من الحاف [1] بها حتى يتواروا عنه بجدار او حائل غيره . فان اراد الدخول ، كان ذلك بحيث لا يرون قيامه ، واذا اراد القعود لهم ، دخلوا اليه باذن ثان .

منشفة الذفر

ومن قوانين الملك ان يكون منديل غَمَره [2] كمنديل وجهه في النقاء والبياض ، وان لا يعاد اليه الا ان يغسل او يجدد .

حديث الملك على المائدة

ومن حق الملك ان لا يُحدَّث على طعامه بحديث جد ولا هزل .

(١) اراد « الحافين » فوضع المفرد في موضع الجمع ، باستعمال « ال » التي للجنس . ومثل ذلك كثير في عبارات البلغاء .

(٢) والغمر بالتحريك زنخ اللحم وما يعلق باليد من دسمه .

وان ابتدأ بحديث ، فليس من حقه ان يعارض بمثله . وليس فيه اكثر من الاستماع لحديثه ، والابصار خاشعة .

زمزمة الفرس على الطعام وامتناعهم عن مطلق الكلام

ولشيء ما كانت ملوك آل ساسان ـ اذا قدمت موائدهم ـ زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع ، فان اضطروا الى كلام ، كان مكانه اشارة وايماء يدل على الغرض الذي ارادوا والمعنى الذي قصدوا [1] ،

وكانوا يقولون : « ان هذه الاطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغي للانسان ان يجعل ذهنه في مطعمه ويشغل روحه وجوارحه فيه ، لان تأخذ كل جارحة بقسطها من الطعام ، فيتغذى بها البدن والروح

(١) الزمزمة : تراطن العلوج على اكلهم ، وهم صموت ، لا يستعملون لسانا ولا شفة في كلامهم ؛ لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض . وقد زمزم العلج ، اذا تكلف الكلام عند الاكل ، وهو مطبق فمه . وقال الجوهري : الزمزمة كلام المجوس عند اكلهم . زاد ابن الاثير [في النهاية] : بصوت خفي (عن تاج العروس) .

الحيوانية التي في القلب والطبيعة التي في الكبد، اغتذاء تاماً، وتقبله الطبيعة قبولا جامعاً »

وفي ترك الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيينهم [1] تركنا ذكرها، اذ كانت ليست من جنس كتابنا هذا.

---

(١) الآيين كلمة فارسية عربها العرب واستعملوها. ومعناها القانون والعادة. قال السيد صديق بن حسن خان في « لف القماط في تصحيح ما تستعمله العامة من المعرب والدخيل والمولد والاغلاط » ما نصه : «آيين بمعنى العادة. واصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة. اعجمي عربه المولدون. وفي الكشاف : ليس من آيين الملوك استراق الظفر. » وعلى هامشه للسيد نور الحسن مانصه : « اي في سورة النمل. قيل لذي القرنين : بيت على العدو! فقال : ليس من آيين الملوك استراق الظفر. وقال مهيار في قصيدة له :

يَجْمَعُ الْخِرِّيتُ حَوْلًا أَمْرَهُ وَهْوَ لَمْ يَأْخُذْ لَهَا آيِينَهُ

وهاتان العبارتان منقولتان بدون تنبيه عن «شفاء الغليل» للخفاجي. والخريت هو الدليل البصير بالطريق. وكلمة « آيين » لا تزال مستعملة الى الآن بهذا المعنى عند الفرس والأتراك.

ولابن المقفع تأليف بهذا الاسم ذكره صاحب الفهرست. وكلام الجاحظ هنا يدل على كتاب بعينه ضمنه الفرس مجموع القوانين والنواميس والعادات والاصطلاحات المقررة عندهم. والى « آيين الاكاسرة » اشار البيروني في « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (ص ٢١٨)

قال : وحدثني بعض المحدثين قال : قال بعض الامراء ـ وأظنه بلال بن ابي بردة [1] ـ لابي نوفل الجارود بن ابي سبرة :

ماذا تصنعون عند عبد الاعلى (بن عبد الله بن عامر بن كريز القرشي) اذا كنتم عنده ؟

قال : نشاهد احسن حديث واحسن استماع ، ثم يأتي الطباخ فيتمثل بين عينيه ، فيقول : ما عندك ؟ فيقول : عندي لون كذا ، ودجاجة كذا ومن الحلواء كذا .

قال ولم يسأل عن ذلك ؟

قال : ليقصر كل رجل عما لا يشتهيه ، حتى يأتيه بما يشتهي

قال : ثم يؤتى بالخوان ، فيتضايق ونتسع ويقَصِّر ونجتهد . فاذا استغنى خوى [2] تخوية الظليم [3] ثم اكل أكل الجائع المقرور . [4]

قال : والجارود هذا هو الذي قال : «سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخل العسل . »

---

(١) كان أميراً على البصرة وكان قاضيها . وهو اول من جار في القضاء .

(٢) الخو والخواء : الجوع والخوى والخواء خلو الجوف من الطعام . وخوى خوّى وخواء : تتابع عليه الجوع وخوّى الطائر تخوية بسط جناحيه وذلك اذا اراد أن يقع (عن تاج العروس) . ولعل هذا المعنى الأخير هو الذي اراده الجاحظ ، لانه في كتاب الحيوان يلحق النعام بالطير .

(٣) الذكر من النعام .

(٤) روى هذه الحكاية صاحب «العقد الفريد» بزيادة ونقص في الالفاظ والمعاني .

باب

في المنادمة

مراتب الندماء واحتياج الملوك لجميع الطبقات

ومن أخلاق الملك ان يجعل ندماءه طبقات ومراتب ، وأن يخص ويعم ، ويقرب ويباعد ، ويرفع ويضع ، اذ كانوا على اقسام ومراتب

فانا قد نرى الملك يحتاج الى الوضيع للهوه ، كما يحتاج الى الشجاع لبأسه ؛ ويحتاج الى المضحك لحكايته ، كما يحتاج الى الناسك لعظته ، ويحتاج الى اهل الهزل ، كما يحتاج الى اهل الجد والعقل ، ويحتاج الى لزامر المطرب ، كما يحتاج الى العالم المتقن [1] .

---

(١) قال في « محاسن الملوك » (ص ٤٣) : « ولما كان الملك محتاجا الى اصطناع الرجال كحاجته الى اصطفاء الاموال ، وجب ان يتخير لمسامرته من يكون طيب الاعراق ، باعثاً على مكارم الاخلاق ؛ ولكنه قد يحتاج الى المطرب الملهي كما يحتاج الى العالم المفتي . لانه يحتاج الى ان يتصرف بين الهزل والجد لما هو بصدده من التعب في النظر في امر الجمهور »

وهذه اخلاق الملوك ان يحضرهم كل طبقة ، اذ كانوا يتصرفون من حال جد الى حال هزل ، ومن ضحك الى تذكير ، ومن لهو الى عظة .

فكل طبقة من هذه الطبقات ترفع مرة وتحط اخرى ، وتعطى مرة وتحرم اخرى ، خلا الاشراف والعلماء . فان الذي يجب لهم رفعة المرتبة واعطاء القسط من الميزة والنصفة عند المعاشرة ، ما لزموا الطاعة ورعوا حقها .

آداب الخروج من حضرة الملك والرجوع اليها

وليس من حق الملك ان يبرح احد من مجلسه [1] الا لقضاء حاجة . فاذا اراد ذلك ، فمن الواجب ان يلاحظه فان سكت الملك ، قام بين يديه ثم لاحظه . فان نظر اليه ، مضى لحاجته . فاذا رجع ، قام ماثلاً بين يديه ابداً ، وان طال ذلك ، حتى يومئ اليه بالقعود . فاذا قعد ،

(١) ان بعض أكابر أهل الادب قد يعدون هذا الفعل بحرف «من» كما فعل الجاحظ هنا فقد ورد في التبريزي «لم يبرح من مكانه» و «ما برحت من مكان كذا» (شرح الحماسة للخطيب التبريزي طبع اوربه ص ١٦٤ و ٢٥٠) وفي الاغاني «ما أنا بارح من بابها» وفي «المحاسن والمساوي» قوله : لا أبرح من بغداد .

مقعيا او جاثيا . فان نظر اليه بعد قعوده ، فهو اذنه له بالتمكن في قعوده .

كمية الشرب وكيفيته موكولتان للملك، وعليه العدل

وليس له ان يختار كمية ما يشرب ولا كيفيتها ، انما هذا الى الملك . الا ان من حقه على الملك ان يأمر بالعدل عليه والنصفة له ، ولا يجاوز به حد طاقته ولا وسع استطاعته ، فيخرج به من ميزان القسط وحد القصد : لانه لا يأمن ان يتلف نفسا ، وهو يجد الى احيائها سبيلا .

ومن اخلاق الملك السعيد ان يحرص على احياء بطانته ، حرصه على احياء نفسه ، اذ كان بهم نظامه .

طبقات الندماء والمغنين عند الفرس وفي الاسلام

واذ قد انتهينا الى هذا القانون من القول ، فبنا حاجة الى الاخبار عن مراتب الطبقات الثلاث من الندماء والمغنين ، وان كانت مراتبهم

في كتاب الاغاني [1] محصورة ، فقد يجب ذكرها في هـذا الموضع ايضا ، لانها داخلة في اخلاق الملوك .

ولنبدأ بملوك الاعاجم ، اذ كانوا هم الاول في ذلك ، وعنهم اخذنا قوانين الملك والمملكة وترتيب الخاصة والعامـة ، وسياسة الرعية ، والزام كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها .

كان اردشير بن بابك اول من رتب الندماء واخذ بزمام سياستهم فجعلهم ثلاث طبقات

فكانت الاساورة [2] وابناء الملوك في الطبقة الاولى . وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة اذرع من الستارة .

ثم الطبقة الثانية ، كان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة اذرع (وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من اهل الشرف والعلم) ؛

---

(١) ليست الاشارة هنا الى كتاب الاغاني المشهور الذي لابي الفرج الاصفهاني فقد توفي الجاحظ سنه ٢٥٥ هـ ، وكانت وفاة ابي الفرج في سنة ٣٥٦ . ولابد ان الجاحظ يعني كتابا للفرس او سفرا آخر من اسفار الاغاني التي كانت متداولة في صدر الدولة العباسية كما تدل عليه عبارة الاصفهاني في مقدمته .

(٢) الاسوار : الواحد من أساورة الفرس . قال ابو عبيد : هم الفرسان ، والاساورة ايضا قوم من العجم بالبصرة كالاحامرة بالكوفة (الصحاح) قال الخوارزمي في « مفاتيح العلوم » ان العجم لا تضع اسم اسوار الا على الرجل الشجاع البطل المشهور .

ثم الطبقة الثالثة ، كان مجلسهم على عشرة اذرع من الثانية ، وهم المضحكون واهل الهزل والبطالة . غير انه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الاصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقصر ولا مؤوف ولا مرمي بأبنة [1] ولا مجهول الابوين ولا ابن صناعة دنيئة ، كابن حائك او حجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلا .

وكان اردشير يقول « ما شيء اضر على نفس ملك من معاشرة سخيف او مخاطبة وضيع . لانه كما ان النفس تصلح بمخاطبة الشريف الاديب الحسيب ، كذلك تفسد بمعاشرة الدنيء الخسيس ، حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها . وكما ان الريح ، اذا مرت بطيب ، حملت طيباً تحيا به النفس وتقوى به جوارحها ، كذلك اذا مرت بالنتن فحملته أَلِمَت له النفس واضر باعلاقها اضراراً تاماً [2] . »

اقسام الناس عند الفرس اربعة

وكذلك جعل الناس على اقسام اربعة ، وحصر كل طبقة

---

(١) الابنة : العيب . (قاموس)

(٢) هذه العبارة منقولة عن ابن المقفع في « الادب الصغير » وفي « كليلة ودمنه »

على قسمتها [1] .

فالاول الاساورة من ابناء الملوك ؛

والقسم الثاني النُّسّاك وسدنة [2] بيوت النيران ؛

والقسم الثالث الاطباء والكتاب والمنجمون ؛

والقسم الرابع الزراع والمهان [3] واضرابهم .

وكان اردشير يقول : « ما شيء اسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من انتقال هـذه الطبقة عن مراتبها حتى يرفع الوضيع الى مرتبة الشريف ، ويحط الشريف الى مرتبة الوضيع . »

مقابلة كل طبقة من الندماء بمثلها

وكان الذي يقابل الطبقة الاولى من الاساورة وابناء الملوك اهل الحذاقة بالموسيقيات والاغاني. فكانوا بازاء هؤلاء نصب خط الاستواء

(١) أردشير بن بابك هو أول من رتب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب في الآداب الملوكية من أحوال الدين والدنيا ، وعلم مراتب الخلق في الديوان والدول ، ونصب الموبذان . موبذ يعني كبير القضاة الشهير اليوم بقاضي العسكر (عن محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر) .

(٢) أي خدمة .

(٣) قد تكون هذه الكلمة جمع ماهن أي صاحب المهنة . وهو أيضاً الخادم والعبد . وجمعه يكون حينئذ «مهان» مثل كاهن وكهان وصانع وصناع .

وكان الذي يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من اصحاب الموسيقيات ،

احتفاظ الفرس بهذا الترتيب

وكان الذي يقابل الطبقة الثالثةمن اصحاب الفكاهات والمضحكين اصحاب الونج [1] والمعازف والطنابير [2] . وكان لا يزمر الحاذق من

(١) كلمة فارسية معربة . والعرب تقول الون بتشديد النون . وهي الصنج آلة من الآت الطرب . وقيل إنه الصنج ذو الأوتار (انظر تاج العروس ، ومفاتيح العلوم للخوازمي) . وروى في كتاب الملاهي بيتاً للاعشى ، وهو :

وَمُستَقٌ صيني وونٌ وَبَرْبَطٌ   يجاوبه صَنجٌ إذا ما تَرَنَّما

وقال صاحب شفاء الغليل : « إن الونج هو عود الطيب ؛ معرب » . فانظر من أين أتى بالطيب هنا . ولعله أراد عود الطرب . فصفحها الناسخ وفاتت الطابع .

(٢) أنظر اسماء آلات الموسيقى عند العرب في الجزء ١٣ من « المخصص » لابن سيده (ص ١١ — ١٥) ، فتعرف ان الطنبور والطنبار من الأسماء المعروفة عند العرب [نقلاً عن الفرس] . اما ما زعمه العلامة دوزي من انهم أخذوا هذا الاسم عن اللغة السلتية ، فهو زعم يقوم الدليل على خلافه :

أولاً — ورد هذا اللفظ في شعر ذي الرمة (المتوفي سنة ١٠١ أو ١١١ للهجرة) قال :

مِنَ ٱلطنابير يَزْهى صَوْتَه ثَمِلٌ

في لحنه عن لغات ٱلعُرْب تعجيمُ

الزامرين الا على الحاذق من المغنين . وان امره الملك بذلك ، راجعه واحتج عليه .

وقلما كانت ملوك الاعاجم خاصة تأمر ان يزمر على المغني الا من كان معه في اسلوب واحد ، اذ لم يكن من شأنهم ان ينقلوا احدا من طبقة وضيعة الى طبقة رفيعة . الا ان الملك كان ربما غلب عليه السكر حتى يؤثر فيه ، فيأمر الزامر من الطبقة الثانية او الثالثة ان يزمر على المغني من الطبقة الاولى ، فيأبى ذلك . حتى انه ربما ضربه الخدم بالمراوح والمَذَاب [1] فيكون من اعتذاره ان يقول : ان كان ضربي

ومعلوم ان العرب أبتدؤوا فتح الاندلس في سنة ٩٢ ه . ولا يكفي سبع سنوات أو ثمان لانتقال اللفظ من أقصى الغرب إلى بادية العرب وشيوعه فيها حتى رضي ذو الرمة باستعماله وارتضاه الناس منه .

ثانياً — إن الاسبانيين يقولون إلى الآن Atambor ، وهو لفظ مأخوذ عن الاسم العربي بأداة التعريف العربية . فلو كان اسم هذه الآلة شائعاً عندهم قبل دخول العرب بلادهم لما بقي في لغتهم بهذه الصورة العربية . وهذا رأي الاستاذ ليناردي الطلياني في معجمه (الكلمات الايطالية المشتقة من العربية) وهو رأي رجيح ، أيدناه بشعر صحيح ، لبدوي قح فصيح . (انظر ترجمته في الاغاني .)

(١) جمع مذبة . وهي آلة لطرد الذباب اما المراوح فمعروفة ، وانظر تفصيلا شافيا عن انواعها في ايام الدولة العباسية وما بعدها في كتاب « مطالع البدور في منازل السرور » . (ج ١ ص ٦٤ — ٦٦)

بأمر الملك وعن رأيه ، فانه سيرضى عني اذ صحا ، بلزومي مرتبتي .

معاقبة اردشير لنفسه لمخالفته هذا القانون

وكان اردشير قد وكل غلامين ذكيين – لا يفارقان مجلسه – بحفظ الفاظه عند الشرب والمنادمة . فاحدهما يُمِلُّ والآخر يكتب حرفاً حرفاً . وهذا انما يفعلانه اذا غلب عليه السكر . فاذا اصبح ورفع عن وجهه الحجاب ؛ قرأ عليه الكاتب كل ما لفظ به في مجلسه الى ان نام . فاذا قرأ عليه ما امر به الزامر ومخالفة الزامر امره ، دعا بالزامر فخلع عليه وجزاه الخير ، وقال : « اصبت فيما فعلت واخطأ الملك فيما امرك به . فهذا ثواب صوابك . وكذلك العقوبة لمن اخطأ . وعقوبتي ان لا نزمزم اليوم الا على خبز الشعير والجبن . » فلم يطعم في يومه ذلك غيرهما .

وما ذاك الا حثاً على لزوم سنتهم وحفظ نواميسهم واخذ العامة بالسياسة التامة والامر اللازم .

اختلال هذا النظام ايام بهرام جور واعادة انوشروان له

فلم يزل على ذلك ملوك الاعاجم حتى ملك بهرام جور [1] بن يزدجرد ،

(١) انظر السبب في اضافة الجور الى اسمه في كتاب « غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم » الثعالبي (صفحة ٥٤٤)

فاقر مرتبة الاشراف وابناء الملوك وسدنة بيوت النيران على ما كانت
وسوى بين الطبقتين من الندماء والمغنين ورفع من اطربه — وان كان
في اوضع الدرجات — الى الدرجة الاولى وحط من قصر عن ارادته
الى الطبقة الثانية . فافسد سيرة اردشير في المغنين واصحاب الملاهي
خاصة . فلم يزل الامر على ذلك حتى ملك كسرى انوشروان ، فرد
الطبقات الى مراتبها الاولى .

احتجاب ملوك الفرس عن الندماء ومقدار المسافة بين الطبقات

وكانت ملوك الاعاجم كلها من لدن اردشير بن بابك الى يزدجرد
تحتجب عن الندماء بستارة . فكان يكون بينه وبين اول الطبقات
عشرون ذراعا . لان الستارة من الملك على عشرة أذرع ، والستارة من
الطبقة الاولى على عشرة اذرع .

وكان الموكل بحفظ الستارة رجلا من ابناء الاساورة يقال له
« خرم باش » فاذ مات هذا الرجل وكل بها آخر من ابناء الاساورة
وسمي بهذا الاسم . فكان « خرم باش » اذا جلس الملك لندمائه وشغله ،
امر رجلا ان يرتفع على اعلى مكان في قرار دار الملك ويترد بصوت
رفيع يسمعه كل من حضر فيقول : « يالسان ! احفظ رأسك ، فانك
تجالس في هذا اليوم ملك الملوك ! » ثم ينزل .

فكان هـذا (فعلهم) في كل يوم يجلس فيه الملك للهوه ، ولا يجترىء احد من خلق الله ان يدير لسانه في فيه بخير ولا غيره ، حتى تحرك الستارة، فيطلع القائم عليها فيؤمر بامر فينفذه ؛ ويقول : افعل يافلان كذا ، وتغني انت يا فلان كذا و كذا .

وكان الندماء من العظماء والاشراف وابناء الملوك واخوة الملك وعمومته وبني عمه واوضع الطبقات في مجلس الملك في نقاب واحد[1] : اطراقا واخباتا[2] وسكون طائر وقلة حركة .

فلم يزل امر الملوك من الاعاجم كذلك حتى ملك الأَرْدَوَان الاحمر[3] ، فكان يقول : «من كانت له منكم حاجة ، فليكتبها في

(١) قال في اساس البلاغة : كانا في نقاب واحد : اي كانا مثلين ونظيرين .

(٢) اي خشوعا وخضوعا وتواضعا .

(٣) يستفاد مما ذكره المسعودي في «مروج الذهب» وفي «التنبيه والاشراف» أن الأردوان هو علم على جماعة من ملوك النبط ، وكانوا من ملوك الطوائف بعد الاسكندر . وهؤلاء ليس لهم شأن فيما نحن بسبيله الآن .
ويستفاد منه ايضاً ان فارس قام عليها ملكان أحدهما الأردوان الأكبر والثاني الاصغر . وأن هـذا الثاني كان اعظم شأناً وأكبر ملكاً . وهو الاردوان بن بهرام بن بلاش آخر ملوك الأشكانية . قتله أردشير بن بابك وقام بأعباء الملك بعده . يؤيد ذلك ابن الأثير والثعالبي . والراجح أن هذ الأردوان هو المراد هنا وان كلمة «الأحمر» تحريف من الناسخ للفظة «الاصغر» .

رقعة وليرفعها قبل شغلي فافهم ما فيها ويخرج اليه امري ، وعقلي صحيح وفكري جامع . » فمن سأل في غير هذا الوقت حاجة ، ضربت عنقه . وهو اول من فتح هذا . وكان لا يرد سائلاً ، ولا يعطي مبتدئاً

فلم يزل الامر على ذلك حتى ملك بهرام جور ، فكان يقول للندماء : « اذا رأيتموني قد طربت وخرجت من باب الجد الى باب الهزل ، فسلوا حوائجكم » وكان يوكل بحوائجهم صاحب الستارة فكان اذا سكر ، مد الناس ايديهم برقاعهم ، فاخذها صاحب الستارة، فأنفذها اليه . فاخذها بيده وضمها عليها ، ثم رمى بها من غير ان ينظر في شيء منها ، ويقول « انفذوا كل ما فيها » فكان ذلك ربما بلغ في ليلة واحدة من سؤال في اقطاع او قضاء دين او طلب منحة ألف ألف او كثر . الا ان ذالك لم يكن تباعا .

وكان اذا رفع احدهم في رقعته ما ليس يجوز لمثله ـ وهو خارج من حد القصد وأُدْخَلُ في باب الافراط ـ لم تقض له حاجة ، وسمي جاهلا ، ولم يؤخذ له رقعة بعدها ابدا .

التسوية بين الطبقات في ايام يزيد بن عبد الملك

ثم لم يكن ذلك بعد في اخلاق الملوك من الاعاجم والعرب حتى ملك يزيد بن عبد الملك . فسوى بين الطبقة العليا والسفلى ، وافسد اقسام المراتب ، وغلب عليه اللهو ، واستخف بآيين [1] المملكة ، واذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه والرد عليه .

اول خليفة شتم في وجهه هزلا

وهو اول من شتم في وجهه من الخلفاء على جهة الهزل والسخف .

احوال الامويين في الشرب واللهو

قلت لاسحاق بن ابراهيم [1] : هل كانت الخلفاء من بني امية

(١) اي قوانين المملكة .

(١) ان الشك في راوي هذا الحديث قديم . يرجع أول عهده الى الطبري المتوفي سنة ٣١٠ . فقد روى إمام المؤرخين واقعة إبراهيم (والد إسحاق الموصلي) مع الهادي . والخبر بنصه تقريباً وارد في عبارة الجاحظ . لكن الطبري رواه بصيغة الغائب وصدره بقوله « وذكر عن إسحاق بن ابراهيم الموصلي او عن غيره » وكذلك روى صاحب «الاغاني» خبر بن المهدي مع الامين بروايتين مختلفتين جداً ، احدهما عن إسحاق الموصلي متكلماً عن نفسه والثانية عن محمد بن الحارث بن

تظهر للندماء والمغنين ؟

قال : «اما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام»
«ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة. وكان لا يظهر»
«احد من الندماء على ما يفعله الخليفه، اذا طرب للمغني والتذه حتى»
«ينقلب ويمشي ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لا يراه الا»
«خواص جواريه . الا انه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوت»

بشخير (راجع الاغاني) . والخبر نفسه وارد ايضاً عن اسحاق الموصلي بلهجة المحدث عن نفسه في «العقد الفريد» لابن عبد ربه وفي «معجم الادباء» لياقوت .

وعندي أنه لا يمكن التوفيق بين جميع هذه الروايات ، إلا إذا فرضنا ان هذا الحديث قد رواه الجاحظ عن إسحاق بن ابراهيم الموصلي ، ثم حشاه باستطرادات من عنده وروايات أخرى ضمها إليه بما يتسق معه ويناسب المقام او يرتبط بالموضوع فكان الجاحظ إذا انتهى من الحشو والاستطراد على ما اعتادته طبيعته وألفته نفسه كما هو المعهود في كل كتبه وتصانيفه ، عاد إلى الحديث الاصلي مستعملا لفظه «قال» تنبيهاً للقارىء إلى رجع ما انقطع ووصل ما انفصل واستئنافا لما حدثه به اسحاق بن ابراهيم (الموصلي) . فحينما كان المقام يدعو الجاحظ للكلام عن نفس إسحاق (صاحب الحديث) ، وضع لفظة «ويقال» . فيذكر من عنده خبرا عن نفس إسحاق بصيغة الغائب المحدث عنه . أما إذا عرض للجاحظ ان يحشر في تضاعيف الحديث الاصلي شيئاً من عنده لأجل زيادة التعريف بأحد الخلفاء أو أحد الاشخاص المذكورين في الحديث ، فكان يستعمل لفظة «وهو» أو «كان» فإن أتى المؤلف برواية أخرى عبر بقوله «وزعم فلان» أو «ولقد حدثني فلان» .

« او نعير طرب او رقص او حركة بزفيز تجاوز المقدار ، قال صاحب »
« الستارة حسبك يا جارية كفى! انتهى ! اقصري ! ـ يوهم الندماء »
« ان الفاعل لذلك بعض الجواري . »

« فاما الباقون من خلفاء بني امية فلم يكونوا يتحاشون ان »
« يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنين . وعلى »
« ذلك ، لم يكن احد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد »
« بن يزيد في المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرد : ما يباليان »
« ما صنعا . »

(عمر بن عبد العزيز)

قلت : فعمر بن عبد العزيز ؟

قال : « ما طن في سمعه حرف غناء ، منذ افضت الخلافة اليه الى ان فارق الدنيا . « فاما قبلها ــ وهو امير المدينة ــ « فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه الا الامر الجميل . وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمرغ على فراشه وضرب برجليه وطرب . فاما ان يخرج عن مقدار السرور الى السَّخف ، فلا . »

احوال العباسيين في الشرب واللهو (السفاح)

قلت : فخلفاؤنا [1] ؟

قال : « كان ابو العباس في اول ايامه يظهر للندماء ثم احتجب »
« عنهم بعدسنة [2] اشار بذلك عليه أَسَيْد [3] بن عبد الله (الخزاعي) . »
« وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة : « احسنت والله »
« اعد هذا الصوت ! » فيعاد له مراراً . فيقول في كلها : « احسنت ! »
« وكانت فيه فضيلة لا تجدها في احد . كان لا يحضره نديم ولا مغن »
« ولا مُلهٍ فينصرف الا بصلة او كسوة ، قلت ام كثرت [4] . وكان »
« لا يؤخر احسان محسن لغد ، ويقول : « العجب ممن يفرح انسانا ، »
« فيتعجل السرور ويجعل ثواب من سره تسويفا وعدة ! » فكان في »

---

(١) في بعض النسخ : فخلفاء بني العباس ؟

(٢) انظر شذرات الذهب .

(٣) كان من القائمين بالدعوة العباسية ومن رجالات ابي مسلم الخرساني، وكان على مقدمته عند دخوله مرو . توفي سنة ١٥٦ ﻫ وهو امير خراسان . (انظر الفهارس في الطبري وفي ابن الاثير)

(٤) اورد صاحب « محاسن الملوك » ما يضارع ذلك (ص ٣٠)

« كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله ، لاينصرف احـد ممن حضره الا »
« مسرورا . ولم يكن هذا لعربي ولا عجمي قبله . غير انه يحكى عن »
« بهرام جور ما يقارب هذا [1] . »

المنصور

« فاما ابو جعفر المنصور ، فلم يكن يظهر لنديم قط ، ولا رآه »
« احد يشرب غير الماء . وكان بينه وبـين الستارة عشرون ذراعا ، »
« وبين الستارة والندماء مثلها . فاذا غناه المغني فاطربه ، حركت »
« الستارة بعض الجواري فاطلع اليه الخادم صاحب الستارة فيقول : »
« قل له : « احسنت ! بارك الله فيك ! » وربما اراد ان يصفق بيديه ، »
« فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه ، فيكون ذاك هناك . »
« وكان لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهما ، فيكون له رسماً »
« في ديوان . ولم يقطع احداً ممن كان يضاف الى ملهية او ضحك او »
« هزل موضع قدم من الارض . وكان يحفظ كل ما اعطى واحداً »
« منهم عشر سنين ويحسبه ويذكره له . »

وكان ابو جعفر المنصور يقول : « من صنع مثل ما صنع اليه ،

(٥) قارن ذلك بما نقله صاحب « مروج الذهب »

فقد كافأ ، ومن اضعف ، كان مشكوراً ؛ ومن شكر كان كريماً ، ومن علم ان ما صنع فالى نفسه صنع ، لم يستبطىء الناس في شكرهم ولم يستزدهم في مودتهم . ولا تلتمس من غيرك شكر ما اتيته الى نفسك ووقيت به عرضك . واعلم ان الطالب اليك الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك ، فأكرم وجهك عن رده . »

المهـدي

« وكان المهدي في اول امره يحتجب عن الندماء ، متشبها »
« بالمنصور نحواً من سنة . ثم ظهر لهم . فاشار عليه ابو عون [1] بأن »
« يحتجب عنهم ، فقال : « اليك عني ، يا جاهل ! انما اللذة في مشاهدة »

---

(١) هو عبد الملك بن يزيد الخرساني الازدي . كان من اهـل الرأي ومن وجوه الشيعة القائمين بالدعوة العباسية ، ومن قواد ابي مسلم الخراساني . وكان له بلاء حسن في تمهيد الامر لبني العباس . دخل بجنوده دمشق عنوة من باب كيسان ثم تعقب مروان بن محمد الجعدي الى مصر عند هربه اليها ، وفيها قتله ، وبقي فيها ومعه السلاح والاموال والرقيق . فولاه عليها ابو العباس السفاح مرتين : الاولى من شعبان سنة ١٣٣ الى سنة ١٣٥ . وهو الذي امر اصحابه بالبناء في الارض الفضاء التي محلها الآن جامع ابن طولون . وبنى هو هنالك دار الامارة ومسجداً عرف بجامع العسكر . ولذلك سمي المكان كله بأسم العسكر من ذلك الوقت ، وصار فيما بعد مدينة عامرة . ثم ارسله ابو العباس السفاح عـلى رأس الجيش المتوجه الى

السرور وفي الدنو ممن سرني . فأما من وراء وراء ، فما خيرها ولذتها ؟
ولو لم يكن في الظهور للندماء والاخوان الا اني اعطيهم من السرور
بمشاهدتي مثل الذي يعطوني من فوائدهم ، لجعلت لهم في ذلك حظاً
موفراً . » وكان كثير العطايا ، يواترها . قل من حضره الا اغناه .
و كان لين العريكة ، سهل الشريعة ، لذيذ المنادمة ، قصير المناومة ،
ما يمل نديما ولا يتركه الا عن ضرورة ، قطيع الخنا ، صبورا على
الجلوس ، ضاحك السن ، قليل الاذى والبذاء .

الهادي

« و كان الهادي شكس الاخلاق ، صعب المرام ، قليل الاغضاء ،
سيء الظن . قل من توقاه وعرف اخلاقه ، الا اغناه . وما كان شيء

المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٣٦ . ولكن الخليفة مات ، فجاء امر الخليفة
الجديد ابي جعفر المنصور بالعدول عن هذه الغزوة . فأقام ابو عون ببرقة شهراً .
ثم عاد الى مصر بجيشه فذهب الى فلسطين لحرب الخوارج . فهزمهم وقتل منهم جمعاً
غفيراً ، وارسل الى مصر ثلاثة آلاف رأس . ثم تولى خراج مصر وصلاتها بطريق
النيابة حتى جاءه التقليد في ٢٠ رمضان سنة ١٣٧ . واقام في هذه الولاية الثانية
ثلاث سنين وستة اشهر . وعاد الى مصاحبة المنصور وحضر معه واقعة الراوندية .
فلما افضت الخلافة الى المهدي ، استعمله على خراسان سنة ١٥٩ ثم عزله عنها سنة
١٦١ (انظر الاغاني وابن الاثير وابي المحاسن تغري بردي ، في فهارسها) .

ابغض اليه من ابتدائه بسؤال . وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل، فيقول : « لايعطيني بعدها شيأ » فيعطيه بعد ايام مثل تلك العطية . »

ويقال انه قال يوما ، وعنده ابن جامع وابراهيم الموصلي ومعاذ ابن الطبيب ـ وكان اول يوم دخل عليه معاذ وكان حاذقا بالاغاني عارفا بها ـ : من اطربني اليوم منكم فله حكمه . فغناه ابن جامع غناء لم يحركه ، وكان ابراهيم قد فهم غرضه فغناه :

سُلَيمَى أَجمَعَتْ بينَا فَأَيْنَ تَقُولُها[1] أَينَا ؟

فطرب حتى قام عن مجلسه ورفع صوته ، وقال : « اعد بالله وبحياتي ! » فأعاد فقال : ! « انت صاحبي فاحتكم » فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين حائط[2] عبد الملك بن مروان وعينه الخرارة[3] بالمدينة ! قال : فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جرتان ثم قال : « يا ابن اللخناء ! اردت ان تسمع العامة انك اطربتني ، واني

---

١ ـ « تقولها » هنا مثل « تظنها » معنى وعملا . وقد تحرفت هذه الكلمة في كثير من كتب الادب المطبوعه . وهذه القصة التي ذكرها الجاحظ او ردها الطبري ايضا باختلاف قليل ، وهي غير واردة في الاغاني ، وانما هنالك حكاية اخرى وفيها الابيات بأكملها.

٢ ـ اي بستان

٣ ـ الينبوع الذي يخرج منه جدول يندفق ماؤه

حكمتك فاقطعتك ! (اما والله[1]) لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربت الذي فيه عيناك ! » ثم سكت هنيهة قال ابراهيم : فرأيت ملك الموت قائما بيني وبينه ينتظر امره . ثم دعا ابراهيم الحراني[2] ، فقال : (خذ بيد هذا الجاهل ، فادخله بيت المال ، فليأخذ منه ما شاء !) فاخذ الحراني بيدي حتى دخل بي بيت المال ، فقال : كم تأخذ ؟ فقلت : مائة بدرة[3] . فقال : دعني اؤامره . قلت : فآخذ تسعين . قال : حتى اؤامره . قلت : فثمانين . قال : لا . فابى الا ان يؤامره ، فعرفت غرضه ، فقلت له : آخذ سبعين لي، ولك ثلاثون . قال شأنك ! : فانصرفت بسبعمائة الف ، وانصرف ملك الموت عن الدار[4] .

---

١ – الزيادة عن الطبري

٢ – هو عديل هارون الرشيد . وكان من ندماء الهادي وهو ولي العهد . ويظهر من كلام ابن الاثير انه كان قيما على خزائن الاموال في ايام الهادي. (الاغاني)

٣ - البدرة في الاصل جلد السخلة (اي ولد الضائنة او الماعزة) . كانوا يضعون فيها الاموال ، ثم اطلقوا اسمها على المال نفسه مجازا . والمستفاد من كتب اللغة ان البدرة كيس فيه الف درهم او عشرة آلاف درهم او سبعة آلاف دينار ورواية الجاحظ هنا تدل على ان مقدارها في ايام العباسيين كان عشرة آلاف درهم

٤ – اورد صاحب « محاسن الملوك » هذه القصة بأختصار الفاظ الجاحظ (ص ٣٠ و ٣١)

الرشيد

قال : « وكان الرشيد في اخلاق ابي جعفر المنصور ، يمتثلها كلها الا في العطايا والصلات والخلع. فانه كان يقفو فعل ابي العباس والمهدي ومن خبرك انه رآه قط وهو يشرب الا الماء، فكذبه [1] . وكان لا يحضر شربه الا خاص جواريه. وربما طرب للغناء فتحرك حركة بين الحركتين في القلة والكثرة . »

وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات، على نحو ما وضعهم اردشير بن بابك وانو شروان. فكان ابراهيم (الموصلي [2]) و (اسماعيل ابو القاسم) ابن جامع وزلزل (منصور الضارب)

---

١ - هذا النص الصريح يؤيد رأي ابن خلدون في مقدمته (ص ١٤) . وذلك ان « الا » هنا معناها « غير » كما وردت في غير ما آية قرآنية وبيت شعري . فيكون المعنى الذي اراده محدث الجاحظ : لو خبرك انسان بأنه رأى هارون وهو يشرب شراباً غير الماء ، فاعلم انه كاذب . لان الرشيد ، كان اذا اراد الشرب فانما يشرب بحضرة خاص جواريه دون سائر الناس ، بحيث لم يره احد يشرب شيئاً سوى الماء ، حتى يجوز له الاخبار بذلك عنه يؤيد ذلك ما وقع له مع ابن بختيشوع بشأن السمكة التي منعه الطبيب من اكلها . (مروج الذهب ج ٦ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ؛ وعيون الانباء ج ١ ص ١٢٩)

٢ - الاسماء والكنى والالقاب الموضوعة بين (   ) في هذه الصفحة والتي تليها مأخوذة عن الاغاني لابي الفرج .

في الطبقة الاولى . وكان زلزل [1] يضرب ، ويغني هذان [2] عليه . والطبقة الثانيــة سليم بن سلام (ابو عبيد الله الكوفي) وعمرو

---

١ – كان زلزل هذا ممن يضرب به المثل في حسن الضرب بالعود وكان من الاجواد . وقد اشتهر في ايام المهدي والهادي والرشيد . ومن آثاره العمرانية بركة انشأها في بغداد ووقفها على المسلمين ، فاشتهرت باسمه : واشتهرت المحلة الكائنة فيها باسمها . قال فيها نفطويه النحوي :

لو أنَّ زُهيراً وأمْرَأَ ٱلقيس أبصرا
مَلَاحَـةَ ما تحويه بركة زَلزَلِ ،
لَمَا وَصَفَا سَلْمَى وَلا أمَّ جُنْـدُبِ
ولا أكْثَرا ذكْرَ ٱلدَّخول فَحَوْمَلِ .

٢ – اي صاحباه الآخران وهما ابراهيم الموصلي وابن جامع . والذي جاء « في الاغاني » ان ابراهيم الموصلي وزلزلا وبرصوما اجتمعوا بين يدي الرشيد فضرب زلزل وزمر برصوما وغنى ابراهيم :

صحا قلبي وراغ إليَّ عقلي وأقصرَ باطلي ونسيتُ جهلي
رأيتُ ٱلغانيات، وكُنَّ خُزْراً إليَّ ، صرمْنَني وقطعْنَ حَبلي .

فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح : يا آدم ! لو رأيت من يحضرني من ولدك اليوم ، لسرك ! ثم جلس وقال : استغفر الله !

وفي العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٤٧) ان زلزلا كان يضرب على ابراهيم، يعني الموصلي

الغزال ومن اشبهها . والطبقة الثالثة اصحاب المعازف والونج والطنابير وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم . وكان اذا وصل واحداً من الطبقة الاولى بالمال الكثير الخطير ، جعل لصاحبيه اللذين معه في الطبقــة نصيباً منه ، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه ايضاً نصيبا . واذا وصل احدا من الطبقتين الاخريين بصلة ، لم يقبل واحد من الطبقة العالية منه درهما ، ولا يجترىء ان يعرض ذلك عليه.

قال[1] : (فسأل الرشيد يوماً برصوما الزامر ، فقال له يا اسحاق ! ما تقول في ابن جامع ؟ فحرك رأسه (و) قال : خمر قطربل ، يعقل الرّجل ويذهب العقل . قال : فما تقول في ابراهيم الموصلي ؟ قــال بستان فيه خوخ و كمثري وتفاح وشوك وخرنوب. قال : فما تقول في سليم بن سلام ؟ فقال : ما احسن خضابه ! قال : فما تقول في عمرو الغزال ؟ قال : ما احسن بنانه ! »

قال : و كان منصور زلزل من احسن وأحذق من برأ الله بالجس فكان اذا جس العود فلو سمعه الاحنف[2] ومن تحالم في دهره كله ، لم يملك نفسه حتى يطرب .

١ اي اسحاق بن ابراهيم الموصلي راوي الحكاية للجاحظ .

٢ - هو ابو بحر الضحاك بن قيس . ينتهي نسبه الى زيد مناة . وهو الذي يضرب به المثل في الحلم . وكان آية في الجد والوقار . (انظر ترجمته في ابن خلكان والاغاني وغيرهما)

قال ابراهيم [1] : فغنيت يوماً على ضربه . فخطأني .

فقلت لصاحب الستارة : هو والله اخطأ .

قال : فرفع الستارة ، ثم قال : يقول لك امير المؤمنين انت والله اخطأت !

فحمي َزلزل وقال : يا ابراهيم ، تخطئني ؟ فوالله ما احد من المغنين فاه بغير لفظ الا عرفت غرضه ؟ فكيف اخطىء وهذه حالي ؟

فاداها صاحب الستارة ، فقال الرشيد : قل له : صدقت ! انت كما وصفت نفسك ، وكذب ابراهيم واخطأ .

قال ابراهيم : فغمني ذلك ، فقلت لصاحب الستارة : ابلغ امير المؤمنين ، سيدي ومولاي ، ان بفارس رجلاً يقال له سنيد لم يخلق الله اضرب منه بعود ولا احسن مجساً ؛ وان بعث اليه امير المؤمنين فحمله عرف فضله وتغنيت على ضربه . فان زلزلا يكايدني مكايدة القصاص والقرادين .

قال : فوجه الرشيد الى الفارسي فحمل على البريد ، فاقلق ذلك زلزلا وغمه .

فلما قدم بالفارسي ، احضرنا واخذنا مجالسنا وجاؤوا بالعيدان قد

---

١ - اي ابراهيم الموصلي حكاية عن نفسه . وهـــذه القصة من استطرادات الجاحظ ايضاً .

سويت . وكذلك كان يفعل في مجلس الخلافة ، ليس يدفع الى احد عوده فيحتاج الى ان يحركه لانها قد سويت وعلقت مثالثها مشاكلة للزيرة [1] على الدقة والغلظ .

قال : فلما وضع عود الفارسي في يديه ، نظر اليه منصور زلزل ، فأسفر وجهه واشرق لونه .

فضرب وتغنى عليه ابراهيم .

ثم قال صاحب الستارة لزلزل : يا منصور : اضرب !

قال : فلما جس العود ، ما تمالك الفارسي ان وثب من مجلسه بغير اذن حتى قبل رأس زلزل واطرافه ، وقال : مثلك — جعلت فداك — لا يُمتهن ويستعمل ؛ مثلك يُعبَدُ فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسي ؛ فامر له بصلة ورده الى بلده .

---

١ - جمع زير ، مثل ديك وديكة . والزير هو الوتر الدقيق من الاوتار واحكمها فتلاً (في عود الطرب) . فكان المؤلف قال : وعلقت مثالثه مشاكلة لمثانيه . قال المفضل بن سلمة النحوي في كتاب الملاهي ما نصه :

« ويقال لاوتاره (اي العود) المحابض واحدها محبض وهي الشرع واحدتها شرعة . فمنها الزير ، والذي يليه المثنى ومنهم من يسميه الثاني ، والمثلث ومنهم من يسميه الثالث ، والبم . ويقال للتي يسميها الفرس دساتين ، العتب . وكل ذلك قد جاء في الشعر . »

وكان منصور زلزل من اسخى النـاس واكرمهم . نزل بين ظهراني قوم ، وقد كان يحل لهم اخذ الزكاة . فما مـات حتى وجبت عليهم الزكاة .

وكان اسحاق برصوما في الطبقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لزمره ، فقال له صاحب الستارة : يا اسحاق أزْمُرْ على غناء ابن جامع . قال : لا افعل قـال : يقول لك امير المؤمنين ، ولا تفعل ؟ قال : ان كنت أزمُرُ على الطبقة العالية ، رفعت اليها فاما ان اكون في الطبقة الثانية وازمر على الاولى ، فلا افعل فقال الرشيد لصاحب الستارة : ارفعه الى الطبقة الاولى ؛ فاذا قمت ، فادفع البساط الذي في مجلسهم اليه . فرفع اسحاق الى الطبقة العالية واخذ البساط ، وكان يساوي الفي دينار . فلما حمله الى منزله استبشرت به امه واخواته . وكانت امه نَبَطِيَّةً لكناء [1] . فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه وجاء نساء جيرانه يهنئن امه بما خص به دون اصحابه ويدعون لها . فأخذت سكيناً وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط حتى اتت على اكثره . فجاء برصوما فاذا البساط قد تُقُسِّمَ بالسكاكين فقال : ويلك ما صنعت ؟ قالت : لم ادر ، ظننت انه كذا يقسم .

١ – التي لا تقيم العربية لعجمة لسانها . (قاموس)

فحدث الرشيد بذلك، فضحك ووهب له آخر. »

وزعم سعيد بن وهب [1] ان ابراهيم الموصلي غنى امير المؤمنين هارون صوتاً، فكاد يطير طرباً، فاستعاده عامة ليله، وقال: ما رايت صوتاً يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والسخف غير هذا الصوت » فاقبل ابراهيم، فقال: « يا امير المؤمنين! لو وهب لك انسان مائة الف درهم، او لو وجدت مائة الف درهم مطروحة، كنت اسر بها او بهذا الصوت؟ » قال « والله لانا أسَرُّ بهذا الصوت مني بالف الف، والف والف » قال « فلو فقدت من بيت مالك مائة الف كان اشد عليك، او لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟» قال: « بل الف الف، والف الف اهون علي. » قال: « فلم لا تهب مائة الف او مائتي الف لمن اتاك بشيء فقد الفي الف اهون عليك منه؟ » فامر (له) بمائتي الف درهم.

الامين

قلت لاسحاق: فالمخلوع [2]، اين كان ممن ذكرت؟

---

١ - هو ابو عثمان سعيد بن وهب البصري. كان كاتبا شاعرا مطبوعا. مات في ايام المامون. (انظر اخباره في الاغاني)

٢ - يعني الامين الخليفة العباسي ودعي بهذا الاسم لقرب العهد بخلعه.

قال : « ما كان اعجب امره كله ! فأما تبذله ، فما كان يبالي اين قعد ومع من قعد . وكان ، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرّقها كلها والقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا . وكان من اعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم [1] للاموال اذا طرب اولها . وقد رأيته وقد امر لبعض [2] اهل بيته في ليلة بوقر زورق ذهباً ، فانصرف به وامر لي [3] ذات ليلة باربعين الف دينار ، فحملت امامي . ولقد غناه ابراهيم بن المهدي غناء لم ارتضه . فقام عن مجلسه فأكب عليه فقبل راسه . فقام ابراهيم فقبل ما وطئت رجلاه من بساطه . فامر له بمائتي الف دينار . ولقد رايته يوماً ، وعلى راسه بعض غلمانه ، فنظر اليه فقال : ويلك ! ثيابك هذه تحتاج الى ان تغسل . انطلق فخذ ثلاثين بدرة ، فأغسل ثيابك . »

ولقد حدثني عَلُّوَيه (الاعسر وهو ابو الحسن علي بن عبد الله بن سيف [4]) عنه قال : لما احيط به وبلغت حجارة المنجنيق بساطه ،

---

١ – انهب الرجال ماله : جعله نهباً يغار عليه (بضم الياء – قاموس)

٢ الاشارة الى ابراهيم بن المهدي عم الخليفة (انظر الاغاني)

٣ – الضمير يعود الى راوي الحكاية وهو اسحاق بن ابراهيم الموصلي .

٤ – الزيادة التي بين قوسين عن كتاب الاغاني لابي الفرج .

كنا عنده فغنَّته جـارية له بغناء تركت فيه شيئاً لم تُجِدْ حكايته. فصاح : يا زانية ! تغنيني الخطأ ! خذوها ! فحملت. وكان آخر العهد بها .

(المأمون)

قلت : فالمأمون ؟

قال : « اقام بعد قدومه عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء . ثم سمعه من وراء حجاب ، متشبها بالرشيد . فكان كذلك سبع حجج ثم ظهر للندماء والمغنين . »

قال : « وكان حين احب السماع ظاهراً بعينه ، اكبر ذاك اهل بيته وبنو ابيه . »

ويقال انه سأل عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي [1] فغمزه بعض من حضر، وقالوا : ما يغادر تيها وبأوا [2] . فامسك عن ذكره . قال :

---

١ – كان المامون يعقد مجلسالتفريقالارزاق، فكاناسحاقهذا اول من يدخل عليه في طائفة الوزراء ، ثم القواد ، ثم القضاة ، ثم الفقهاء والمعدلين ، ثم الشعراء ثم المغنين ، ثم الرماة في الهدف . (عن ذيل امالي القالي ص ٩٠)

٢ – البأو هو الفخر والكبر والتيه . قال حاتم الطائي :

فما زادنا بأواً على ذي قرابة غِنانا، ولا ازرى باحسابنا الفَقْرُ

وانظر هذه القصة ايضاً في العقد الفريد

فجاءه زُرْزُر يوما فقال له : يا اسحاق ، نحن اليوم عند امير المؤمنين !
فقال اسحاق : فغَنِّهِ بهذا الشعر :

يا سرحة[1] الماء قد سدت موارده، اما اليك طريق غير مسدود ؟

---

١ - وردت هذه الكلمة هكذا : « سرحة » في بعض الاصول وفي « الاغاني » والطبري و « معجم الادباء » واكثر كتب الادب ومنها محاسن الملوك . واما صاحب العقد الفريد فقد روى صدر البيت هكذا : « يا مشرع الماء» والرواية الاولى هي الاصدق والاصوب ، وان كانت الثانية فيها شبهة من جهة المعنى . والسرحة شجرة عظيمة بلا شوك تنبت في بلاد العرب وفي نجد خصوصا ، وورقها اخضر دائما وهي جميلة المنظر . [ويسميها اهل شنقيط (آتيل) . وفي أشعارهم « ذو السرح » وهو موضع يسمى عندهم باللغة البربرية « إنواتيل » وهو تعريب له كما ترى .] ومثل ذلك في بلاد العرب مواضع كثيرة مثل السرحة ، وذات السرح ، وذو السرح . (انظر ياقوت)

واصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب أنذر الشعراء بالجلد اذا هم شببوا بالنساء . فقال حميد بن ثور في ضمن قصيدة له :

تراني ان علّلت نفسي بسرحة من السَّرح موجود عليَّ طريقُ
ابى الله الا ان سَرحة مالك على كل سرحات العضاهِ تروقُ

هذا وقد اورد صاحب « لسان العرب» البيتين اللذين نحن بصددهما وقال كنى بالسرحة النابتة على الماء عن المرأة ، لأنها حينئذ أحسن ما تكون . (انظر مادة س رح)

لحائم حام حتى لا حراك[1] به محلا[2] عن سبيل[3] الماء مطرود[4]

فلما غناه به زرزر، اطربه وأبهجه وحرك له جوارحه. وقال: ويلك من هذا؟ قال: عبدك المجفو المطرح، يا سيدي، اسحاق قال: يحضر الساعة. فجاءه رسوله، واسحاق مستعد، قد علم انه سمع الغناء من مجيد مؤدٍّ انه سيبعث اليه. فجاءه الرسول. فَحُدِّثْتُ[5] انه لما دخل عليه ودنا منه، مد يده اليه ثم قال: ادن مني فاكب عليه واحتضنه المأمون وادناه واقبل عليه بوجهه مصغياً اليه ومسرورا به.

مباسطة الملك لندمائه

ومن اخلاق الملك السعيد ترك القطوب في المنادمة، وقلة التحفظ

---

١ – في نسخة: «حيام» وكذلك في الاغاني، وفيه «حوام» وقد اورد هذه الحكاية باسم علويه بدلا من زرزر وأضاف بيانات اخرى. ولكنها هنا اوفى واكمل.

٢ – محلا: ممنوع أي مطرود.

٣ – في الاغاني في الموضعين المذكورين: «طريق» وكذلك في احدى النسخ. وفي لسان العرب: «طريق الورد» بدلا من سبيل الماء.

٤ – استحسن الأصمعي هذا الشعر وقال: «غير أن هذه الحاآت لو اجتمعت في آية الكرسي، لعابتها».

٥ – الضمير للجاحظ

على ندمائه ، و(لا)[1] سيما اذا غلب احدهما على عقله ، وكان غيره املك به منه بنفسه .

وللسكر حد اذا بلغه نديم الملك ، فأجمل الامور واحراها باخلاقه ان لا يؤاخذه بزلّةٍ ان سبقته ، ولا بلفظة ان غلبت لسانه ، ولا بهفوة كانت احدى خواطره .

حد الاغضاء عن الولات

والحد في ذلك ان لا يعقل ما يقول ولا ما يقال له ، وان خُلّيَ ونفسه رمى بها في مهواة ، وان اراد احد اخذ ثيابه لم يمانعه .

مواطن المعاقبة عليها

فاما اذا كان ممن يعرف ما يأتي وما يذر ، وكان اذا رام احد اخذ ما معه قاتله دونه ، وكان اذا شُتِم غضب وانتصر[2] ، واذا تكلم افصح

---

١ — لا شك ان اداة النفي (لا) قد سقطت من عبارة الجاحظ . وقد نصوا على وجوبها واستشهدوا بقول امرىء القيس « ولا سيما يوم بدارة جلجل » واكد أئمة اللغة ان من اهملها فقد أخطأ . (انظر التسهيل وشرحه وخاتمة الأشموني في باب الاستثناء ، وانظر البيان الوافي في « تاج العروس » (مادة س و ى) .

٢ — اي لنفسه .

وقل سَتَطُه : فاذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زلة ، فعلى عمد اتاها وبقصد فعلها . فالملك جدير ان يعاقبه بقدر ذنبه . فان ترك عقوبة هذا ومن اشبهه ؛ قدح في عزه وسلطانه .

الاقتصاد في العقوبة

ومن الحق على الملك ان لا يجاوز باهل الجرائم عقوبة جرائمهم . فان لكل ذنب عقوبة : اما في الشريعة والنواميس ، واما في الاجماع والاصلاح . فمن ترك العقوبة في موضعها . فبالحري ان يعاقب من لا ذنب له وليس بين ترك العقوبة (اذا وجبت) وعقوبة من لا ذنب له ، فرق . وانما وضع الله الملوك بهذه المواضع الرفيعة ليقوموا كل ميل ويدعموا كل اقامة .

تفرد الملك بالتطيب والتجميل ونحوهما

ومن اخلاق الملك ان لايشارك بطانته وندماءه في مس طيب ولا مجمر . فان هذا وما اشبهه يرتفع الملك فيه عن مساواة احد .

وكذا يجب على بطانة الملك وقرابته[1] ان لا يمسوا طيبا اذا تطيب ، لينفرد الملك بذلك دونهم .

وليس الطيب كالطعام والشراب اللذين لا بد من مشاركة الندماء فيهما .

فاما كل ما امكن الملك من ان ينفرد به دون خاصته وحامته[2] ، فمن اخلاقه ان لا يشارك احدا فيه .

وكذا حكي عن انوشروان ومعاوية بن ابي سفيان . وبعض اهل العلم يحكي عن الرشيد ما يقرب من هذا .

واولى الامور باخلاق الملك ـ ان امكنه التفرد بالماء والهواء ـ ان لا يشرك فيهما احدا . فان البهاء والعز والابهة في التفرد .

---

(١) نهى صاحب القاموس عن استعمال « القرابة » بمعنى الاقارب ، ونسبه الجوهري الى العامة ، ووافقها الاكثرون ومنهم الحريري في « درة الغواص » . ومن رأيهم ان الواجب ان يقال « ذوو القرابة » ولكن هذا ورد بهذا المعنى في الحديث الشريف ، وعليه جرى الجاحظ في جميع هذا الكتاب . (وانظر التفصيل في تاج العروس في مادة ق ر ب)

(٢) الحامة هي العامة ، وايضاً اخصاء الرجل من اهله وولده وذوي قرابته .

سنة ملوك الفرس في ذلك

الا ترى ان الامم الماضية من الملوك لم يكن شيء احب اليهم من ان يفعلوا شيئاً تعجز عنـه الرعية ، او يتزيوا بزي ينهون الرعية عن مثله .

فمن ذلك اردشير بن بابك ، وكان انبل ملوك بني ساسان . كان اذا وضع التاج على رأسه ، لم يضع احد في المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به . وكان اذا ركب في لِبْسَةٍ[1] ، لم ير على احد مثلها . واذا تختم بخاتم ، فحرام على اهل المملكة ان يتختموا بمثل ذلك الفَص وان بعد في التشابه .

سنة سادات العرب والخلفاء في ذلك

وهذه من فضائل الملوك . وطاعة اهل المملكه ان تتحامى اكثر زيِّ الملك وأكثر احواله وشيمه ، حين لا يأتي ما لا بد لها منه .

وهـذا ابو احيحة سعيد بن العاص . كان اذا اعتم بمكة لم

(١) حالة من حالات اللبس .

يعتم احد بعمة ما دامت على رأسه[1].

وهذا الحجاج بن يوسف. كان اذا وضع على رأسه طويلة[2]، لم يجتري احد من خلق الله ان يدخل وعلى رأسه مثلها.

وهذا عبدالملك بن مروان. كان اذا لبس الخُفّ الاصفر، لم يلبَس احد من الخلق خفاً اصفر حتى ينزعه.

وهذا ابراهيم بن المهدي بالامس[3]. دخل على (احمد) ابن ابي دؤاد[4] (ابن علي) وعليه مُبطَّنة ملونة من احسن ثوب في الارض،

---

(١) اول من روى ذلك ابن الكلبي في كتاب الاصنام. قال (في ص ٢٠ من الاصل): «وكان سعيد بن العاص ابو احيحة يعتم بمكة. فاذا اعتم لم يعتم احد بلون عمامته» وروى ذلك ايضا ابن دريد في كتاب الاشتقاق (ص ٢٩) وقال انه ذو العمامة وان «احيحة تصغير احة وهو ما يجده الانسان في قلبه من حرارة غيظ وحزن. الاحة والاحاح واحد — كتاب الجمهرة».

(٢) اي قلنسوة طويلة عالية. وكان هذا النوع من القلانس خاصا بالامراء، وبالقضاة ايضا (كما تدل على ذلك عبارة البيهقي في المحاسن والمساوىء)

(٣) اي من عهد قريب من المؤلف.

(٤) من اكابر رجالات بني العبـاس وخصوصاً في دولة المأمون والمعتصم والواثق.

وقد اعتم على رأسه رُصافِيَّةً[1] بعمامة خز سوداء لها طرفان خلفه وامامه، وعليه خف اصفر، وفي يده عكازة آبنوس ملوح بذهب، وفي اصبعه فص ياقوت تضيء يده منه. فنظر الى هيئة ملأت[2] قلبه، وكان جسيماً، فقال: «يا ابراهيم! لقد جئتني في لبسة وهيئة ما تصلح الا لواحد من الخلق[3].» فانصرف فلم يأته حتى مات.

وحدثني ابو حسان الزيادي[4] (وذكر الفضل بن سهل فترحم عليه) وقال: وجه الي في ليلة ـ وقد اويت الى فراشي ـ رسولاً فقال: يقول لك ذو الرياستين:

---

(١) يؤخذ من كلام الجاحظ هنا ومما يليه ان الرصافية هيئة عمة على قلنسوة خاصة بالخليفة او ولي عهده. ويؤخذ من كلام ابن خلكان (في ترجمة جعفر البرمكي) ان اكابر بني هاشم كان لهم هذا الحق ايضاً. ذكر ابن خلكان ان عبد الملك بن صالح دخل مجلس جعفر هذا، وقال انه كان على رأسه رصافية. وقد روى صاحب الاغاني هذه الحكاية بحرفها تقريباً وقال ان عبد الملك نزع قلنسيته. فذلك دليل على ان الرصافية نوع مخصوص من القلانس المعممة.

(٢) في نسخة: فنظر اليه بهيبة.

(٣) يعني الخليفة.

(٤) من اكابر فقهاء بغداد الذين امتحنهم المأمون بخلق القرآن. وهو من اهل الفتوى والرواية. وقد ولاه المتوكل قضاء الشرقية ببغداد سنة ٢٤١ (ابو المحاسن في «النجوم الزاهرة» ج ١ ص ٦٣٩ و ٧٣٥)

لا تعتم غداً على قلنسوة اذا حضرت الدار [1] . قال فبت واجماً ، وانا لا اعلم ما يريد بذلك . وغدوت ، وغدا الناس على طبقاتهم ومراتبهم . فجاء الحسين بن ابي سعيد الى من في الدار ، فقال : ان امير المؤمنين يقعد في هذا اليوم ويعتم على قلنسوة ، فانزعوا عمائمكم !

وحدثني بعض اصحابنا عن الحسن بن قريش [2] قال : لما مات القاسم بن الرشيد ، وجه الى المأمون رسولا فأتيته . فجعل يسألني عن عياله وعن امواله ، ويشكوه الي ويقول : كان يفعل كذا ويفعل كذا . فكان في تلك الشكاية ان قال : وكان اذا ركب بمرو [4] ، ركب في رُصَافِيَّة [5] .

(١) يعني قصر الخلافة . والحكاية تدل على ان الواقعة حصلت بمرو ، لان الفضل بن سهل قتل في بلده (سرخس) عند عودة المأمون الى بغداد .

(٢) في نسخة : الحسن .

(٣) انظر الطبري (سلسلة ٣ ص ٦٥٢) فقد ورد فيه اسم هذا الرجل . من خاصة المأمون ، وقد حدثه الخليفة عن اخيه القاسم هذا . (المحاسن والمساوىء ص ١٨٧)

(٤) متى اطلق الكتاب هذا الاسم ، فانما يريدون به مرو الشاهجان ، لا مرو الروذ . والاولى هي اكبر مدائن خراسان ، وكان المأمون عاملاً عليها لابيه .

(٥) تأفف المأمون لان اخاه كان يتعمد التشبه به ، ولم يراع الواجب في تركه يتفرد بالرصافية في عاصمة ملكه ، ولو ان للقاسم حقاً في لبسها لانه هو ايضاً ابن الخليفة

عدل الملك في مجلس الشراب

ومن اخلاق الملك اذا علم ان بعض الندماء قد بلغ غاية مجهوده في الشراب وان الزيادة بعد ذلك تضر ببدنه وجوارحه ان يأمر بالكف عنه، وان لا يُكَلَّفَ فوق وسعه. فانه من تجاوز حق العدل عن الخاصة، لم تطمع العامة في انصافه .

مكالمة الندماء للملوك

ومن حق الملك ان لا يكلمه احد من الندماء مبتدئاً ولا سائلاً الحاجة ، حتى يكون هو المبتدىء بذلك [1] . فان جهل احد ما يلزمه

(١) دخل الامام الشافعي على الرشيد وسلم فرد الخليفة عليه السلام ثم قال : « من العجب ان تتكلم في مجلسي بغير امري ! » (انظر شرح القصة في ص ٤٢ من كتاب « مناقب الشافعي » لفخر الدين الرازي ، طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٩) . واول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه عبد الملك بن مروان « البيان والتبيين » وعلى هذا النظام جرى خلفاء الاسلام ، حتى جاء القاضي أحمد بن أبي دؤاد المتوفي سنة ٢٤٠ ﻫ ، فكان أول من بدأهم بالكلام ، وكانوا لا يكلمون حتى يتكلموا . (انظر ابن خلكان في ترجمته ، وانظر « شذرات الذهب» ج ١ ص ٥١٦)

في ذلك ، تقدم اليه فيما يجب عليه . فان عاد ، فعلى الموكل بامر الدار ان يحسن ادبه وان لا يأذن له بالدخول ، حتى يكون الملك يبتدىء ذكره . ثم يوعز اليه انه ان عاد ، اسقطت مرتبته فلم يطأ بساط الملك .

وكان شيرويه بن ابرويز يقول : « انما تعذر البطانة برفع حوائجها الى الملوك عند ضيقة تكون ، او عند جفوة تنالهم من ملوكهم ، او عند موت يحدث لهم ، او عند تتابع ازمة . فاذا كان ذلك ، فعلى الملك تعهُّدُ ذلك من خاصته حتى يصلح لهم امورهم ويسد خلتهم . فاذا كانوا من الكفاية في اقصى حدودها ، ومن خفض العيش في ارفع خصائصه ، ومن ذات اليد وادرار العطايا في اتم صفاتها ، ثم فتح احد فاه بطلب ما فوق هذه الدرجة ، فالذي حداه على ذلك الشره والمنافسة . ومن ظهرت هاتان منه كان جديراً ان تنزع كفايته من يده وتصير في يد غيره ، وينقل الى الطبقة الخسيسة ، فيلزم اذناب البقر وحراثة الارض » .

من الملوك بنعمهم عند الضرورة فقط

ومن اخلاق الملك ان لا يُمُنّ باحسان سبق منه ، ما استقامت له طاعة من انعم عليه ودامت له ولايته ، الا ان يخرج من طاعة الى معصية . فاذا فعل ذلك، فمن اخلاقه ان يمن عليه اولا باحسانه اليه ، ويذكره بلاءه عنده وقلة شكره ووفائه ، ثم يكون من وراء (ذلك) عقوبته بقدر ما يستحق ذلك الذنب في غلَظه ولينه .

وحدثني محمد بن الجهم [1] وداود بن ابي داود قالا : جلس الحسن بن سهل في مصلى الجماعة لنعيم بن خازم [2] ، فاقبل نعيم حافياً حاسرا وهو يقول : « ذنبي اعظم من السماء ! ذنبي اعظم من الهواء ! ذنبي اعظم من الماء ! » قالا : فقال له الحسن بن سهل : « على رسلك ! تقدمت منك طاعة ، وكان آخر امرك الى توبة، وليس للذنب بينهما مكان . وليس ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو امير المؤمنين في العفو . »

(١) كثيرا ما يروي الجاحظ عن هذا الانسان في كتاب « الحيوان » وفي كتاب « البيان والتبيين » .

(٢) كان في معية المأمون حينما ارسله الى مرو ابوه هارون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة . وصار من قواده ورجال دولته حينما أفضت اليه الخلافة . (طبري سلسلة ٣ ص ٧٣٤ و ٨٤١ و ١٠٢٢)

عدم المعاقبة في حال الغضب

ومن اخلاق الملك السعيد أن لا يعاقب وهو غضبان . لان هذه حال لا يسلم معها من التعدي والتجاوز لحد العقوبة . فاذا سكن غضبه ورجع الى طبعه ، أمر بعقوبته على الحد الذي سنته الشريعة ونقلتـه الملة . فان لم يكن في الشريعة ذكر عقوبة ذنبـه ، فمن العدل ان يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطة بين غليظ الذنوب ولينها ، وان يجعل الحكم عليه فيه ، ونفسه طيبة وذكر القصاص منه على بال

فاما العقوبة فلا تجوز اذا رفع امرها الى الملك [1] .

وليس الذنب بحضرة الملك كالذنب بحضرة السوقة ، ولا الذنب بحضرة الحاكم [2] كالذنب بحضرة الجاهل . لان الملك هو بين الله وبين عباده فاذا وجب بحضرته الذنب ، فمن حقه العقوبة عليه ليزدجر الرعايا عن العياثة والتتايع [3] في الفساد .

(١) في احدى النسخ : «فاما العفو فـلا يجوز اذا رفع امره إلى الملك » . ولهذه الرواية ايضا وجه وجيه . والضمير في آخره راجع الى الذنب . والمعنى ان الملك لا يجوز له تعطيل الشريعة بالعفو عن الجاني .

(٢) هكذا في النسخ ، ولعل الصواب « الحكيم » او « الحليم »

(٣) التتايع بالمثناة التحتية : التهافت والاسراع في الشر (قاموس) .

آداب البطانة عند قيام الملك

ومن حق الملك ـ اذا هم بالحركة للقيام ـ ان تسبقه بطانته وخاصته بذلك. فان أومأ اليهم ان لا يبرحوا، لا يقعد واحد منهم حتى يتوارى عن اعينهم.

فاذا خرج، فمن حقه ان تقع عينه عليهم وهم قيام.

فاذا قعد، كانوا على حالهم تلك.

فان نظر اليهم ليقعدوا، لم يقعدوا جملة. بل تقعد الطبقة الاولى اولا. فاذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثانية. فاذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثالثة.

وايضاً فان لكل طبقة رأساً وذنباً. فمن الواجب ان يقعد من كل طبقة رأسها ثم هلم جرا على مراتب الطبقة اولا اولا.

عدم الدنو من الملك، الا بشروط

ومن حق الملك ان لا يدنو منه احد ـ صغر او كبر ـ حتى يمس ثوبه ثوبه الا وهو معروف الابوين، في مركب[1] حسيب، غير خامل

(١) المركب كمعظم الأصل والمنبت (قاموس).

الذكر ولا مجهول .

فان احتاج الملك الى مشافهة خامل او وضيع واضطر اليها ، اما لنصيحة يسرها اليه او لامر يسأله عنه ، فمن حق الملك ان لا يُخَلِّيَ احداً يدنو منه حتى يُفَتَّشَ اولا ، ثم يأخذ بضبعيه اثنان ، احدهما عن يمينه والآخر عن شماله . فاذا ابدى ما عنده وقبل منه الملك ما جاء به ، فمن حقه على الملك الاحسان اليه والعائدة عليه والنظر في حاجته — ان كانت له — ليرغب ذوو النصائح في رفعها الى ملوكهم والتقرب بها اليهم .

الاستماع لحديث الملك

ومن حق الملك ، اذا حدث بحديث ان يصرف من حضره فكره وذهنه نحوه . فان كان يعرف الحديث الذي يحدث به الملك ، استمعه استماع من لم يدر في حاسة سمعه قط ولم يعرفه ، واظهر السرور بفائدة الملك والاستبشار بحديثه . فان في ذلك امرين : احدهما ما يظهر من ادبه ، والآخر انه يعطى الملك حقه بحسن الاستماع . وان كان لم يعرفه ، فالنفس الى فوائد الملوك والحديث عنهم اقرم واشهى منها الى فوائد السوقة ومن اشبههم .

وانما مدار الامر والغاية التي اليها يجري ، الفهم والافهام والطلب ثم التثبت . قال عمرو بن العاص : « ثلاثة لا املهن : جليسي ما فهم عني ؛ وثوبي ما سترني ؛ ودابتي ما حملت رحلي . » وذكر الشعبي ناساً ، فقال : « ما رأيت مثلهم اشد تناقـداً في مجلس ولا احسن فهماً عن محدث . »

وقال سعيد بن سلم (الباهلي) لامير المؤمنين المأمون : « لو لم اشكر الله الا على حسن ما ابلاني امير المؤمنين من قصده اليَّ بالحديث واشارته الي بطرفه ، لقد كان ذلك من اعظم ما تفرضه الشريعة وتوجبه الحرية . » قال المأمون : « لان امير المؤمنين والله يجد عندك من حسن الافهام اذا تحدثت ، وحسن الفهم اذا حُدِّثتَ ما لم يجده عند احد فيما مضى ولا يظن انه يجده فيما بقي . »

(ما حصل لرجل كان انو شروان يسايره)

وفيما يحكى عن انو شروان انه بينا هو في مسير له (وكان لا يسايره احد من الخلق مبتدئاً واهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم ، فان التفت شمالا ، دنا منه الموبذ ، فامره باحضار من اراد مسايرته .

قال : فالتفت في مسيره هذا (يمينا) ، فدنا منه صاحب الحرس ، فقال : فلان .

فاحضره . فقال : حدثني عن اردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر [1] ، وكان الرجل قد سمع من انو شروان هذا الحديث مرة . فاستعجم عليه واوهمه انه لا يعرفه .

فحدثه انو شروان بالحديث . فاصغى الرجل اليه بجوارحه كلها ، وكان مسيرهما على شاطئ نهر .

وترك الرجل ـ لاقباله على حديثه ـ النظر الى مواطئ حافر دابته . فزلت احدى قوائم الدابة ، فمالت بالرجل الى النهر فوقع في الماء ونفرت دابته . فابتدرها حاشية الملك وغلمانه ، فازالوها عن الرجل ، وجذبوه فحملوه على ايديهم حتى اخرجوه .

فاغتم لذلك انو شروان ونزل عن دابته ، وبسط له هناك . فاقام حتى تغدى في موضعه ذلك . ودعا بثياب من خاص كسوته ، فالقيت على الرجل ، واكل معه . وقال له : كيف اغفلت النظر الى موطئ حافر دابتك ؟ قال : « ايها الملك ! ان الله اذا انعم على عبد بنعمة ،

(١) هو بفتح الخاء والزاي اسم جبل (قاموس) . والمتعارف الآن عند الفرنج ضم الخاء . وانظر ياقوت .

قابلها بمحنة وعارضها ببلية . وعلى قدر النعم تكون المحن . وان الله انعم علي بنعمتين عظيمتين ، هما : اقبال الملك علي بوجهه من بين هذا السواد الاعظم ؛ وهذه الفائدة وتدبير هذه الحرب التي حدث فيها عن اردشير حتى لو رحلت الى حيث تطلع الشمس او تغرب ، كنت فيه رابحاً . فلما اجتمعت نعمتان جليلتان في وقت (واحد) قابلتها هذه المحنة . ولولا اساورة الملك وخدمه (وحسن جده) ، كنت بمعرض هلكة . وعلى ذلك ، فلو غرقت حتى اذهب عن جديد الارض ، كان قد أبقى لي الملك ذكرا مُتلَّدا مُخلَّدا ، ما بقي الضياء والظلام .

فسر الملك وقال : ما ظننتك بهذا المقدار الذي انت فيه !

فحشا فه جواهرا ودرا رائعا ثمينا ، واستبطنه حتى غلب على اكثر امره [1] .

---

(١) نقل المسعودي هذه الحكاية بتمامها وبحرفها ، الا في كلمات قليلة . وقال انه وجدها في كتب سير الملوك من الاعاجم . ونسبها الى شيرويه بن ابرويز ، وقال ان الرجل هو بندار بن خرشيد (جزء ٦ ص ١٢٤ - ١٢٦) . ونقلها ايضا صاحب كتاب « تنبيه الملوك والمكايد » (ص ٢٧ - ٢٩) ، واختصرها صاحب « محاسن الملوك » (ص ٨١ – ٨٢) . ونقلها بالحرف الواحد في « المحاسن والمساوىء » ص ٤٩٤ – ٤٩٥ .

(ما وقع لابن شجرة الرهاوي حينما حادثه معاوية)

وهكذا يحكى عن (ابي شجرة) يزيد بن شجرة الرهاوي [1] ، انه بينا هو يساير معاوية بن ابي سفيان ، ومعاوية يحدثه عن يوم خزاعة وبني مخزوم وقريش [2] . وكان هذا قبل الهجرة . وكان يوماً اشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم ابو سفيان فارتفع ببعيره على رابية ثم أومأ بكميه [3] الى الفريقين ، فانصرفوا [4] .

قال : فبينا معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث ، اذ صك وجه يزيد حجر عائر [5] فأدماه ، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على

(١) من اركان دولة معاوية . ارسله الى مكة سنة ٣٩ ليقيم للناس الحج وليأخذ له البيعة ويطرد عامل علي عنها . ثم ارسله بعد ذلك لغزو الروم في البحر مرة او مرتين (سنة ٤٩ وسنة ٥٦) . وهو منسوب الى قبيلة من العرب (انظر تاج العروس في مادة ر ه و) . واما النسبة الى المدينة المشهورة بآسيا الصغيرى فهي الرهاوي ؛ بضم الراء .

(٢) في المسعودي: «يحدثه عن جرعان يوم كان لبني مخزوم وغيرهم من قريش» وفي نسخة : « جزعان » . [والصواب خزاعة] .

(٣) في نسخة «بكمة» وفي نسخة ثانية «بكفه» [والتصحيح عن «محاسن الملوك»]

(٤) هذه القصة لم نجدها لغير الجاحظ والذين نقلوا عنه مثل المسعودي وصاحب « تنبيه الملوك » وصاحب «محاسن الملوك» ولعل الوقعة التي يشير اليها هي المذكورة في آخر ديوان حسان بن ثابت الصحابي ، وفي السيرة الحلبية .

(٥) « عائر » بالعين المهملة والياء التحتية المثناة المهموزة . قال صاحب تاج العروس في مادة (ع و ر) : والعائر من السهام ما لا يدرى راميه وكذا من الحجارة . . . والجمع العوائر .

ثوبه ، (وهو) ما يمسح وجهه .

فقال له معاوية : لله أنت ! ما ترى ما نزل بك ؟ قال : وما ذاك ، يا امير المؤمنين ؟

قال : هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! قال : أعتِق ما املك[1] ، ان لم يكن حديث امير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي ، فما شعرت بشيء حتى نبهني امير المؤمنين . فقال له معاوية : لقد ظلمك من جعلك في الف من العطاء ، واخرجك من عطاء ابناء المهاجرين وكماة[2] اهل صِفِّين ! فامر له بخمسمائة الف درهم ، وزاده في عطائه الف درهم ، وجعله بين جلده وثوبه[3] .

---

(١) في المسعودي : اعتق ما املك . ولكن احدى النسخ انفردت بجعل الضمير للغائب على سبيل الحكاية لئلا تقع اليمين على المتكلم او القارىء . فوردت فيه العبارة هكذا : « عتق ما يملك » . وعلى ذلك جرى كثير من الكتاب . وذلك من باب التشدد في التأثم والتحرج . واذا كان ناقل الكفر ليس بكافر ، فكيف يقع في اليمين من يروي مجرد كلام لغيره ؟ ولعلهم ارادوا عدم جريان اللسان بمثل هذه الايمان

(٢) في نسخة : حماة .

(٣) روى هذه القصة في « تنبيه الملوك » بالفاظ الجاحظ ، ورواها صاحب « محاسن الملوك » باختصار واوردها صاحب « المحاسن والمساوىء » بالحرف الواحد .

فلئن كان يزيد بن شجرة خدع معاوية في هذه ، فمعاوية ممن لا يُخادَع ولا يجارى .... ولئن كان بلغ من بلادة يزيد بن شجرة وقلة حسه ما وصف به نفسه ، ما كان بجدير بخمسمائة الف وزيادة الف في عطائه وما اظن ذلك خفي عن معاوية ، ولكنه تغافل على معرفة ، لما وفاد حق رياسته[1] .

(ويروى عن معاوية انه كان يقول : « السروّ التغافل[2] »)

ما وقع لابي بكر الهذلي حينا حادثه السفاح

وكذلك حكي عن ابي بكر الهُذلي[3] انه بينا هو يسامر ابا

---

(١) نقل المسعودي هذه الحكاية ايضاً عن الجاحظ ، ولم يسمه كما جرت عادته ولكنه حينما اضطر لنقل فكره وتقديره عند قوله «فلئن كان يزيد بن شجرة ......» لم يجد بداً من الاشارة اليه بطريق الوصف والتعميم ، فقال : «قال بعض اهل المعرفة والادب ممن صنف الكتب في هذا المعنى وغيره » ثم نقل العبارة الثانيه برمتها ايضاً مع تغيير قليل في الالفاظ او في مواضعها . (مروج الذهب جزء ٦ ص ١٢٨ — ١٣٠)

(٢) هذه الجملة من زيادات احدى النسخ . (ومعنى السرو السخاء في مروءة فيكون المراد من هذه المقولة ان التظاهر بالغفلة هو من دلائل السخاء الممزوج بالمروءة . وسترد هذه المقولة ايضاً في هذا الكتاب) .

(٣) اسمه سليمان بن عبد الله (الاعلاق النفيسة لابن رسته ص ٢١٣) . وهو من مشاهير اهل البصرة وكان من اخص جلساء ابي العباس السفاح ، وله بحضرته

العباس اذ تحدث ابو العباس بحديث من احاديث الفرس . فعصفت الريح ، فاذرت طستاً [1] من سطح الى مجاس ابي العباس ، فأرتاع ومن حضره . ولم يتحرك ابو بكر لذلك ، ولم تزل عينه متطلعة لعين ابي العباس . فقال له : ما اعجب شأنك ، يا هذلي ! لم تُرَع مما راعنا ! قال : يا امير المؤمنين ، ان الله عز وجل يقول : «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» وانما للمرء قلب واحد . فلما غمره السرور بفائدة [2] امير المؤمنين ، لم يكن فيه لحادث مجال . وان الله ، اذا انفرد بكرامة احد

مناظرة بديعة في تفضيل البصرة على الكوفة واهلها وكان مناظره ابن عياش المنتوف (الآتي ذكره في متن الكتاب) اوردها ابن الفقيه في كتاب البلدان (ص ١٦٧ ١٧٣ وتكملتها في ص ١٩٠) . وهو من الضعفاء في الحديث ، ومات سنة ٦٧ (شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٣) .

(١) اي اوقعت الريح طستا ، وقد رواها صاحب « مطالع البدور » (ج ١ ص ١٩٢) . والذي في المسعودي : « فاذرت ترابا وقطعا من الآجر من اعلى السطح الى المجلس » . وانظر « شذرات الذهب » (ج ١ ص ٢١٧) . وقد روى الراغب الاصفهاني في « محاضراته » (ج ١ ص ١١٧) واقعة أخرى شبيهة بهذه من كل الوجوه ، فقال : كان ابو القاسم الكعبي المتكلم في مجلس امير خراسان فسقط من السطح طست فتزلزلت منه عرصة الدار . فلم يلتفت ابو القاسم عن الامير . فقال الامير لا يصلح لوزارتي الا هو .

(٢) في المسعودي : « بمحادثة » .

واحب ان يبقى له ذكرها ، جعل تلك الكرامة على لسان نبيه او خليفته . وهذه كرامة خصصت بها ، مال اليها ذهني وشغل بها فكري. فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ، ما حسست بها ولا وجمت لها الا بما يلزمني في نفسي لامير المؤمنين . فقال ابو العباس : لئن بقيت لك ، لارفعن منك ضبعا[1] لا تطيف به السباع ولا تنحط عليه العقبان[2]

كلمة ابن عياش المنتوف

وكان (عبد الله) بن عياش المنتوف[3] يقول : لم يتقرب العامة الى الملوك بمثل الطاعة ، ولا العبيد بمثل الخدمة ، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع .

---

(١) الضبع (بضم الباء) العضد . والجملة هنا كناية ، بمعنى لانوهن باسمك (انظر القاموس واساس البلاغة) . وفي المسعودي : « صعبا » . (وهو تحريف ظاهر) .

(٢) اورد المسعودي هذه القصة بتبديل في الالفاظ وزيادة ونقصان (مروج الذهب ج ٦ ص ٢٢ - ١٢٣) . واوردها صاحب « محاسن الملوك » بأختصار (ص ٢٠) . ونقلها بتحريف يسير صاحب « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٦) .

(٣) وهو من رجالات المنصور العباسي ، وكان من النسابين . ويعرف بالمنتوف لانه كان ينتف لحيته . (ابن قتيبة في كتاب « المعــارف » ص ٦٨) . ذكره ابن الاثير في حوادث سنتي ١٤٨ و ١٥٨ .

كلمة روح بن زنباع

وكان (ابو زرعة) روح[1] بن زنباع (بن روح بن سلامة الجذامي) يقول: ان اردت ان يمكنك الملك من اذنه، فامكن اذنك من الاصغاء اليه اذا حدث[2].

---

(١) قال في «تاج العروس» ان كل من سمي «روح» من المحدثين فهو بالفتح، الا روح بن القاسم، فانه بالضم. وروح بن زنباع الجذامي من رجالات بني امية. كان في سنة ٦٤ واليا على فلسطين للخليفة مروان بن الحكم، فوثب عليه بابل بن قيس الجذامي فاخرجه، وبايع لابن الزبير حين قيامه بالخلافة في الحجاز. ثم عاد روح واليا عليها، بعد ان القى خطبة جذب بها الناس لبيعة مروان بن الحكم دون عبد الله بن عمر بن الخطاب ودون عبد الله بن الزبير. (انظرها في ابن الاثير في حوادث سنة ٦٤). ولذلك صار من اجل الناس عنده وعند ابنه عبد الملك بن مروان. وكان جليسه وانيسه ونديمه وسميره ومشيره حتى قال الخليفة فيه انه جمع ثلاث خصال لم تجتمع في غيره: فقه الحجاز، في دهاء اهل العراق، في طاعة اهل الشام. (العقد الفريد ج ١ ص ٩ و٢٠٧ واسد الغابة). وقد وقعت له مع هذا الخليفة ومع زوجته الاعرابية حكاية ظريفة اوردها في «المحاسن والمساوىء» (ص ٤١٩) ثم صار مشيراً للوليد بن عبد الملك. ومع ما كان عليه من الفضل والدهاء والذكاء، فقد وقعت له حكاية طريفة مضحكة اثناء وجوده بالكوفة مع بشر اخي عبد الملك بن مروان واليها. اوردها في «مروج الذهب» (ج ٥ ص ٢٥٤ – ٢٥٨ – وفي المستطرف ج ٢ ص ١١٢)

كلمة اسماء بن خارجة الفزاري

وكان اسماء بن خارجة [1] (الفزاري) يقول: ما غابني احد قط غلبة رجل يصغي الى حديثي [2].

كلمة معاوية

وكان معاوية يقول: يغلب الملك حتى يركب بشيئين: بالحلم عند سورته، والاصغاء الى حديثه [2].

آداب اهل الزلفى بعد المضاحكة

ومن اخلاق الملك، اذا قرب انسانا او انس به حتى يهازله ويضاحكه ثم دخل عليه بعد، ان يدخل دخول من لم يجر بينهما انس

(٢) نقلها المسعودي (ج ٦ ص ١٢٣ – ١٢٤).

(٣) اسماء ابن خارجة هو ابن حصن بن حذيفة بن بدر. كان سيد بني فزارة، وكان من اسخياء الكوفة. مات سنة ٩٦. وله ترجمة في «فوات الوفيات» (ج ١ ص ١٤). ولم يل اسماء بن خارجة شيأ للسلطان (العقد الفريد ج ١ ص ٥١)

قط وان يظهر من الاجلال له والتعظيم والاستخذاء [1] اكثر مما كان عليه قبل . فان اخلاق الملوك ليست على نظام .

تنكر اخلاق الملوك

ومن اخلاقهم ان لا تكون اخلاقهم معروفة فيُتَمثَّلُ عليها ويعاملون بها .

الا ترى ان الملك قد يغضب على الرجل من حُماتِه، والرجل من حامّته وبطانته : اما لجناية في صلب مال، او لخيانة حرمة الملك، فيؤخر عقوبته دهرا طويلًا، ثم لا يظهر له ما يوحشه حتى يتقي ذلك في اللحظة والكلمة والاشارة وما اشبه ذلك .

وليست هذه اخلاق سائر الناس، اذ كنا نعلم ان طبائع الناس الانتصار في اول اوقات الجنايات وعند اول بوادر الغضب .

---

(١) الخضوع والانقياد . وفي « الاغاني » انت تخضع لهذا، هذا الخضوع وتستخذي له ؟

صبر الملوك على مضض الحقد حتى تحين الفرصة

فاما الملوك وابناؤهم، فليست تقاس اخلاقهم ولا يُعايَرُ عليها. اذ كان احدهم يضع اعدى خلق الله له بين اذنه وعاتقه، وبين سحره[1] ونحره. فتطول بذلك المدة وتمر به الازمنة، وهو لو قتله في اول حادثة تكون وعند اول عثرة يعثر لم يكن بين هذه القتلة وبين الاخرى بعدها بعشرين سنة فرق. اذ كان لا يخاف ثأراً ولا في الملك وهنا.

معاقبة انو شروان لمن خانه في حريمه

وفيما يذكر عن سيرة انو شروان ان رجلاً من خاص خدمة جنى جناية اطلع عليها انو شروان، والرجل غافل عنه. وكانت عقوبة تلك الجنايه توجب القتل في الشريعة. فلم يدر كيف يقتله: لا هو وجد امراً ظاهراً يقتل بمثله الحكام فيسفك به دمه، ولا قدر على كشف ذنبه

(١) السحر (بالفتح) هو الرئة. والمراد به هنا ما يحاذيه، وهو الصدر. قالت عائشة (رضي الله عنها): «مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين سحري ونحري.» تعني بين صدرها ونحرها. والمقصود شدة الاقتراب والالتزاق، كما نقول ايضاً: بين سمعه وبصره. (عن تاج العروس)

لما في ذلك من الوهن على الملك والمملكة، ولا وجد لنفسه عذراً في في قتله غيلة، اذ لم يكن ذلك في شرائع دينهم وو راثة سلفهم.

فدعا به بعد جنايته بسنة فاستخلاه وقال: قد حزبني[1] امر من اسرار ملك الروم، وبي حاجة الى ان اعلمها، وما اجدني اسكن الى احد سكوني اليك، اذ حللت من قلبي المحل الذي انت به. وقد رأيت ان ادفع اليك مالا لتحمل الى هناك تجارة وتدخل بلاد الروم فتقيم بها لتجارتك. فاذا بعت ما معك، حملت مما في بلادهم من تجاراتهم واقبلت الي. وفي خلال ذلك تصغي الى اخبارهم وتطلع طِلْعَ[2] ما بنا حاجة اليه من امورهم واسرارهم.

فقال الرجل: افعل ايها الملك، وارجو ان ابلغ في ذلك محبة الملك ورضاه.

فامر له بمال، وتجهز الرجل وخرج بتجارة. فأقام ببلاد الروم حتى باع واشترى ولقن[3] من كلامهم ولغتهم ما عرف به مخاطبتهم وبعض اسرار ملكهم. ثم انصرف الى انو شروان بذلك.

فاستبشر بقدومه وزاد في بره، ورده الى بلادهم وامره بطول

---

(١) حزبه الامر اشتد عليه واصاب منه غم.

(٢) اي: وتعلم سر امرهم الذي نحن في حاجة الى معرفته.

(٣) اي فهم وحفظ بسرعة.

المقام بها والتربص بتجارته . ففعل حتى عرف واستفاض ذكره . فلم تزل تلك حاله ست سنين . حتى اذا كان في السنة السابعة ، امر الملك ان تصور صورة الرجل في جام من جاماته التي يشرب فيها ، وتجعل صورتـه بازاء صورة الملك ، ويجعل مخاطباً للملك ومشيراً اليه من بين اهل مملكته ، ويدنى رأسه من رأس الملك في الصورة كأنه يسر اليه .

ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه ، وقال له : « ان الملوك ترغب في هذا الجام . فان اردت بيعه ، فادفعه الى فلان اذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته . فانه ان باعه من الملك نفسه ، نفعك ؛ وان لم يمكنه بيعه من الملك باعه من وزيره او من بعض حامته » .

فجـاء غلام الملك بالجـام ليلاً ، وقد وضع الرجل رجله في غرزِ [1] ركابه ، فسأله ان يبيع جامه من الملك ، وان يتخذ بذلك عنده يداً .

وكان الملك يقدم ذلك الغلام ، وكان من خاص غلمانه وصاحب شرابه . فاجابه الى ذلك ، وأمره بدفع الجام الى صاحب حزانته ،

(١) الغرز : هو الركاب من جلد مخروز .

وقال : « احفظه ! فاذا صرت الى باب الملك ، فليكن فيما اعرضه عليه . »

فلما صار الى ملك الروم ، دفع صاحب الخزانة اليه الجام فعزله فيما يعرض على الملك .

فلما وقـع الجام في يدي الملك ، نظر اليه ونظر الى صورة انو شروان فيه والى صورة الرجل وتركيبه : عضواً عضواً وجارحة جارحة . فقال : « اخبرني ، هل يصور مع الملك صورة رجل خسيس الاصل .

قال : لا .

قال : فهل يصور في آنية الملك صورة لا اصل لها ولا علة ؟

قال : لا .

قال : فهل في دار الملك اثنان يتشابهان في صورة واحـدة حتى يكون هذا كأنه هذا في الصورة ، و كلاهما نديما الملك ؟

قال : لا اعرفه .

فقال : قم !

فقام . فتأمله قائماً ، فوجد صورته قائماً في الجام .

ثم قال : أدْبِرْ !

فأدبر ، فتأمل صورته في الجام مدبراً

ثم قال : اقبل !

فاقبل . فتأمل صورته في الجام مقبلاً . فوجدها بحكاية واحدة وتخطيط واحد .

فضحك الملك ولم يجترىء الرجل ان يسأله عن سبب ضحكه ، اجلالا له واعظاماً .

فقال ملك الروم : الشاة اعقل من الانسان اذ كانت تأخذ بمديتها فتدفنها [1] ، وانت اهديت الينا مديتك بيدك !

ثم قال له : تغديت ؟

قال : لا .

قال : قربوا له طعاما .

---

(١) روى المقريزي عن ابن عبد الظاهر « ان خادماً رأى من مشرف عال ذباحاً ، وقد اخذ رأسين من الغنم فذبح احدهما ورمى سكينته ومضى ليقضي حاجته فاتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورماها في البالوعة . فجاء الجزار يطوف على السكين ، فلم يجدها . واما الخادم ، فانه استصرخ وخلصه منه . وطولع بهذه القضية اهل القصر ، فامروا بعمله جامعاً » (الخطط ج ٢ ص ٢٦٣) . وهذا الجامع هو المعروف اليوم بجامع الفاكهاني .

فقال الرجل : ايها الملك ! انا عبد ذليل ، والعبد لا يأكل بحضرة الملك !

فقال : انت عبد ما كنت عند ملك الروم متطلعاً على اموره متتبعا لاسراره ؛ بل انت ملك ونديم ملك اذا قدمت بلاد فارس . اطعموه !

فاطعم وسقي الخمر حتى اذا ثمل ، قال : ان من سنن ملوكنا ان تقتل الجواسيس في اعلى موضع تقدر عليه ، وان لا تقتله جائعاً ولا عطشان .

فامر ان يصعد بـه الى صرح كان يشرف منه على كل من في المدينة اذا صعد ، فضربت عنقه هناك ، والقيت جثته من ذلك الصرح ، ونصب رأسه للناس .

فلما بلغ ذلك كسرى ، امر صاحب الحرس ان يأمر المغرد بصوت الحراسة ـ اذا ضرب بأجراس الذهب ـ ان يقول ، اذا مر على دور نساء الملك وجواريه : « كل نفس وجب عليها القتل ففي الارض تقتل ، الا من تعرض لحرم الملك فانه يقتل في السماء . »

فلم يدر احد من اهل مملكته ماذا اراد بذلك حتى مات [1] .

(١) روى صاحب « تنبيه الملوك » هذه القصة عن الجاحظ (ص ٣٠ - ٣٤) وهي واردة بالحرف في « المحاسن والاضداد » (ص ٢٧٧ - ٢٨٠)

فليس في الارض نفس تصبر على مضض الحقد ومطاولة الايام بها [١] صبر الملوك . ولذلك بطل القياس على اخلاقهم ، ووُجهت آراء ذوي الحجا والتمييز في العمل عليها والمقابلة بها حتى تخرج على وزن واحد وبنظم مؤتلف .

نكبة عبد الملك بن مروان

بن نازعه الملك

وكذلك يحكى عن عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الاشدق [٢] ، انه اقام بضع سنين يزاول قتله . فمرة يُرجِئُهُ ، واخرى يَهُمُّ به ، ومرة يُحجِمُ ، واخرى يُقدِمُ ، حتى قتله ، على اخبث حالاته .

(١) الضمير يعود الى النفس .

(٢) في « الاشتقاق » لابن دريد (ص ٤٩) ما نصه : عمرو بن سعيد بن العاص يعرف بالاشدق ، وهو الذي يلقب بلطيم الشيطان .

لما بلغ خبره الى ابن الزبير (وهو مطالب بالخلافة في مكة) صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ان ابا ذبان قتل لطيم الشيطان « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » . قتله عبد الملك بن مروان في خطب طويل ذكره المؤرخون بالتفصيل ، مثل المسعودي وابن الاثير (في حوادث سنة ٦٩) . وفي المستطرف (ج ٢ ص ٤٤) انه سمي بالاشدق لانه كان مائل الشدق .

نكبة الرشيد بالبرامكة

وحدثني قثم بن جعفر بن سليمان [١]، قال: حدثني مسرور [٢] الخادم: قال: اشهد بالله! لكنت من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمس ثوبي ثوبه، وهو يقول في مناجاته ربه: «اللهم! اني استخيرك في قتل جعفر بن يحيى.» ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين او ست [٣].

---

(١) هو قثم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس. كان عاملا على لمدينة، واميراً على البصرة. وله فيها مجالس علم وادب.« انظر البلاذري والاغاني في فهارسها»

(٢) في الاصل: «حسين». ولا نعلم ان للرشيد خادما خاصا به بهذا الاسم. ولذلك ابدلناه بخادمه المشهور وهو: «مسرور». يؤيد ذلك أيضاً رواية «تنبيه الملوك والمكايد».

(٣) في تنبيه الملوك والمكايد» ما نصه:

كان الرشيد ادهى الناس واكتمهم لسره. ومما يدل على ذلك ما حدث به مسرور خادمه، قال: كنت مع الرشيد في بعض سني حجه، فسمعته — وقد التزم المستجار من الكعبة وهو يلتفت يميناً وشمالا، وكتب بين استار الكعبة لم يرني — وهو يقول: «اللهم اني استخيرك في قتل جعفر بن يحيى!» مراراً كثيرة

مراعاة حرم الملك

ومن حق الملك ان لا يرفع احد من خاصته وبطانته رأسه الى حرمة له، صغرت ام كبرت. فكم من فيل قد وطئ هامة عظيم وبطنه حتى بدت امعاؤه؛ وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع وتمششته [1]، وكم من جارية كانت كريمة على قومها عزيزة في ناديها قد اكلتها حيتان البحر وطير الماء، وكم من جمجمة كانت تصان وتعل [2] بالمسك والبان [3] قد القيت بالعراء، وغيبت جثتها

فلما سمعته، طار عقلي وخشيت ان يفطن بي، فيكون ذلك سبب هلاكي. فاقبلت اتعوذ، ولم ازل احتال حتى استللت من الاستار.

قال ابو هاشم مسرور الخادم: فكان بين الوقت الذي استخار الله فيه في قتل جعفر بن يحيى وبين قتله سبع سنين». (صفحة ١٩٧ ١٩٨).

(١) اي مصت عظمه. وفي احدى النسخ: «تمزقته السباع وتمشمشته». وفي نسخة ثانية: «تمزقته السباع وتمششته». وفي «المحاسن والاضداد»: ونهشته.

(٢) اي تطيب مرة بعد اخرى بالمسك الخ، علّه بالحناء يعلّه ويعلّه «الكامل للمبرد». والعليلة المرأة المطيبة طيبا بعد طيب «قاموس». وفي نسخة: تعلى. وفي نسخ «المحاسن والاضداد»: تغل، تعل، تغدا.

(٣) يطلق العرب اسم البان على شجرتين مختلفتين. فالاولى هي المسماة ايضا بشجرة الخلاف، وهي التي يهيم بها الشعراء ويشبهون قوام المحبوب بقضبانها. والخلاف نوع من الصفصاف او هو غيره. ويطلقون اسم الخلاف على زهرة مما يشم

في الثرى بسبب الحرم والنساء، والخدم، والاولياء! ولم يأت الشيطان احداً من باب قط حتى يراه بحيث يهوي [1] منقسم اللحم والاعضاء، هو ابلغ في مكيدته واحرى ان يرى فيه امنيته من هذا الباب، اذ اذ كان من ألطف مكايده وادق وساوسه واحلى تزيينه [2]!

فعلى الحكيم المحب لبقاء هذا النسيم الدقيق وهذا الماء

رطبا ويستقر مثل الورد والنسرين والنيلوفر (نهاية الارب، في الباب الاول من الفن الرابع، وحسن المحاضرة).

وفي «صبح الاعشى ج ١ ص ٣٩٣» ان البان والخلاف من الفواكه المشمومة وانها نوعان.

اما اسم هذا البان عند علماء النبات فهو (Salix Egyptiaca) والشجرة الثانية هي التي عناها الجاحظ تشبه الاثل ولها ثمر كأنه الجوز فيه حب كالفستق ومنه يستخرجون الدهن المشهور بدهن البان او بالبان فقط. وهذا الثمر يسمى بالشوع ايضا. ودهنه يدخل في تركيب نفائس الطيب والاعطار والغوالي. وتوجد شجرته ببلاد العرب واسمه العلمي (Guilandina moringa) واسمه العامي المشهور عند الفرنج (Ben) مأخوذ عن العربية.

(١) من باب ضرب بمعنى يسقط.

(٢) في نسخ «المحاسن والاضداد» (ص ٢٧٣ - ٢٧٤) اجل تزاينه، اجل بوائقه.

الرقيق [1] ، ان يطلب دوامها لنفسه بكل حيلة يجد اليها سبيلا ، ويدفع مقارفتها [2] لكل شيء يقع فيه التأويل بين امرين من سلامة تنجي او عطب [3] يتلف ، ولا يتكل على خيانة خفيت او فجرة حظي بها احد من اهل السفه والبطالة . فان تلك لا تسمى سلامة ، بل انما هي حسرة وندامة ، يوم القيامة . وكم من فعلة قد ظهر عليها بعد مرور الايام وطول الازمنة بها ، فَرَدَّتْ [4] من كان قد احسن بها الظن حتى تركته كأمس الذاهب [5] ، كأن لم يكن في العالم!

اغضاء البصر بحضرة الملك

ومن حق الملك — اذا انس بانسان حتى يضاحكه ويمازله

(١) يكنى بالنسيم الدقيق عن النفس ؛ وبالماء الرقيق عن الدم .

(٢) « ويدفع مقارفتها لكل شيء الخ » اي يحول دون ارتكابها لاي امر تكون عاقبته مشكوكا فيها بين السلامة والهلاك . قال في تاج العروس : (قارفه مقارفة وقرافا : قاربه . ولا تكون المقارفة إلا في الاشياء الدنيئة .)

(٣) في نسخة : غضب .

(٤) الفعل هنا هو ردّى مثل اردى ، بمعنى أهلك .

(٥) أمس الذاهب ، وأمس الدابر ، وخبر كان : كلها بمعنى واحد . (انظر لسان العرب في دبر)

ويفضي اليه بسره ويخصه دون اهله، ثم دخل على الملك او زاره زائر — ان لا يرفع اليه طرفه ، اعظاما واكراما ، وتبجيلا وتوقيرا ، ولا يضحك لضحك الملك ولا يعجب لعجبه : وليكن غرضه الاطراق والصمت وقلة الحركة .

غض الصوت بحضرة الملك

ومن حق الملك ان لا يرفع احد صوته بحضرته . لان من تعظيم الملك وتبجيله خفض الاصوات بحضرته ، اذ كان ذلك اكثر في بهائه وعزه وسلطانه .

تأديب الله للصحابة

وبهذا ادب الله اصحاب رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال عز من قائل :

« يا ايها الذين امنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون . »

فاخبر ان من رفع صوته فوق صوت النبي فقد آذاه ، ومن آذاه فقد آذى الله ، ومن آذى الله فقد حبط عمله

وكان قوم من سفهاء بني تميم اتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : يا محمد ! اخرج الينا نكلمك .

فغم ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وساءه ما ظهر من سوء ادبهم فانزل الله عز وجل : ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون [1] . »

ثم اثنى على من غض صوته بحضرة رسوله ، فقال جل اسمه : « ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى [2] . »

فمن تعظيم الملك وتبجيله خفض الاصوات بحضرته ، واذا قام عن مجلسه : حتى لا يدخل الملك وهن ولا خلل ولا تقصير ، في صغير امر ولا جليله .

---

(١) انظر قصة هذا الوفد في كتب السيرة النبوية ، وفي « صبح الاعشى » (ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٦) . وفي « البيان والتبيين »

(٢) انظر « محاضرات الراغب » (ج ١ ص ١١٧) .

حرمة مجلس الملك في غيبته

وكانت ملوك الاعاجم تقول : ان حرمة مجلس الملك اذا غاب كحرمته اذا حضر

الرقباء على مجالس ملوك العجم عند غيابهم

وكان لها عيون [1] على مجالسها ، اذا غابت عنها . فمن حضرها ، فكان في كلامه واشارته وقلة حركته وحسن الفاظه وادبه — حتى انفاسه — على مثل ما يكون اذا حضر الملك ، سمي ذا وجه . ومن خالف اخلاقه وشيمه وظهر منه خلاف ما يظهره بحضرة الملك ، سمي ذا وجهين ، وكان عند الملك منقوصا متصنعا .

مواطن المكافآت

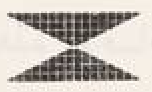
ومن اخلاق الملك ان يخلع على من ادخل عليه سروراً ، اما في خاصة نفسه واما في توكيد ملكه . فان كان السرور لنفسه في نفسه،

(١) اي رقباء .

فمن حقه على الملك ان يخلع عليه خلعة في قرار داره ، وبحضرة بطانته وخاصته . وان كان في توكيد ملكه ، فمن حقه ان يخلع عليه بحضرة العامة، لينشر له بذلك الذكر ويحسن به الاحدوثة وتصلح عليه النيات، ويستدعي بذلك الرغبة الى توكيد الملك وتسديد اركانه .

بيان المكافآت وخصوصها وعمومها

وليس من العدل ان يفرد المحسن بخلعة فقط ، الا ان تكون الخلعة على شرب او لهو . فاما اذا كانت لاحد المُعْنَيَيْن اللذين قدمنا ذكرهما، فمن العدل ان يكون معها جائزة وصلة وترتيب ، او ولاية او اقطاع او اجراء ارزاق او فك اسير او حمل حمالات او قضاء دين او احسان ، كائناً ما كان ، مضافاً اليها وموصولا بها .



باب

في صفة ندماء الملك

صفة خلق النديم

ينبغي ان يكون نديم الملك، معتدل الطبيعة، معتِدل الاخلاط، سليم الجوارح والاخلاق، لا الصفراء تقلقه وتكثر حركته، ولا الرطوبة والبلغم يقهره ويكثر بوله وبزقه وتثاؤبه ويطيل نومه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره وتكثر أمانِيَّه وتفسد مزاجه. فاما الدموي، فليس يدخل في هذه الاقسام المذمومة، اذ كان بالبدن اليه [1] حاجة كحاجته الى تركيبه وسلامته.

---

(١) الضمير يعود الى « الدم » المفهوم من قوله « الدموي »

آداب النديم في المزاملة، وعلومه.

ومن حق الملك ـ اذا زامله بعض بطانته ـ ان يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة، دليلًا بهدايته واعلامه ومياهه، قليل التثاؤب والنعاس، قليل السعال والعطاس، معتدل المزاج صحيح البِنْيَة، طيب المفاكهة والمحادثة، قصير المياومة والملايلة[1]، عالما بايام الناس ومكارم اخلاقهم، عالما بالنادر من الشعر والسائر من المثل، متظرفا[2] من كل فن، آخذاً من الخير والشر بنصيب. ان ذكر الآخرة ونعيم اهل الجنة، حدثه بما اعد الله تعالى لاهل طاعته من الثواب، فرغبه فيما عنده؛ وان ذكر النار، حذره ما قرب اليها. فزهده مرة، ورغبه اخرى. فان بالملك اعظم الحاجة الى من كانت هذه صفاته وبالْحرَا[3] اذا اصاب هذا، ان لا يفارقه الا عن امر تنقطع به العصمة وتجب به النقمة.

(١) في نسخة : قصير الملالة.

(٢) في نسخة : منصرفا.

(٣) في «القاموس» : «الحرا الخليق. ومنه : بالحرا ان يكون ذلك.»

عدة الملك في خروجه لسفر او نزهة

ومن حق الملك اذا خرج لسفر او نزهـة ، ان لا يفارقه خِلَعٌ للكساء ، واموال للصِّلات ، وسياط للادب ، وقيود للعُصاة ، وسلاح للاعداء ، وحُماةٌ يكونون من ورائه وبين يديه ، ومؤنس يفضي اليه بسره ، وعالم يسأله عن حوادث امره وسنة شريعته ، ومُلْهٍ يقصر ليله ويكثر فوائده .

وعلى هذا كانت ملوك الاعاجم ، اولها وآخرها .

وايضاً فان ملوك العرب ، لم تزل تمتثل هذا وتفعله .

خلال الندماء

ولندماء الملك وبطانته خلال يساوون فيها الملك ضرورة . ليس فيها نقص على الملك ، ولا ضعة في الملك . منها : اللَّعِبُ بالكرة ، وطلب الصيد ، والرمي في الاغراض ، واللعب بالشطرنج ، وما اشبه ذلك .

وفي « الصحاح » : ويحدث الرجل الرجل فيقول : بالحرى ان يكون . (والمعنى هنا ان الملك اذا اصاب رجلا توفرت فيه هذه الصفات فالاحرى والاجدر والاخلق به ان لا يفارقه الا في الحالة التي نص عليها المؤلف .)

مساواة الملك لملاعبه

ومن الحق على الملك ان لا يمنع ملاعبه ما يجب له من طلب النَّصَفَة في هذه الاقسام التي عددنا .

حق الملاعب على الملك

ومن حق الملاعب له المُشَاحّةُ والمكالبة والمساواة والممانعة وترك الاغضاء والاخذ من الحق باقصى حدوده . غير ان ذلك لا يكون معه بَذَاءٌ ولا كلام رَفَثٍ ولا معارضة بما يزيل حق الملك ولا صياح يعلو كلامه ولا نخير [1] ولا قذف ولا ما هو خارج عن ميزان العدل .

ملاعبة سابور على امر مجهول

وفيما يحكى عن سابور انه لاعب تربا ، كان له بالشطرنج امرة مطاعة [2] فَقَمَرَه تربة . فقال له سابور : ما امرتك ؟

---

(١) النخير : مد الصوت في الخياشيم . (قاموس)

(٢) اي ان هذا الترب كانت عادته وديدنه ان لا يلعب الشطرنج الا على امرة مطاعة . والامرة المطاعة هي الاحتكام .

فقال : اركبك حتى اخرج بك الى باب العامة .

فقال له سابور : بئس موضع الدالة وضعتك ، فرد غير هذا .

فقال : جرى لفظي .

فأسف لذلك سابور وقام فدعا ببرقع ، فتبرقع . ثم جثا لتربه ، فامتنع ان يعلو ظهر الملك ، اجلالا له واعظاماً . فنادى سابور بعد ذلك بسنة في الرعية : لا يلعبن احد لعبة على حكم غائب ؛ فمن فعل فدمه هدر [1] .

فاما اذا كانت المشاحة على طلب الحق في هـذه الاقسام التي ذكرنا بمعارضة شعر ، وتوبيخ في مثل ونادر من الكلام ، واخبار عن سوء لعب اللاعب وتأنيب له ، فهذا مما يخاطب به الملك ويعارض فيه . فاما اذا خرج عن هذا ، فدخل في باب الجرأة كما فعل ترب سابور ، فانه خطأ من فاعله وجهل من قائله وجرأة على ملكه . وليس للرعية الجرأة على الراعي .

---

(١) روى صاحب « محاسن الملوك » هذه القصة باختصار . (ص ٧٨)

آداب الملاعبة بالكرة وغيرها

ومن حق الرجل على الملك ، اذا ضرب معه بالكرة ، ان يتقدم بدابته على دابة الملك ، وصولجانه على صولجان للملك ، وان يعمل جهده في ان لا يبخس حظه ولا يفتر في مسابقة ولا مراقصة ولا التقاف كرة ولا سبق الى حد ونهاية وما اشبه ذلك .

وكذلك القول في الرماية في الاغراض وطلب الصيد ولعب الشطرنج .

لعبة الشطرنج بحضرة عبد الملك بن طاهر

سمعت محمد بن الحسن بن مصعب [1] يقول : « كان لي صديق من

(١) اضطرب اسم الاب في كثير من كتب التاريخ والادب . فورد في نسخة : « الحسين » وكذلك في كامل بن الاثير طبع اوروبة ومصر وفي « المحاسن والمساوىء » ص ٢١٧ . وورد في نسخة : « الحسن » وكذلك في الاغاني اما الطبري فاورد الاسمين ، وفرق بينهما صاحب فهرسته بجعل « محمد بن الحسين » راويا . ولا ادري من اين له هذه التفرقة ، فان متن الطبري لا يفيدها . والظاهر عندي انهما شخص واحد .

بني مخزوم ، وكان لاعبا بالشطرنج . فذكرته لابي العباس عبد الله بن طاهر ، فقال : احضره .

فقلت للمخزومي : تهيأ للقاء ابي العباس . وكان متصرفاً كثير الادب . فغدوت به ، فدخل .

فلما وقعت عين ابي العباس عليه ، وقف . فرآه من بعيد ، ثم انصرف من غير ان يكلمه .

فقال : هذا الرجل من اهل الادب ، فاغد به ولاعبه الشطرنج

اولا — لان محمد بن الحسين بن مصب لم يرد في الاغاني مطلقاً ، ولو كان راويا — كما يزعم صاحب فهرست الطبري — لكان من الراجح وقوع اسمه في كتاب الاغاني ؛

ثانياً — لان ابن الاثير ذكر محمد بن الحسين بن مصعب (في حوادث سنة ١٩٨) ثم وصفه بأنه ابن عم طاهر ذي اليمينين الذي فتح بغداد باسم المأمون . ومعلوم ان طاهرا هذا هو ابن الحسين بن مصعب بلا خلاف . فيكون صاحبنا الذي اشار اليه الجاحظ هو محمد بن حسن بن مصعب ، والا لكان عمه . ومحمد بن الحسن بن مصعب هذا هو الذي ارسله طاهر الى المامون بخرسان برأس الامين بعد قتله ببغداد . فهو من عصبة عبد الله بن طاهر الذي وقعت الحكاية في مجلسه . وقد كان بصيرا بالغناء والنغم ، وكان من الملحنين . وذلك لان ابا الفرج الاصفهاني يقول ان الرجل نشأ بخرسان ، وينعته بلقب الامير . (ابن الاثير ج ٦ ص ٢٠١ و ٣٥٦) و (الاغاني)

بحضرتي حتى أَبُورَهُ[1] وعابثه حتى يخرج الى باب الهزل والشتيمة[2] .

فلما قعدنا دارت لي عليــه ضربة فقلت : ، خذها ، وانا الغلام البُوشَنجِي[3] وهو ساكت .

ثم دارت لي عليه ضربة اخرى ، فقلت : خذهـا ، وانا مولى مخزوم ! فسكت .

ثم دارت عليه ضربة ، فقلت : خذها يا ابن مخزوم في حِرِمّ[4] مخزوم ! فسكت .

---

(١) البور الاختبار والامتحان كالابتيار . قال في نقائض جرير والفرزدق (ص ٣٥٤) : « وهذا كله ابتيار منه للناس ليدعوهم الى خلعه » .

(٢) يظن بعض الجهلة ان هذا اللفظ ليس بعربي ، لان بعض المتحذلقين مالوا الى الشتم لفظاً ومعنى ، دون أن يتفطنوا الى الفرق بين الاسم والمصدر . والقاموس وشرحه وكل متون اللغة والجاحظ وامثاله شهود عدول . وانظر ايضاً شرح القاموس في مادة هزل فقد صرح بأنهم اشتقوا الشتيمة من الشتم (وانظر البيان والتبيين) .

(٣) اشارة الى نشأته بمدينة بوشنج من خراسان .

(٤) كلمة مركبة تركيبا اضافيا من كلمتين . وحذف حرف الالف من الثانية . والمعنى ظاهر . وهو شتيمة . ويضارع ذلك في حذف الالف ، قول العرب : « لاب لك » اي لا اب لك ، وقولهم : « ويلمه » (انظر تاج العروس في مادة ويل) .

واستؤذن لرجل من آل عبدالملك بن صالح ، وكان خاصاً بابي العباس ، فامر بالاذن له .

فلما دخل الهاشمي وقعد ، قال (لي) المخزومي : ليس فيك موضع شرف ولا عز ، فافاخرك ! انت بوشنجي ثمن دانق ولكن قل لهذا الهاشمي يفاخرني حتى ينظر ما يكون حاله . فاما انت ، فمن انت حتى افاخرك ؟

فضحك ابو العباس حتى فحص برجليه [1] ، وامر له بخمسمائة دينار وقربه وآنسه .

آداب الندماء اذا اخذت الملك

سنة من النوم

ومن اخلاق الملك ، اذا غلبته عيناه ، ان ينهض من حضره من صغير او كبير ، بحركة لينة خفيفة ، حتى يتوارى عن قرار مجلسه ، ويكون بحيث يقرب منه اذا انتبه . ولا يقولن انسان في نفسه : لعل

(١) اي ضرب الارض برجليه كثيرا حتى كأنه يبحث فيها .

الملك ان هب من سنته لا يسأل عني ، او لعله ان يمتد به النوم او يعرض له شغل . فان هذا من اكبر الخطأ .

وقد قتل بعض الملوك رجلا في هذه الصفة .

وليس من الحزم ان يجعل الحكيم للملك على نفسه طريقاً ، وهو وان سلم من عدل الملك ولائمته لكرم الملك وشميته ، قدح ذلك في نفس الملك واضطغن عليه . وبالحرى ان لا يسلم من عذل وتأنيب[1] .

امامة الملك للصلاة

ومن حق الملك – اذا حضرت الصلاة – فالملك اولى بالامامة ، لخصال : منها – انه الامام ، والرعية ، مأمومة ، ومنها – انه المولى ، وهم العبيد ، ومنها – انه اولى بالصلاة في قرار داره وموطىء بساطه ، ولو حضر مجلسه ازهد الخلق واعلمهم .

فاذا قام للصلاة ، فمن حقه ان يكون بينه وبين من يصلي خلفه

(١) انبه تأنيبا : عنفه ولامه .

عشرة اذرع ، وان لا يتقدمه احد بتكبير ولا بركوع ولا سجود ولا قيام .

وهذا ، وان كان يجب لكل من ام قوما من صغير او كبير او شريف او وضيع ، فهو للملك اوجب .

فاذا سلم الملك ، فمن حقه ان يقوم كل من صلى خلفه قائما . فانهم لا يدرون ايريد تنفلاً او دخولا او قعوداً في مجلسه .

فان قام لنافلة ، فليس من حقه ان يتنفلوا . لانهم لا يدرون لعله ان يسبقهم او يقطع صلاته لحدث ، فيكون يحتاج الى ان يسبقهم ، وهم قيام يصلون بازائه ، وهو قاعد . ولكن من حقه ان يكونوا بحالهم حتى يعلموا ما الذي يفعل . فان قعد ، انحرفوا الى حيث لا يراهم ، فصلوا نوافلهم . وان دخل في الصلاة صلّوا على مكاناتهم [1] .

---

(١) المكانة المنزلة عند الملك . (قاموس) . وقد وردت هذه الآداب بزيادة واختصار في « محاسن الملوك » (ص٧٨)

آداب مسايرة الملك

وقد قلنا ان من حق الملك ان لا يبتدئه احد بمسايرة . وان طلب ذلك منه من يستحق المسايرة ، فالذي يجزئه من ذلك ان يقف بحيث يراه ويتصدى له . فان أومأ اليه ، سايره ، وان امسك عن الايماء ، علم ان امساكه هو ترك الاذن له في مسايرته .

ومن حقه ، اذا سايره ان لا يمس ثوبه ثوب الملك ، ولا يدني دابته من دابته ، ويتوخى ان يكون رأس دابته بازاء سرج الملك ، غير انه لا يكلفه ان يلتفت اليه . ولا ينبغي له ان يبتدئه بكلام .

وان كان لا يثق بلين عنان دابته حتى يصرفه كيف شاء ومتى شاء ، فالرأي له ان لا يسايره . فان في مسايرته وصمة عليه وعلى الملك . اما عليه فانه يحتاج الى حركة متواترة يتعب بها نفسه ودابته ، ويخرج بها عن حد اهل الادب والمروءة والشرف . ولعله في خلال ذلك ايضا ان يبلغ ما يريد . واما على الملك ، فانه وهن في المملكة . لان الملك ، ان طلب الصبر عليه وعلى سير دابته ، كان انما يسير عند ذلك بسيره وليس في آيين المملكة ان يسير الاعظم بسير من هو دونه .

سنة اكابر العجم عند تهيئهم للمسايرة

ولذلك كانت رؤساء الاكاسرة والاساورة والدبيربذ[1] وموبذان موبذ[2] ومن اشبه هؤلاء من خاصة الملك، اذا هم الملك بالمسير في نزهة او لبعض اموره، عرضوا دوابهم على راضة الملك وصاحب دوابه. وكان كل واحد منهم لا يأمن ان يدعو به الملك للمسايرة والمحادثة، فيحتاج الى معاناة دابته لبلادة او كثرة نفور او عثار او جماح فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره. وكان الرائض يمتحن دابة دابة من دواب هؤلاء العظماء. فما اختار منها ركب، وما نفى ارجي.

---

(١) كلمة فارسية تفسيرها حافظ الكتاب (التنبيه والاشراف للمسعودي ص ١٠٤). والمقصود من الكتاب الكتاب المقدس عند المجوس. وربما كان الصواب في هذا المقام: «دبير يد» من كلمتين الاولى فارسية والثانية عربية بمعنى «كاتب اليد». ذلك لانني لم اعثر في معجمات اللغة الفارسية على تفسير يوافق ما ذهب اليه المسعودي، اللهم الا ان تكون الكلمة محرفة وتحتاج الى التثقيف.

(٢) اما الموبذ فهو القاضي، وموبذان موبذ هو قاضي القضاة. وموبذ من الفاظ الفهلوية، وهي اللغة الفارسية القديمة ومعناها القاضي (مروج الذهب جزء ٦ ص ٣٧٥).

وايضا ان من حق الملك ، اذا سايره واحد ، ان لا تروث دابته ولا تبول ولا تتحصن [1] ولا تتشغب ، ولا يطاب المحاذاة لسير دابة الملك ، وان اراد ذلك منعه راكبه .

ما حصل للموبذ اثناء مسايرته لقباذ

وفيما يحكى عن ملوك الاعاجم ان قباذ [2] ، بينا هو يسير والموبذ يسايره ، اذ راثت دابة الموبذ وفطن لذلك قباذ . فاغتم الموبذ بذلك ، فقال له في كلام بينهما : ما اول ما يستدل به على سخف الرجل ، ايها الموبذ ؟

---

(١) تحصن الفرس صار حصانا اي اذا تكلف ذلك . ولعل المعنى ان الفرس يثب على الدابة التي تكون قدامه كما يفعل الفحل . لئلا يحدث مثل ما وقع لسلطان مصر قايتباي اذ ركب في محرم سنة ٨٧٦ ومعه الاتابكي ازبـك (منشىء الازبكية) في مصر متوجهين من القاهرة الى شبين القناطر. ففي اثناء الطريق شب فرس الاتابكي على فرس السلطان ورفسه . فجاءت الرفسة في قصبة ساق السلطان فانكسرت ، فنزل بشبين وهو في غاية الالم . واستحضر السلطان محفة من القاهرة ليعود عليها .

(٢) معرب قباد . وفي كتاب « برهان قاطع » انه بنى مدينتي حلوان وكازرون . واقول ان حلوان هذه هي غير التي بالقرب من القاهرة . وعن ياقوت انها كانت اكبر مدينة في العراق بعد الكوفة والبصرة وبغداد وسر من رأى .

فقال : ان يعلف دابته في الليلة التي يركب في صبيحتها الملك .

فضحك قباذ حتى افتر عن نواجذه . وقال : لله انت ! ما احسن ما ضمنت كلامك بفعل دابتك ! وبحق ما قدمك الملوك وجعلوا ازمة احكامهم في يدك !

ووقف ثم دعا بدابة من خاص مراكبه ، فقال له : تحول عن ظهر هذا الجاني عليك الى ظهر هذا الطائع لك [1] .

ما حصل لشرحبيل اثناء مسايرته لمعاوية

وهكذا يحكى عن معاوية بن ابي سفيان انه بينا هو يسير وشرحبيل بن السمط [2] يسايره ، اذ راثت دابة شرحبيل ، وكان

---

(١) رواها في « محاسن الملوك » باختصار . (ص ٨٢ – ٨٣) ، ورواها بالحرف في « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٦ – ٤٩٧) .

(١) هو ابو السمح الكندي . كان من رجالات معاوية واركان دولته، وكان يستشيره في جلائل الامور ويعول عليه في حل المشكلات الجسام . وقد ارسله مع عمرو بن العاص لملاقاة ابي موسى الاشعري في قضية التحكيم . وكان من قواد الجيوش ومن صناديد الفرسان المعدودين ، واشترك في رياسة الجيوش التي فتحت العراق والقادسية وبيسان واجنادين . وقد طلب من علي عليه السلام ان يدفع اليهم قتلة عثمان بن عفان ان لم يكن هو القاتل . وهو الذي فتح حمص ثم تولاها لمعاوية ، وهو الذي قسم منازلها بين اهلها .

وبما يحسن ذكره للتعريف بجلالته في نفسه وقومه انه اعتزل مع ولده بني

عظيم الهامة بسيط القامة . فعطن معاوية بروث الدابة ، وساء ذلك شرحبيل .

فقال معاوية : يا ابا يزيد انه يقال ان الهامة اذا عظمت ، دلت على وفور الدماغ وصحة العقل .

قال نعم يا امير المؤمنين ، الا هامتي فانها عظيمة ، وعقلي ضعيف ناقص .

فتبسم معاوية ، وقال : كيف ذلك ، ولله انت

قال : لاطعامي هذا النائل امه البارحة مكوكي شعير .

فضحك معاوية ، وقال : افحشت ، وما كنت فاحشاً وحمله على دابة من مراكبه [1] .

معاوية حينما اطبقوا على منع الصدقة ، وقالا لهم : « انه لقبيح بالحرار (الاحرار) التنقل . ان الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون ان ينتقلوا الى اوضح منها ، مخافة العار . فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل والحق ، الى الباطل والقبيح ؟ اللهم انا لا نمالىء قومنا على ذلك ! » توفي سنة ٤٠ او سنة ٤٢ . (ابن الاثير) (والاشتقاق لابن دريد ص ٢١٨) ، (تاج العروس في باب الباء وفي باب اللام)

(١) رواهـا باختصار في « محاسن الملوك » . (ص ٨٣) ، وفي « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٧) .

تحذير

فليتنكب من يساير الملوك ما يقذي اعينهم بكل جهده . فان لمسايرتهم شروطا يجب على من طلبها ان يستعملها ويتحفظ فيها . وقلما حظي احد بمسايرة ملك حتى يكون قبلها مقدمات يجب بها الحظوة .

تطير العجم من مسايرة الملك المتصلة

فاما نفس المسايرة للملك المتصلة ، فان الاعاجم كلها كانت تتطير منها وتكرهها . وايضا فان الملك لم يكن يثابر على مسايرة احد من بطانته بعينه ، لما كان يعلم من طيرتهم من ذلك و كرهتهم له .

ما حصل من صاحب الشرطة وهو يسير بين يدي الهادي

ويقال ان سعيد بن سلم [1] ، بينا هو يساير موسى امير المؤمنين

---

(١) هو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي . كان بمنزلة عظيمة من الهادي ومن الرشيد بعده ، وكان يركب معه في قبة واحدة . وقد استعمله الرشيد على

وعبد الله بن مالك [1] (الخزاعي) امامه ، والحربة في يده ، فكانت الريح تسفي التراب الذي تثيره دابة عبد الله في وجه موسى ، وعبد

الموصل ، ثم على الجزيرة ، ثم على ارمينية . فخرج الخزر عليه فهزموه وفعلوا الافاعيل المنكرة التي لم يسمع بمثلها الناس .

فارسل الرشيد رجلين فاصلحا ما افسده . ثم ولاه مرعش فاغارت الروم عليها واصابوا من المسلمين وانصرفوا ، ولم يتحرك سعيد من موضعه . وكان ذلك سنة ١٩١ .

قال سعيد ان اعرابيا مدحه ببيتين لم يسمع احسن منهما :

أيَا سارِيًا بالّليلِ ، لا تَخْشَ ضِلَّةً ... سعِيدُ بن سَلمٍ ضوءُ كُلِّ بلَادِ

لنا مُقْرَمٌ أَرْبَى على كُلِّ مُقْرِمٍ ... جوادٌ حَثَا فِي وجهِ كُلِّ جواد

فاغفل صلته فهجاه ببيتين لم يسمع اهجى منهما :

لكلِّ أخي مَدحٍ ثوابٌ عَلِمتُهُ ... وليس لمدح ألباهِليِّ ثوابُ

مدحتُ ابنَ سَلمٍ ، وألمديحُ مَهزَّةٌ ... فكان كصَفوانٍ عليهِ ترابُ

راجع (ابن الاثير و « الاغاني » « وعيون الاخبار » ؛ « واماني القالي »)

(١) كان صاحب الشرطة في ايام المهدي فالهادي فالرشيد . وكان من اكابر

الله لا يشعر بذلك ، وموسى يحيد عن سنن التراب . وعبد الله في خلال ذلك يلحظ موسى وموضعه ، فيطلب ان يحاذيه . فاذا حاذاه ، ناله من ذلك التراب ما يؤذيه .

حتى اذا كثر ذاك من عبد الله ، ونال موسى اذى ذلك التراب ، قال لسعيد : اما ترى ما نلقى من هذا الخائن [1] في مسيرنا هذا ؟

قال : يا امير المؤمنين ! والله ما قصر في الاجتهاد ، ولكنه حرم حظ التوفيق [2] .

القواد وتولى ارمينية واذربيجان . له مع الهادي حكاية ظريفة ذكرها ابن الاثير (ج ٦ ص ٧٠ و ٧١) . وكان بينه وبين يحيى بن خالد البرمكي عداوة وتحاسد ، وانتهت بتصالحهما على يد احد المزورين من حيث لا يعلمان ولا يعلم .

(١) كذا في النسخ ، وفي العقد الفريد وفي المحاسن والمساوىء . ولعل الاصل : « المائق » .

(٢) نقل ابن عبد ربه هذه الحكاية باختصار في مقدمتها ولم يشر الى مصدرها . (العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٦) ونقلها بالحرف في « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٧)

ما قاله عبد الله بن الحسن للسفاح

وفيما يذكر عن عبد الله بن حسن [1] انه بينا هو يساير ابا العباس (السفاح) بظاهر مدينة الانبار وهو ينظر الى بناء قد بناه، فقال ابو العباس له : هـات ما عندك، يا ابا محمد ! (وهو يستطعمه [2] الحديث بالانس منه) فانشده :

أَلَمْ تَرَ مالِكاً لَمّا تَبَنَّى ... بناءً نفعُهُ لبني بُقَيْلَهْ ؟
يُرَجِّي أَنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ ، ... وأَمْرُ اللهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَهْ !

فتبسم ابو العباس كالمغضب، وقال : لو علمنا، لاشترطنا حق المسايرة !

(١) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب. وله اخبار ووقائع كثيرة مع السفاح والمنصور . لان السفاح اجتهد في ترضيه حتى لا يطالب بالخلافة وكذلك فعل المنصور . ولكن ولديه محمدا النفس الزكية وابراهيم خرجا على المنصور . (أنظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٤ والاغاني والطبري والكامل للمبرد بمقتضى فهارسها) .

(٢) في نسخة يستفهمه .

فقال عبد الله : يا امير المؤمنين ، بوادر الخواطر واغفال المشايخ !

قال : صدقت ، خذ في غير هذا [1] .

ما قاله الهاشمي لابي مسلم الخرساني

وذكر المدايني ان عيسى بن موسى [2] ، بينا هو يساير ابا مسلم [3] عند منصرفه الى ابي جعفر في اليوم الذي قتل فيه ، اذ انشد عيسى :

سيأتيك ما افنى القرونَ التي مضت
وما حلَّ في اكناف عادٍ وجُرهُمِ ،

---

(١) روى صاحب « محاسن الملوك » هذه القصة (ص ٨٣ و ٨٤) ، ورواها ايضا صاحب الاغاني باختصار

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله الهاشمي (راجع فهارس ابن الاثير والاغاني) .

(٣) هو ابو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية بخراسان .

وَمن كان أنأى [1] منك عِزاً ومَفْخَراً
وأنهدَ [2] بالجيش اللُّهام العَرَمْرَمِ

فقال ابو مسلم : هذا مع الامان الذي اعطيت ؟

قال عيسي : اعتق ما املك ان كان هذا لشيء من امرك ! وما هو الا خاطر ابداه لساني .

قال : فبئس الخاطر والله اذن [3] .

عدم تسمية الملك او تكنيته

ومن حق الملك ان لا يسمى ولا يكنى في جد ولا هزل ولا انس ولا غيره .

ولولا ان القدماء من الشعراء كنت الملوك وسمتهم في اشعارها واجازت ذلك واصطلحت عليه ، ما كان جزاء من كنى ملكا او خليفة الا العقوبة . على ان ملوك آل ساسان لم يكنها احد من رعاياها

(١) في نسخة : ادنى .
(٢) كثير النهود أو النهوض بأمر الجيش والقيام باعبائه .
(٣) نقلها في « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٨) .

قط ولا سماها في شعر ولا خطبة ولا تقريظ ولا غيره . وانما حدث هذا في ملوك الحيرة [1] .

---

(١) أطنب ياقوت في وصف هذه المدينة وأحوالها وأساطيرها في الجاهلية ، ولم يذكر لنا شيئاً عنها في أيام عظمتها على عهد الاسلام . وإنما استفدنا منه أنها بقرب النجف . ولذلك رأينا ان نثبت هنا ما جاء عنها في الاغاني ليعرف القارىء مكانتها التي دخلت الآن في خبر كان . قال :

« كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة في ايام بني امية . فقال له رجل من اهلها ، وكان عاقلا ظريفا :

– أتعيب بلدة بها يضرب المثل في الجاهلية والاسلام ؟

– وبماذا تُمدح ؟

– بصحة هوائها ، وطيب مائها ، ونزهة ظاهرها . تصلح للخف والظلف . سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبر وبحر ، محل الملوك ومزارهم ، ومسكنهم ومثواهم . وقد قدمتها – اصلحك الله – مخفاً فرجعت مثقلاً ، ووردتها مقلاً فاصارتك مكثراً .

– فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل ؟

– بأن تصير الي ، ثم ادع ما شئت من لذات العيش ، فوالله لا اجوز بك الحيرة فيه !

– فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك .

– افعل !

فصنع لهم طعاماً ، وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صيد من وحشها : من ظباء ونعام وأرانب وحبارى . وسقاهم ماءها في قلالها ، وخمرها في آنيتها . وأجلسهم على رقها ، وكان يتخذ بها من الفراش أشياء ظريفة . ولم يستخدم لهم

والدليل على ذلك انه لو سمى احد من الخطباء والشعراء في كلامه المنثور ملكاً او خليفة وهو يخاطبه بأسمه ، كان جاهلا ضعيفاً خارجا

ـه] ولا عبداً إلا من مولديها ومولداتها ، من خدم ووصائف كأنهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غناهم حنين واصحابه في شعر عدي بن زيد ، شاعرهم ، واعشى همدان لم يتجاوزهما . وحياهم برياحينها . ونقلهم على حمرها — وقد شربوا — بفواكهها . ثم قال :

— هل رأيتني استغنت على شيء مما رأيت واكلت وشربت وافترشت وشممت وسمعت ، بغير ما في الحيرة ؟

— لا ، والله ! ولقد أحسنت صفة بلدك ، ونصرته فاحسنت نصرته والخروج مما تضمنته . فبارك الله لكم في بلدكم ! »

وكان ابن شبرمة يقول : « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين » كتاب (البلدان للهمداني ص ٢٦٢) . وعن اهلها اخذت قريش الزندقة في الجاهلية ، والكتابة في فجر الاسلام (الاعلاق النفيسة لابن رسته ص ١٩٢ و ٢١٧) .

وكانت عمارة الكوفة سبباً لخراب الحيرة . وقد اتى على الكوفة الزمان ، وكذلك الامر في واسط وسر من رأى . وانت عليم بما صارت اليه البصرة وبغداد . وهذه الستة هي اكبر أمصار العراق في عهد الخلافتين . وناهيك بها من امصار رفعت للحضارة أعلى منار ! فسبحان من بيده ملكوت الارض والسماء ! يتصرف بالبلاد والعباد كما يشاء !

من باب الادب . ولولا ان الاصلاح منعنا ايجاب المنع من ذلك ، كان من اول ما يجب [1] .

ولا ادري لم فعل القدماء ذلك ، كما اني لا ادري لم اجازته ملوكها ورضيت به ، اذ كانت صفة الملوك ترتفع عن كل شيء وترقى عنه [2] .

---

(١) سبق الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي إلى تقرير هذه القاعدة . فهو اول من منع الناس ان ينادوه باسمه . (محاضرة الأوائل ومسامرة الاواخر) . ولكن يظهر ان ذلك الأمر تراخى بتطاول العهد ، فعاد القوم الى ما كانوا عليه .

(٢) على ان اهل الادب ورواة الاشعار كانوا يتحرون عند إنشاد القصائد على احد الخلفاء والامراء ، فيتخيرونها من التي لا يكون فيها اسم معشوقة يشابه اسم ام له او إبنة او اخت او زوجة (الاغاني)

وفي « محاسن الملوك » (ص ٢٩) أن إبراهيم بن المهدي قال : كنت عند الرشيد ، فاهديت له أطباق ومعها رقعة . فلما قرأها ، استفزه الطرب .

فقلت : يا امير المؤمنين ، ما الذي أطربك ؟

فقال : هذه هدية عبد الملك بن صالح .

ثم نبذ الي الرقعة ، فاذا فيها بعد البسملة : « دخلت ، يا امير المؤمنين ، بستانا عمرته بنعمتك ، وقد أينعت أثاره وفاكهته . فأخذت من كل شيء (وعدد انواعاً من الفاكهة) وصيرته في اطباق القضبان ووجهته لأمير المؤمنين ، ليصل الي من بركة دعائه ، ما وصل إلي من بره ونعمائه » .

قلت : يا أمير المؤمنين ، وما في هذا يقتضي هذا السرور ؟

وكانت الجفاة من العرب بسوء ادبها وغلظ تركيبها ـ اذا اتوا النبي (صلى الله عليه وسلم) ـ خاطبوه ودعوه باسمه وكنيته. فاما اصحابه، فكانت مخاطبتهم اياه : « يا رسول الله » و « يا نبي الله »

وهكذا يجب للملوك ان يقال في مخاطبتهم : يا خليفة الله [1] ويا

فقال ألا ترى الى ظرفه ، كيف قال : « القضبان » فكنى به عن الخيزران ؛ إذ كان يجري به اسم امنا .

(١) لم يرض أبو بكر الصديق بأن يسمى خليفة رسول الله (كما في لسان العرب) عن أن يسمى خليفة الله . ولكن الكتاب والشعراء جرى اصطلاحهم على خلاف ذلك .

قال الزجاج : جاز أن يقال للأئمة « خلفاء الله في أرضه » بقوله تعالى : « يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ » (لسان العرب)

وقال جرير : « خليفة الله ماذا تأمرن بنا ؟ »

وقال ايضاً : « خليفة الله يستسقى به المطر » . وقال بشار (وإن كان من باب التهكم) :

ضاعتْ خلافتكم ، يا قومِ ، فالتمسُوا
خليفةَ اللهِ بينَ الرقِّ والعُودِ

وقد قال صاحب محاضرة الاوائل إن المعتصم بن الرشيد هو أول من تلقب

امين الله[1] ويا امير المؤمنين[2]

بخليفة الله . فلعل ذلك كان بصفة رسمية في المكاتبات الصادرة عن ديوانه . والا فقد رأينا من الاشعار السابقة أن هذا اللقب كان موجوداً فعلاً .

(١) قال حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان .

إِنّي رأيتُ أَمينَ ٱللهِ مُضطَهَداً عثمانَ رهناً لدى ٱلاجداثِ والكَفَنِ

(٢) قال في « محاسن الملوك » بهذه المناسبة (ص ٢٥ — ٢٧) ما نصه :

« وانما يتسامح بذلك للشعراء . وما زالت الشعراء يمدحون الملوك بأسمائهم ، ولا ينكر ذلك عليهم . كقول الشاعر ، وهو حسان :

هَجَوْتَ محمَّداً فَأَجبْتُ عنه وعِندَ ٱللهِ في ذاكَ ٱلجزاءُ

وكقول المرأة تخاطبه :

أَمحمدُ ولَدَتْكَ ضِنْءُ كريمةٍ في قومها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ

روي انه قدم رجل من الاعراب على عمر رضي الله عنه ومعه صبية له واهله ، فقال يخاطبه :

يا عُمَرَ ٱلخيرِ جُزِيتَ ٱلجَنَّهْ أُكسُ بُنَيَّاتي وأُمَّهُنَّهْ

اقسم بالله لَتفعلَنَّهْ

الادب في حالة مشابهة الاسم

لاحدى صفات الملك او لاسمه

ومن حق الملك ، اذا دخل عليه رجل ، وكان اسم ذلك الرجل الداخل احد صفات الملك ، فسأله الملك عن اسمه ، ان يكني عنه ويجيب باسم ابيه . كما فعل سعيد بن مرة الكندي ، حين اتى معاوية فقال له : انت سعيد ؟

فقال عمر : يكون ماذا ؟ فقال :

يكون عَن حالِي لَتَسْأَلَنَّهْ

فقال عمر : متى ؟ قال :

يومَ تكون الأَعطيَاتُ جُنَّهْ   والواقفُ المسؤولُ يَبْهَتُهْ

إمّا إلَى نار وإمّا جَنَّهْ

فنبذ عمر رضي الله عنه قميصه ، وقال : هذا جنة ذلك اليوم !

فقال : امير المؤمنين السعيد ، وانا ابن مرة [1] !

وكما قال السيد بن انس الازدي [2] — وقد سأله المأمون عن اسمه — فقال : انت السيد ؟

قال : امير المؤمنين السيد ، وانا ابن انس [3]

واما من سوى الشعراء ، فليقل : ايها الخليفة ! أو يا أمير المؤمنين ! او يا سلطان العالم ! أو يا أمين الله أو يا أمير المسلمين !

قال المغيرة لعمر رضي الله عنهما : يا خليفة الله !

فقال له عمر : ذاك نبي الله داود ! قال : يا خليفة رسول الله !

قال : ذاك صاحبكم المفقود ! قال : يا خليفة خليفة رسول الله !

قال : ذاك أمر يطول !

قال يا عمر !

قال : لا تبخس مقامي شرفه ! انتم المؤمنون ، وأنا أميركم .

فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين ! »

( ) روى ذلك صاحب « محاسن الملوك » (ص ٢٨) ، ورواها في « المحاسن والاضداد » (ص ٢١) وفي « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٠)

(٢) أنظر المحادثة بعبارة أخرى في محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧) .

(٣) أنظر رواية أخرى في محاضراف الراغب (ج ١ ص ١١٧) ؛ وانظر « المحاسن والاضداد » (ص ٢١) و « المحاسن والمساوىء » (ص ٤٩٠) .

وهكذا جاءنا الخبر عن العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصنو ابيه . قيل له : انت اكبر ام رسول الله ؟

فقال : هو اكبر مني ، وولدت انا قبله

الا تراه (رحمه الله) كيف تخلص الى احسن الاحوال في الادب فاستعمله [1] ؟

---

(١) ومما يدخل في هذا الباب ما حكاه ياقوت الحموي في معجم الادباء أن « أبا زيد البلخي لما دخل على احمد بن سهل – أول دخوله عليه – سأله عن إسمه . فقال : أبو زيد.

فعجب أحمد بن سهل من ذلك حين سأله عن إسمه فأجاب عن كنيته ، وعد ذلك من سقاطته .

فلما خرج ، ترك خاتمه في مجلسه عنده . فأبصره أحمد بن سهل ، فازداد تعجباً من غفلته . فأخذه بيده ونظر في نقش فصه ، فاذا عليه : أحمد بن سهل .

فعلم حينئذ أنه أجاب عن كنيته للموافقة الواقعة بينه وبين اسمه ، وانه أخذ بحسن الادب وراعى حد الاحتشام ، واختار وصمة التزام الخطإ في الوقت والحال . على ان يتعاطى إسم الامير بالاستعمال والابتذال . »

وروى ابن عبد ربه (ج ١ ص ٢٧٣) في هذا المعنى ايضاً انه قيل لابي وائل : ايكما اكبر ، أنت أم الربيع بن خيثم ؟

قال : أنا أكبر منه سناً ، وهو أكبر مني عقلاً .

وعلى هذا المثال يجب ان تكون مخاطبة الملوك ، اذ كانت صيغتهم غير صيغ العامة [1] ، كما قال اردشير بن بابك في عهده الى الملوك .

وقال معاوية لأبي الجهم العدوي : انا اكبر ام انت ؟
فقال لقد أكلت في عرس أمك ، يا أمير المؤمنين .
قال عند اي ازواجها ؟
قال : عند حفص بن المغيرة .
قال : يا أبا الجهم ، إياك والسلطان ! فانه يغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الاسد . (ابن عبد ربه ج ١ ص ١٢) .
قال الحجاج للمهلب : انا اطول ام انت ؟
فقال : الامير أطول ، وانا ابسط قامة منه . (المحاسن والاضداد ص ٢٢ ، والمحاسن والمساوىء ص ٤٩٠)
وكان الاولى به ان يقتدي بطويس المغني المشهور فقد سأله سعيد بن عثمان بن عفان : أينا اسن ؟
فقال : « بأبي وامي انت ! لقد شهدت زفاف امك المباركة الى ابيك الطيب . » لئلا يوهم امراً . (ابن عبد ربه ج ١ ص ٢٧٣ ؛ ومحاضرات الراغب ج ١ ص ٢٧٣) .
اورد الجاحظ قبل غيره هذه الحكاية وعلق عليها تعليقاً لطيفاً، فقال : فانظر الى حذقه والى معرفته بمخارج الكلام ! كيف لم يقل « بزفاف امك الطيبة الى ابيك المبارك » (انظر البيان والتبيين)

(١) في نسخة : « كانت صنيعهم غير صنيع العامة . »

الامور التي ينفرد بها الملك في عاصمته

ومن حق الملك ان ينفرد في قرار داره بثلاثة اشياء ، فلا يطمع طامع في ان يشركه فيها .

فمنها الحجامة ، والفصد ، وشرب الدواء . فليس لاحد من الخاصة والعامة ممن في قصبة دار المملكة ان يشركه في ذلك .

وكانت ملوك الاعاجم تمنع من هذا وتعاقب عليه وتقول : « اذا اراق الملك دمه، فليس لاحد ان يريق دمه في ذلك اليوم حتى يساوي الملك في فعله ؛ بل على الخاصة والعامة الفحص عن امر الملك ، والتشاغل بطلب سلامته ، وظهور عافيته ، وكيف وجد عاقبة ما يعالج به . »

وليس الاقتفاء بفعل الملك في هذا وما اشبهه من فعل من تمت طاعته وصحت نيته وحسنت معونته ، لان في ذلك استهانة بامر الملك والمملكة .

ومن قصد الى ان يشرك الملك في شيء يجد عنه مندوحة ومنه

بدأ، بالمهل المبسوطة والايام الممدودة ، فهو عاص مفارق للشريعة .

ويقال ان كسرى انو شروان كان اكثر ما يحتجم في يوم السبت .
وكان المنادي ـ اذا اصبح في كل يوم سبت ـ نادى : « يا اهل الطاعة ليكن منكم ترك الحجامة في هذا اليوم على ذكر ويا حجامون اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغسل ثيابكم »

و كذا كان يفعل في يوم فصد العرق واخذ الدواء .

عدم تشميت الملك

وعدم التأمين على دعائه

ومن حق الملك ـ اذا عطس ـ ان لا يُشَمَّت ، واذا دعا . لم يُؤَمَّنْ على دعائه .

وكانت ملوك الاعاجم تقول : « حقيق على الملك الصالح ان يدعو للرعية الصالحة ، وليس بحقيق للرعية الصالحة ان تدعو الملك الصالح : لان اقرب الدعاء الى الله دعاء الملك الصالح . »

عدم تعزية الملك

ومن حق الملك ان لا يعزيه احد من حاشيته وحامته واهل بيته وقرابته. وانما جعلت التعزية لمن غاب عن المصيبة، او لمن قارب الملك في العز والسلطان والبهاء والقدرة [1]. فاما من دون هؤلاء، فينهون عن التعزية اشد النهي.

وفيما يذكر عن عبد الملك بن مروان انه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزاه، فقال: يا بني! مصيبتي فيك اقدح في بدني من مصيبتي بأخيك ومتى رأيت ابنا عزى اباه؟

قال: يا امير المؤمنين امي امرتني بذلك.

قال: ذاك يا بني اهون علي وهذا لعمرى من مشورة النساء [2]

---

(١) في نسخة: والقرابة.

(٢) روى صاحب «المحاسن والمساويء» هذه القصة (ص ٥٨٥ - ٥٨٦) ورواها صاحب «محاسن الملوك» (ص ٣٤) وختمها بأن عبد الملك قال لابنه: «والله لتعزيتك إياي اهون علي من قبولك مشورة النساء!» [وهي احسن من روايتنا.] ثم اضاف على ذلك ان «يزيد بن معاوية وعمر بن عبد العزيز وغيرهما من ملوك الاسلام لا يرون بذلك بأساً.»

سرعة الغضب وبطء الرضا

ومن اخلاق الملك سرعة الغضب ، وليس من اخلاقه سرعة الرضا

فاما سرعة الغضب ، فانما تأتي الملك من جهة دوام الطاعة . وذلك لانه لا يدور في سمعه ما يكره في طول عمره . فاذا الفت النفس هذا العز الدائم ، صار احد صفاتها . فمتى قرع حس النفس ما لا تعرفه في خلقها ، نفرت منه نفورا سريعاً ، فظهر الغضب ، أَنَفَةً وحَمِيَّةً .

واما رضا الملك فبطيء جداً . لانه شيء تمانعه النفس ان يفعله ، وتدفعه عن نفسها . اذ كان في ذلك جنس من اجناس الاستخذاء ، وخُلُقٌ من اخلاق العامة .

غضب السفاح على احد رجاله

وهكذا يحكى عن ابي العباس انه غضب على رجل ذهب عني اسمه ، فذكره ليلة من الليالي . فقال له بعض سماره : يا امير المؤمنين

فلان لو رآه اعدى خلق الله له، لرحمه وانعصر له قلبه [1]. قال: ولم ذاك؟ قال: لغضب امير المؤمنين عليه. قال: ما له من الذنب ما يبلغ به من العقوبة هذا الموضع. قال: ثن عليه، يا امير المؤمنين برضاك. قال: ما هذا وقت ذاك! قال: قلت انك يا امير المؤمنين لما صغَّرتَ ذنبه، طمعت في رضاك عنه. قال: انه من لم يكن بين غضبه ورضاه مدة طويلة، لم يحسن ان يغضب ولا يرضى.

وعلى هذا اخلاق الملوك وصنيعهم.

---

(١) يقال في اللغة عصر العنب ونحوه فانعصر. وفي المفضليات:
ومن شواهد النحاة:

وَهِيَ لَوْ يُعْصَرُ مِنْ أَرْدَانِهَا   عَبَقُ ٱلْمِسْكِ، لَكَانَتْ تَنْعَصِرْ

خَوْدٌ يُغَطِّي ٱلْفَرْعُ منها ٱلْمُؤْتَزَرْ

لَوْ عُصِرَ منها ٱلْبَانُ وَٱلْمِسْكُ، ٱنْعَصَرْ

وكنى الجاحظ بانعصار القلب عن شدة الالم لحال الرجل. ومن مجاز الاساس: «انا معصور اللسان» اي يابسه عطشاً.

غضب الرشيد على احد قواده

و كذا جرى لعبد الله بن مالك الخزاعي مع الرشيد ، حين غضب عليه . امر اهله وحشمه وجميع قرابته ان يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتى اثر ذلك في نفسه وبدنه. فتحاماه اقرب الناس منه من ولد واهل ، فلم يدن منه احد ولم يطف به. فجاءه محمد بن ابراهيم الهاشمي ـ وهو كان احد اودائه ـ في جوف الليل ، فقال له : يا ابا العباس ! ان لك عندي يدا لا انساها ومعروفا ما اكفره . وقد علمت ما تقدم به امير المؤمنين في امرك . وها انذا بين يديك ونصب[1] عينيك ؟ فرني بأمرك ؟ فوالله لاجعلن نفسي وقاية نفسك ،واسوقها في كل ما نكأها[2] او جرحها[3] .

فقال له عبد الله خيرا ، واثنى عليه ، واخبره بعذره في موجدة امير المؤمنين عليه .

فوعده محمد ان يكلم امير المؤمنين ويخبره باعتذاره فلما اصبح محمد

---

(١) اكثر العرب على ضم النون ، كما في شفاء الغليل .

(٢) أوجب وقوع النكاية بها .

(٣) اصابها بجراحة

وافاه رسول امير المؤمنين ، فركب . فلما دخل عليه ، قال : من اتيت في هذه الليلة ؟

قال : عبدك يا امير المؤمنين ، عبد الله بن مالك ، وهو يحلف بطلاق نسائه وعتق مماليكه وصدقة ماله مع عشرين نذرا يهديها الى بيت الله الحرام حافيا راجلا ، والبراءة من ولاية امير المؤمنين ان كان ما بلغ امير المؤمنين سمِعه الله من عبد الله بن مالك ، او اطلع عليه او هم به أو أضمره أو أظهره .

قال : فاطرق الرشيد مليا مفكراً . وجعل محمد يلحظه ، ووجهه يسفر ويشرق حتى زال ما وجده . وكان قد حال لونه حين دخل عليه . ثم رفع رأسه فقال : احسبه صادقاً ، يامحمد . فمره بالرواح الى الباب .

قال : وأكون معه يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم .

فانصرف محمد الى عبد الله ، فبشره بجميل امره ، وامره بالركوب رواحاً . فدخلا جميعا ، فلما بصر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القبلة فخر ساجدا ، ثم رفع رأسه فاستدناه الرشيد . فدنا وعيناه

تهملان . فأكب عليه فقبل رجله وبساطه وموطىء قدميه ، ثم طلب ان يأذن له في الاعتذار . فقال : ما بك حاجة الى ان تعتذر ، اذ عرفت عذرك .

قال : فكان عبد الله بعد ، اذا دخل على الرشيد ، رأى فيه بعض الاعراض والانقباض . فشكا ذلك الى محمد بن ابراهيم . فقال محمد : يا امير المؤمنين ؟ ان عبدالله يشكو أثرا باقيا من تلك النبوة التي كانت من امير المؤمنين ، ويسأل الزيادة في بسطه له . فقال الرشيد : يا محمد ؟ انا معشر الملوك ، اذا غضبنا على احد من بطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك ، بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجه ليل ولا نهار [1] .

كتم الملك اسراره

ومن حق الملك ان يكتم اسراره عن الاب والام والاخ

---

(١) نقل هذه القصة في « المحاسن والمساوىء » (ص ٥٤٢ و ٥٤٣) .

والزوجة والصديق . فان الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف [1] ، ولا يحتمل ثلاثة : صفة احدهم ان يطعن في ملكه ، وصفة الآخر ان يذيع اسراره ، وصفة الآخر ان يخونه في حرمه [2] .

فاما من وراء ذلك ، فمن اخلاق الملوك ان تلبس خاصتها ومن قرب منها على ما فيهم ، وان تستمع منهم اذا سلموا من هذه الصفات الثلاث .

وكان كسرى ابرويز يقول : (يجب على الملك السعيد ان يجعل همه كله في امتحان اهل هذه الصفات ، اذ كانت اركان الملك ودعائمه [3]) .

امتحان ابرويز رجاله في حفظ السر

فكانت محنته في اذاعة السر عجيبة . وللقائل ان يقول فيها

---

(١) اي الوجل المكروه .

(٢) قارن ذلك بما في محاضرات الراغب . (ج ١ ص ١١٨) . وهذه المقولة منسوبة بلفظ آخر لابي جعفر المنصور العباسي . (انظرها في المحاسن والاضداد ص ٢٨ ، والمحاسن والمساوىء ص ٤٠٢) .

(٣) في « محاسن الملوك » (ص ٥٤) ما نصه : واما كتمان سر السلطان فهو

انها خارجة من باب العدل ، داخلة في باب الظلم والجور ، وللآخر أن يقول انها مِحَنُ الحكماء من الملوك .

وكان اذا عرف من رجلين من بطانته وخاصته التحاب والالفة والاتفاق في كل شيء وعلى كل شيء ، خلا باحدهما فافضى اليه بسر في الآخر ، واعلمه انه عازم على قتله ، وامره بكتمان ذلك عن نفسه ، فضلا عن غيره . وتقدم اليه في ذلك بوعيده . ثم جعل محنته في اذاعة سره ملاحظة صديقه في دخوله عليه وخروجه من عنده ، وفي اسفار وجهه ولقائه للملك . فان وجد آخر امره كأوله في احواله علم ان الآخر لم يفض اليه بسره ولم يظهره عليه ، فقربه واجتباه ورفع مرتبته وحباه .

ثم خلا به ، فقال : « اني كنت أردت قتل فلان لشيء بلغني عنه . فبحثت عن امره فوجدته باطلا [1] » .

ملاك الامر ونظام المملكة وسبب بقاء الدولة . كان أبرويز اذا دخل اليه وزيره وصاحب سره ، لم يفاوضه في شيء حتى لا يبقى عنده احد . فاذا لم يبق احد ، امر ان ترفع الستائر عمن لعله يكون وراءها . فاذا علم انه ليس احد وراءها ، فاوضه بسره .

(١) روى صاحب « محاسن الملوك » هذه العبارة باختصار . (ص ٥٤ — ٥٥)

وان رأى من صاحبه نفور نفس وازورار جانب واعراض وجه، علم انه قد اذاع سره، فاقصاه واطرحه وجفاه، واخبر صاحبه انه اراد محنته بما اودعه من سره. فان كان هذا من اهل المراتب، وضع مرتبته، وان كان من الندماء، امر ان يحجب عنه، وان كان من اصحاب الاموال، امر ان (لا) يستعان به، وان كان من سدنة بيوت النيران، امر بعزله واسقاط ارزاقه. ويقول: «من لم يصلح لملكه، لا يصلح لنفسه، فلا خير عنده.» ويقول: «ان القلب اعدل على القلب من شهادة اللسان، وقل شيء يكون في القاب الا ظهر في العينين [1]: اذ كانت الاعضاء مشتركة يتعلق بعضها ببعض.»

امتحانه لرجاله في حفظ الحرم

فاما محنته في الحرم، فكان اذا خشي الرجل على قلبه وقرب من نفسه، وكان عالماً يظهر التأله، وكان عنده ممن يصلح للامانة في الدماء والفروج والاموال على ظاهره، احب ان يمتحنه بمحنة باطنة

(٢) في نسخة: ان القلب ليظهر ما فيه في العينين.

فيأمر به ان يحول الى قصره ويفرغ له بعض الحجر التي تقرب منه ، ولا يحول اليها امرأة ولا جارية ولا حرمة ويقول له : اني احب الانس بك في ليلي ونهاري . ومتى كان معك بعض حرمك ، قطعك عني وقطعني عنك . فاجعل منصرفك الى منزل نسائك في كل خمس ليال ليلة . » فاذا تحول الرجل وخلا به وآنسه وكان آخر من ينصرف من عنده ، فيتركه على هذه الحال اشهراً .

فامتحن رجلاً من خاصته بهذه المحنة في الحرم ، ثم دس اليه جارية من خواص جواريه ووجه معها اليه بالطاف وهدايا . وامرها ان لا تقعد عنده في اول ما تأتيه . فلما اتته بالطاف الملك ، قامت . فلم تلبث ان انصرفت . حتى اذا كانت المرة الثانية ، امرها ان تقعد هنيهة وان تبدي بعض محاسنها ، حتى يتأملها . ففعلت ولاحظها الرجل وتأملها ثم انصرفت . فلما كانت المرة الثالثة ، امرها ان تقعد عنده وتطيل القعود وتحادثه وان ارادها على الزيادة من المحادثه اجابته . ففعلت . وجعل الرجل يحد النظر اليها ويسر بحديثها . ومن شأن النفس ان تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة . فلما ابدى ما عنده ، قالت : « اني اخاف ان يعثر علينا ، ولكن دعني ادبر في هذا ما يتم

به امرنا . » ثم انصرفت . فاخبرت الملك بكل ما دار بينهما . فوجه اخرى من خاص جواريه وثقاتهن بالطافه وهداياه . فلما جاءته ، قال لها : ما فعلت فلانه ؟ قالت : اعتلت . فاربد لون [1] الرجل . ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الاولى في المرة الاولى . ثم عاودته بعد ذلك ، فقعدت اكثر من المقدار الاول ، وابدت بعض محاسنها حتى تأملها . وعاودته في المرة الثالثة ، فاطالت عنده القعود والمضاحكة والمهازلة . فدعاها الى ما في تركيب النفس من الشهوة . فقالت : « انا من الملك على خطى يسيرة ، ومعه في دار واحدة ، ولكن الملك يمضي بعد ثلاث الى بستانه الذي بموضع كذا ، فيقيم هناك . فان ارادك على الذهاب معه ، فأظهر انك عليل ، وتمارض . فان خيرك بين الانصراف الى دور نسائك او المقام ههنا الى رجوعه ، فاختر المقام واخبره ان الحركة تصعب عليك . فاذا اجابك الى ذلك ، جئت في اول الليل ولبثت عندك الى آخره » فسكن الرقيع [2] الى هذه الانسة وانصرفت الجارية الى الملك فاخبرته بكل ما دار بينها وبينه .

---

(١) اي علت الغبرة لونه .

(٢) الرقيع والمرقعان الاحمق وهو الذي في عقله مرمة (صحاح) معناها هنا الاحتياج الى الترقيع والترميم . (انظر لسان العرب ج ٩ ص ٤٩١)

فلما كان الوقت الذي وعدته ان يخرج الملك فيه، دعاه الملك. فقال للرسول اخبره اني عليل. فلما جاءه الرسول واخبره، تبسم ابرويز، وقال: هذا اول الشر. فوجه اليه بمحفة، فحمل فيها حتى اتاه، وهو معصب الرأس. فلما بصر به من بعيد، قال: والعصابة الشر الثاني، وتبسم. فلما دنا من الملك، سجد. فقال له ابرويز: متى حدثت بك هذه العلة؟ قال: في هذه الليلة. قال: فاي الامرين احب اليك؟ الانصراف الى منزلك ونسائك ليمرضنك او المقام ههنا الى وقت رجوعي؟ قال: ههنا ايها الملك ارفق بي، لقلة الحركة. فتبسم ابرويز، وقال: ما صدقت! حركتك ههنا، ان خلفتك، اكثر من حركتك في منزلك.

ثم امر ان تخرج له عصا الزناة التي كان يوسم بها من زنى. فايقن الرجل بالشر. وامر ان يكتب ما كان من امره حرفاً حرفاً، فيقرأ على الناس اذا حضروا، وان ينفى الى اقصي حد المملكة، ويجعل العصا في رأس رمح تكون معه حيث كان، ليحذر منه من لا يعرفه فلما اخرج بالرجل عن المداين، متوجها به نحو فارس اخذ مدية كانت مع بعض الاعوان الذين وكلوا به، فجب بها ذكره، وقال: من

اطاع عضواً من اعضائه صغيراً ، افسد عليه اعضاءه كلها ، صغارها وكبارها . فمات من ساعته [1] .

امتحانه فيمن يطعن في المملكة

وكان قد نصب رجلا يمتحن بـه من فسدت نيته وطعن في المملكة . فكان الرجل يظهر التأله والدعاء الى التخلي من الدنيـا والرغبـة في الا خرة وترك ابواب الملوك . وكان يقص على الناس ويبكيهم ويشوب في خلال ذلك كلامه بالتعريض بذم الملك وتركه شرائع ملته وسنن دينه ونواميس آبائه .

وكان هذا الرجل الذي نصبه لهذا اخاه من الرضاعة وتربه في الصبا . فكان اذا تكلم هذا الرجل بهذا الذي قد مثله له ابرويز وامره به ليمتحن بذلك خاصته ، اخبر به . فيضحك لذلك ابرويز، ويقول : « فلان في عقله ضعف ، وانا اعلم به . وان كان كذلك فانه لا يقصدني بسوء ، ولا المملكة بما يوهنها » . فيظهر الاستهانة بامره والثقة من الطمأنينة اليه .

---

(١) روى هذه القصة في « المحاسن والاضداد » (ص ٢٧٥ - ٢٧٧)

ثم يوجه في خلال ذلك من يدعوه اليه ، فيأبى ان يجيبه ، ويقول : لا ينبغي لمن يخاف الله ان يخاف احدا سواه . فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلوة بهذا الرجل في الزيارة له والانس به . فاذا خلوا ، تذاكرا امر الملك ، وابتدأ الناسك يطعن على الملك وفي صلب المملكة . فاعانه الخائن وطابقه على ذلك وشايعه عليه ، فيقول له الناسك : « اياك ان تظهر هذا الجبار [1] على كلامك ! فانه لا يحتمل لك ما يحتمله لي فحصن منه دمك ! » فيزداد الآخر اليه استنامة وبه ثقة .

فاذا علم الناسك انه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به القتل في الشريعة ، قال له : اني عاقد غداً مجلساً للناس اقص عليهم فاحضره فانك رجل رقيق القلب عند الذكر ، حسن النية ، ساكن الريح ، بعيد الصوت . وان الناس اذا رأوك قد حضرت مجلسي ، زادت نياتهم خيراً ، وسارعوا الى استجابتي . فيقول له الرجل : اني اخاف هذا الجبار ، فلا تذكره ان حضرت مجالسك .

---

(١) في نسخة الخائن .

وكانت العلامـة فيما بينه وبين ابرويز ان ينصرف الرجل عن مجلس الناسك ، اذا ابتدأ في قصة الملك . وكان ابرويز قد وضع عيونا تحضر مجلس الناسك ، متى جلس .

فبكر الناسك وقص على العامة وزهد في الدنيا ورغب في الآخرة . وحضره الرجل الخائن . فلما فرغ من قصصه واخذ في ذكر الملك ، نهض الرجل وجاءت عيون ابرويز فاخبرته بما كان . فاذ زال عنه الشك في امره ، وجهه الى بعض البلدان وكتب الى عامله : « قد وجهت اليك رجلا وهو قادم عليك بعد كتابي هذا في كذا وكذا . فاظهر بره والانس به والثقة بناحيته . فاذا اطمأنت به الدار فاقتله قتلة تحيي بها بيت النار ، وتصل بها حرمة النوبهار [1] . فانه

(١) هو بيت من بيوت النار بناه الفرس بمدينة بلخ على مثال البيت الحرام بمكة . وعنه شرح واف في ياقوت (في حرف النون) وفي المسعودي (جزء ٤ ص ٤٧ - ٤٩ طبع باريس) وفي « مراصد الاطلاع » (في حرف النون) وفي القزويني (ص ٢٢١) وفي « كتاب البلدان » للهمداني (ص ١٥٧ و ٣٢٢ - ٣٢٤) « وشفاء الغليل » (ص ٢٠٣) .

من فسدت نيته لغير علة في الخاصة والعامة ، لم يصلح بعلة[1] » .

تغافل الملك عن الصغائر

ومن اخلاق الملك التغافل عما لا يقدح في الملك ولا يجرح المال ولا يضع من العز ، ويزيد في الابهة .

وعلى ذلك كانت شيم ملوك آل ساسان .

تغافل بهرام جور عن سرقة اللجام

وفيما يحكى عن بهرام جور انه خرج يوما لطلب الصيد فعار[2]

---

(٢) وقد اورد هـذه الحكاية صاحب « تنبيه الملوك » (ص ٤١ – ٤٢) ، ولخصها جدا صاحب « محاسن الملوك » (ص ٤٥) ، واوردها بالحرف تقريبا في « المحاسن والمساوىء » (ص ١٥٥ – ١٥٧) .

(١) عار الفرس اي ذهب هاهنا وهاهنا ، وذهب على وجهه كأنه منفلت .

به فرسه حتى وقع الى راع تحت شجرة ، وهو حـاقن [1] . فقال للراعي : احفظ على عنان دابتي ، حتى ابول . فاخذ بركابه حتى نزل ، وامسك عنان الفرس . وكان لجامه ملبساً ذهباً ، فوجد الراعي غفلة من بهرام فاخرج من خفه سكيناً فقطع بعض اطراف اللجام . فرفع بهرام رأسه فنظر اليه فاستحيا ، ورمى بطرفـه الى الارض واطال الاستبراء ليأخذ الراعي حاجته من اللجام . وجعل الراعي يفرح بابطائه عنه ، حتى اذا ظن انه قد اخذ حاجته من اللجام ، قام فقال : يا راعي ! قدم الي فرسي ، فانه قد دخل في عيني مما في هذه الريح ، فما اقدر على فتحها . وغمض عينيه لئلا يوهمه انه يتفقد حلية اللجام . فقرب الراعي فرسه فركبه . فلما ولى ، قال له الراعي : ايها العظيم ! كيف آخذ الى موضع كذا كذا ؟ (لموضع بعيد) . قال بهرام : وما سؤالك عن هذا الموضع ؟ قال : هناك منزلي ، وما وطئت هذه الناحية قط غير يومي هذا ، ولا اراني اعود اليه ثانية . فضحك

---

(١) اي اجتمع البول فيه . فهو في حاجة الى تصريفه . ومنه الحديث : « لا رأي لحاقب ولا لحاقن » اي لمن تشتد به الحاجة للاخراج من احـد السبيلين ويكون مضطراً لحبسها .

بهرام ، وفطن لما اراد . فقال : انا رجل مسافر وانا احق بان لا اعود الى هاهنا ابدا . ثم مضى . فلما نزل عن فرسه قال لصاحب دوابه ومراكبه : ان معاليق اللجام قد وهبتها لسائل مر بي ، فلا تتهمن بها احد[1] .

تغافل انو شروان عن سرقة اللجام

وهكذا يحكى عن انو شروان انه قعد ذات يوم في نيروز او مهرجان[2] ، ووضعت الموائد ، ودخل وجوه الناس الايوان على طبقاتهم ومراتبهم . وقام الموكلون بالموائد على رؤوس الناس ، وكسرى بحيث يراهم . فلما فرغ الناس من الطعام ، جاؤوا بالشراب في آنية الفضة وجامات الذهب . فشرب الاساورة واهل الطبقة العالية

(١) روى هذه الحكاية بحرفها في « المحاسن والمساوىء » (ص ٥٠٥ - ٥٠٦) .

(٢) هذه الكلمة بفتح الميم وبكسرها ، والفتح اشهر ، كما يدل عليه المعجم الفارسي الانكليزي لرتشارد صن . وضبطها ياقوت بالكسر (ج ٤ ص ٦٦٨) .

في آنية الذهب . فلما انصرف الناس ورفعت الموائد ، اخذ بعض القوم جام ذهب فاخفاه في قبائه [1] ، وانو شروان يلحظه . فصرف وجهه عنه . وافتقد صاحب الشراب الجام ، فصاح لا يخرجن احد من الدار حتى يفتش . فقال كسرى : لا تتعرض لاحد ! واذن للناس فانصرفوا . فقال صاحب الشراب : ايها الملك ! اناقد فقدنا بعض آنية الذهب . فقال الملك : صدقت ! قد اخذها من لا يردها عليك ، وقد رآه من لا ينم عليه . فانصرف الرجل بالجام

تغافل معاوية عن كيس الدنانير

وهكذا فعل معاوية بن ابي سفيان في يوم عيد ، وقد قعد للناس ، ووضعت الموائد ، وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصلات . فجاء

(١) انظر الفصل الطويل المفيد المشحون بالاسانيد الذي اورده العلامة دوزي الهولندي على هذه الكلمة في معجم الثياب عند العرب (ص ٣٥٢ - ٣٦٤) وقد قال في آخره ان الهولنديين اخذوا هذا اللفظ عن (قباي) في اللسان الفارسي فنقلوه الى لغتهم للدلالة على الثوب الذي يسميه الفرنسيون « روب دي شامبر »

رجل من الجماعة ، والناس يأكلون ، فقعد على كيس فيه دنانير . فصاح به الخدم تنح ، فليس هذا بموضع لك ! فسمع معاوية ، فقال : دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس . فاخذ كيسا فوضعه بين بطنه وحجزة[1] سراويله ، وقام . فلم يجسر احد ان يدنو منه . فقال الخادم : اصلح الله امير المؤمنين انه قد نقص من المال كيس دنانير فقال : انا صاحبه ، وهو محسوب لك .

وهذه اخلاق الملوك معروفة في سيرهم و كتبهم .

وانما يتفقد مثل هذا من هو دون الملك . فاما الملك ، فيجل عن كل شيء ، ويصغر عنده كل شيء .

الرد على قولهم :

المغبون لا محمود ولا مأجور

والعامة تضع هذا وما اشبهه في غير موضعه . وانما هو شيء القاه الشيطان في قلوبهم واجراه على السنتهم ، حتى قالوا في نحو من هذا

(١) موضع التكة من السراويل .

في البائع والمشتري : « المغبون لا محمود ولا مأجور » . فحملوا الجهلة على المنازعة للباعة ، والمشاتمة للسفلة والسوقة ، والمقاذفة للرعاع والوضعاء ، والنظر في قيمة حبة ، والاطلاع في لسان الميزان ، وأخذ المعايير [1] بالايدي .

وبالحرى ان يكون المغبون محموداً ومأجوراً . اللهم الا ان يكون قال له : اغبني . بل لو قالها ، كانت اكرومة وفضيلة ، وفعلة جميلة تدل على كرم عنصر القائل وطيب مركبه .

ولذلك قالت العرب : « السرور التغافل [2] »

وانت لا تجد ابداً احداً يتغافل عن ماله اذا خرج ، وعن [3]

---

(١) جمع معيار .

(٢) في نسخة : « السر والتغافل » . ومن المأثور عن السفاح قوله : « التغافل من سجايا الكرام » . (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٥) .

واشاعرهم :

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي .

(٣) في الاصل : ولا عن .

مبـايعته اذا غبن ، وعن التقصي اذا بخس الا وجدت له في قلبك فضيلة وجلالة ما تقدر على دفعها .

و كذا ادبنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) فقـال : « يرحم الله سهل الشراء سهل البيع سهل القضاء سهل التقاضي [1] »

وهذا الادب خارج من قولهم : « المغبون لا محمود ولا مأجور . »

كلمة معاوية

وقال معاوية في نحو من هذا : « اني لاجر ذيلي على الخدائع . »

كلمة الحسن

وقال الحسن (عليه السلام) : « المؤمن لا يكون مكاساً . »

(١) في نسخة : « رحم الله من سهل الشراء وسهل البيع » . والذي رأيته في صحيح البخاري : « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » . (ج ٣ ص ٥٧ ، طبع بولاق سنة ١٣١١)

سليمان بن عبد الملك والاعرابي الذي اخذ رداءه

وفيما يحكى عن سليمان بن عبد الملك انه خرج في حياة ابيه لمنزهة [1]، فبسط له في صحراء، فتغدى مع اصحابه. فلما حان انصرافه، تشاغل غلمانه بالترحال، وجاء اعرابي فوجد منهم غفلة، فاخذ دواج [2] سليمان فرمى به على عاتقه، وسليمان ينظر اليه. فبصر به بعض حشمه، فصاح به: الق ما عليك! فقال الاعرابي: «لا عمري لا القيه ولا كرامة هذا كسوة الامير وخلعته». فضحك سليمان وقال: صدق انا كسوته. فمر كأنه اعصار الريح.

جعفر بن سليمان وسارق الدرة

واحسن من هذا ما فعله جعفر بن سليمان بن علي بالامس، وقد

(١) في نسخة: لمنتزهه.

(٢) الدواج هو اللحاف الذي يلبس. ولعله شبيه بالملحفة المسماة الآن بالمضربية وانظر ما كتبه عليه دوزي في قاموس الثياب (ص ١٨٦) وليس فيه تفصيل بشرح المعنى. قال في مطالع البدور: وجد لام المعتز ثلاثة دواويج كانت تستعملهن فقوم الدواج بأكثر من الف دينار (ج ١ ص ٦٠).

عثر برجل سرق درة رائعة ، اخذها من بين يديه . فطلبت بعد ايام فلم توجد . فباعها الرجل ببغداد ، وقد كانت وصفت لاصحاب الجوهر . فاخذ وحمل الى جعفر فلما بصر به ، استحيا منه وقال : الم تكن طلبت هذه الدرة مني ، فوهبتها لك ؟ قال : بلى . قال : لا تعرضوا له فباعها بمائتي الف درهم [١] .

اكرام اهل الوفا وشكرهم

ومن اخلاق الملك اكرام اهل الوفاء وبرهم والاستنامة اليهم والثقة بهم والتقدمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادي .

وذلك انه لا يوجد في الانسان فضيلة اكبر ولا اعظم قدراً ولا انبل فعلا من الوفاء . وليس الوفاء شكر اللسان فقط ، لان شكر اللسان ليس على احد منه مؤونة .

---

(١) رواها في «المحاسن والمساوىء» (ص ٥٠٦) .

واسم الوفاء مشتمل على خلال :

فمنها ـ ان يذكر الرجل من انعم عليه ، بحضرة الملك فمن دونه . فان [1] كان الملك فيه سيء الرأي ، فليس من الوفاء ان يعينه على سوء رأيه . فان حاف سوط الملك وسيفه ، فاحسن صفاته ان يمسك عن ذكره بخير او شر .

ومنها ـ المؤاساة للصاحب في المال حتى يقاسمه الدرهم بالدرهم والنعل بالنعل والثوب بالثوب .

ومنها ـ الحفظ له في خلفه وعياله ، ما كان في الدنيا ، حتى يجعلهم اسوة عياله في الجدب والخصب .

ومنها ـ الشكر له باللسان والجوارح .

وكانت ملوك الاعاجم كلها ، اولها وآخرها ، لا تمنع احدا من خاصتها وعامتها شكر من انعم عليها او على احد منها وتقريظه وذكر

(١) في نسخة : «ان» . وفي نسخة ثانية « وان » (ووضعت حرف الفاء لمنع التشويش في الجملة، والاضطراب في السياق .)

نعمه واحسانه ، وان كانت الشريعة قد قتلته والملك قد سخط عليه . بل كانوا يعرفون فضيلة من ظهر ذلك منه ويأمرون بصلته وتعهده .

قباذ ومادح الجاني على المملكة

ويقال ان قباذ امر بقتل رجل كان من الطاعنين على المملكة . فقتل . فوقف على رأسه رجل كان من جيرانه فقال : « رحمك الله ان كنت – ما علمت – لتكرم الجار وتصبر على اذاه ، وتواسي اهل الحاجة ، وتقوم بالنائبة والعجب كيف وجد الشيطان فيك مساغا حتى حملك على عصيان ملكك ، فخرجت من طاعته المفروضة الى معصيته وقديما ما تمكن ممن هو اشد منك قوة واثبت عزما . » فاخذ الرجل صاحب الشرطة فحبسه . وانتهى كلامه الى قباذ ، فوقع قباذ : يحسن الى هذا الذي شكر احسانا فعل به ؛ وترفع مرتبته ، ويزاد في عطائه .

وهكذا فعل سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة[1] (المخزومي) حين حمل رأس مروان (الجعدي)[2] الى ابي العباس (السفاح) بالكوفة، فعقد له مجلسا وجاءوا بالرأس. فقام سعيد بن عمرو بن جعدة فأكب عليه

---

(١) كان من رجـالات مروان الجعدي، واشترك معه في وقعة الزاب: (الطبري سلسلة ٣ ص ٢٠٤ و ٢٢٤؛ والاغاني ج ١١ ص ٧٥؛ وابن الاثير في حوادث سنة ١٤٥).

(٢) هو آخر خلفاء بني امية بالمشرق.
ولد سنة ٧٢ وقيل سنة ٧٦. تولى لهشام ومن بعده من الخلفـاء الجزيرة وارمينية واذربيجان لغاية سنة ١٢٦. وفي هذه السنة الاخيرة اظهر الخلاف على يزيـد بن الوليد. ثم سار في سنة ١٢٧ الى الشام وحارب سليمان بن هشام ودعا الناس الى مبايعته. وتمت له البيعة بدمشق في تلك السنة وهو الذي سمى يزيد بن الوليد بالناقص. وكانت وفاته بأرض مصر في سنة ١٣٢ هجرية.

وهو المعروف في كتب التاريخ بمروان الفرس، ومروان الحمار، ومروان الجعدي. سماه العباسيون الذين خرجوا عليه وقلبوا دولته بالحمار في نظير تسميته بالفرس. وقيل انه لقب بالحمار لانه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه. كان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحروب. ويقال في المثل. فلان اصبر من حمار في الحروب» فلذلك لقب به). وقيل ان العرب تسمي كل مائة سنة حمارا. (فلما قارب ملك بني امية مائة سنة لقبوا مروان بالحمار لذلك). وربما كان ذلك لقراره على حمار (يدل على ذلك قول رؤبة بن العجاج في مدح السفاح:

قياما طويلا ، ثم قال : هذا رأس ابي عبد الملك [1] ، خليفتنا بالامس

ما زال يأتي الأمرَ من أقطارِهِ عن اليمين وعلى يسارِهِ ،
مُشمِّراً لا يُصطَلى بنارِهِ حتَّى أقرَّ المُلكَ في قرارِهِ
وفرَّ مروانُ على حمارِهِ .)

واما تسميته بالجعدي فنسبة الى اخذه (حين كان واليا على الجزيرة) بتعاليم مؤدبه الجعد بن درهم مولى سويد بن غفلة . وقع هذا الرجل الى الجزيرة فاخذ برأيه جماعة من اهلها . فلما حارب الخراسانيون مروان نسبوا الى الجعد ما راوه من سعة علمه . وكان الناس يذمون مروان بنسبته الى الجعد . وكان الجعد من شيوخ المعتزلة واظهر مقالته بخلق القرآن والقدر والاستطاعة وغير ذلك ايام هشام ومن اقواله : « اذا كان الجماع يتولد منه الولد ، فانا صانع ولدي ومدبره وفاعله ، لا فاعل له غيري ، وانما يقال ان الله خلقه مجازا لا حقيقة » . ومن قوله : « ان كان النظر الذي يوجب المعرفة ، تكون تلك المعرفة فعلا لافاعل لها » . وقيل انه كان زنديقاً . وعظه ميمون بن مهران ، فقال : « للشاه قباذ احب الي مما تدين به ! فقال له مهران : قتلك الله ، وهو قاتلك ! »

انظر الطبري والاغاني و « المحاسن والمساوىء » والفصل في الملل والاهواء والنحل وانساب السمعاني وابن الاثير وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي .

(١) هو كنية مروان الجعدي ، باسم ابنه .

رحمه الله ! فوثب ابو العباس فطعن في حجره [1] . وانصرف ابن جعدة الى منزله ، وتحدث الناس بكلامه . فلامه بنوه وأهله ، وقالوا : عرضتنا ونفسك للبوار فقال : اسكتوا ، قبحكم الله انتم الذين اشاروا علي بالامس بحران بالتخلف عن مروان ، ففعلت في ذلك غير فعل اهل الوفاء والشكر ؟ وما كان ليغسل عني عار تلك الفعلة الا هذه . فانما انا شيخ هامة [2] ، فان نجوت يومي هذا من القتل ، مت غداً . قال : فجعل بنوه يتوقعون رسل ابي العباس ان تطرقه في جوف

---

(١) اي في حضنه .

(٢) تقول العرب : فلان هامة ، اي يصير في قبره . ومنه قول كثير :

فإنْ تَسْلُ عنكِ ٱلنفسُ أَوْ تَدَعِ ٱلهوَى،

فباليأس تسْلو عنكِ ، لا بالتجلُّدِ

وكُلُّ خليلٍ راءني فهْوَ قائِلٌ

مِنَ أَجلِكِ هذا هامَةُ ٱليوم أو غدِ .

يقال فلان هامة اليوم او غد ، اي يموت في يومه او غده . ويقال ذلك للشيخ إذا أسن ، والمريض اذا طالت علته ، والمحتقر لمدة الآجال . وفي الحديث ان أبا

الليل . فاصبحوا ولم يأته احد . وغدا الشيخ فاذا هو بسليم بن مجالد فلما بصر به ، قال : يا ابن جعدة الا ابشرك بجميل رأي امير المؤمنين ؟ انه ذكر في هذه الليلة ما كان منك ، فقال : « والله ما أخرج ذلك الكلام من الشيخ الا الوفاء . ولهو اقرب منا قرابة ، وامس بنا رحما منه بمروان ، ان احسنا اليه » قال : اجل ، والله

كتاب قيس بن سعد بن عبادة الى معاوية

وهكذا فعل قيس بن سعد بن عبادة (الانصاري) بمعاوية بن ابي سفيان ، حين دعاه الى مفارقة علي بن ابي طالب والدخول في طاعته . فكتب اليه قيس بن سعد : « يا وثن ابن وثن تكتب الي تدعوني الى مفارقة علي بن ابي طالب والدخول في طاعتك وتخوفني بتفرق اصحابه واقبال الناس عليك واجفالهم اليك فوالله الذي لا اله غيره لو لم يبق

حذيفة بن اليمان قال لثابت بن وقش الأنصاري وقد تخلف معه في غزوة احد : « انهض بنا ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانما نحن هامة اليوم او غد » . (وكانا قد اسنا) . ومرجع ذلك لاعتقاد العرب في مسألة الهامة . (راجع « الكامل » للمبرد ص ٢١١ و٣٨٧ ؛ وانظر « الاغاني » ج ١٣ ص ١٦٥)

له غيري ولم يبق لي غيره ، ما سالمتك [1] ابدا ، وانت حربه ، ولا دخلت في طاعتك وانت عدوه ، ولا اخترت عدو الله على وليه ، ولا حزب الشيطان على حزب الله . والسلام»

الاسكندر والمتقربون اليه بقتل ملكهم

وفي سيرة الاسكندر ذي القرنين انه لما قصد نحو فارس ، تلقاه جماعـة من اساورتهم برأس ملكهم ، يتقربون اليه به . فامر بقتلهم لسوء رعيهم وقلة شكرهم لملكهم ومن انعم عليهم . وقال : من غدر بملكه كان بغيره اغدر .

شيرويه ومادحه على قتل ابرويز

وفيا يحكى عن شيرويه ان رجلًا من الرعية وقف له يوما ، وقد رجع من الميدان ، فقال : « الحمد لله الذي قتل ابرويز عـلى يديك ،

(١) انظر في المسعودي مكاتبات اخرى جرت بينها (ج ٥ ص ٤٥) .

وملكك ما كنت احق بـه منه واراح آل ساسان من جَبَرِّيته[1] وعتوه وبخله ونكده . فانه كان ممن يأخذ بالحبة[2] ، ويقتل بالظن ، ويخيف البرىء ، ويعمل بالهوى » . فقال شيرويه للحاجب : احمله الي . فحمل . فقال له : ـ

ـ كم كانت ارزاقك في حياة ابرويز ؟

ـ كنت في كفاية من العيش .

ـ فكم زيد في ارزاقك اليوم ؟

ـ ما زيد في رزقي شيء .

ـ فهل وترك[3] ابرويز ، فانتصرت منه بما سمعت من كلامك ؟

ـ لا .

(١) في نسخة : « جبرؤته » . والجبرية القهر والغلبة . وفيها لغات كثيرة ذكرها في القاموس وفي كامل المبرد . وفي خطبة عقبة بن غزوان : « وانه لم تكن نبوة الا تناسختها جبرية » . اي ملك غالب وعضوض . (انظر « البيان والتبيين »

(٢) في نسخة : بالاحنة .

(٣) وتره حقه اي نقصه . (صحاح)

قال - فما دعاك الى الوقوع فيه ، ولم يقطع عنك مادة رزقك ولا وترك في نفسك ؟ وما للعامة والوقوع في الملوك وهم رعية ؟

فامر ان ينزع لسانه من قفاه ، وقال : بحق ما يقال ان الخرس خير من البيان فيما لا يجب . »

المنصور والضارب راس الخارج عليه بعد قتله

وحدثني صباح بن خاقان[1] ، قال : حدثني ابي ان ابا جعفر (المنصور) لما اتي برأس ابراهيم بن عبد الله[2] فوضع بين يديه جاء بعض اولئك الرويدية[3]

---

(١) هو صباح بن خاقان المنقري كان نديماً لمصعب الزبيري ، وكان من مشايخ المروءة والعلم والادب . وكان متعصبا للفرزدق وجرير يفضلها على الاخطل.

(١) هو ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب .

(٢) هكذا في بعض النسخ . ولا يمكن ان تكون الكلمة محرفة عن الراوندية لانهم قاموا على المنصور في سنة ١٤٠ ، وابراهيم بن عبد الله كان قتله في سنة ١٤٥ . وروى الطبري هذه الحكاية على وجه آخر ووصف الرجل بأنه من السياقة (سلسلة ٣ ص ٤١٦) وفي النسخة الحلبية الزيدية ولعله هو القريب من الصواب ويكون الواجب التصحيح بمقتضاه ، اي يجعل بدل « الرويدية » لفظة « الزويدية » بطريق التصغير والتحقير لكلمة (الزيدية) .

فضرب الرأس بعمود كان في يـده . فقال المنصور للمسيب [1] : دق [2] وجهه ! فدق المسيب انفه . ثم قـال (المنصور) له : يا ابن اللخناء تجيء الى رأس ابن عمي (وقد صار الى حال لا يدفع ولا ينفع) تضربه بعمودك ، كأنك رأيته وهو يريد نفسي فدفعته عني . اخرج الى لعنة الله واليم عذابه

المنصور ومادح هشام الاموي

ويقال ان ابا جعفر وجه الى شيخ من اهل الشام ، كان من بطانة هشام ، فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبه الخوارج . فوصف له الشيخ ما دبر ، فقال : « فعل (رحمه الله) كذا صنع (رحمه الله) كذا . » فقال المنصور : قم ، عليك لعنة الله تطأ بساطي ، وتترحم

(١) هو المسيب بن زهير الضبي وهو من ولد ضرار بن عمرو (وبنو ضرار من سادة ضبة) . كان على شرطة جعفر ، وولاه المهدي خراسان . وولي شرطة موسى الهادي . وكانت هذه الوظيفة في ابنائه لهارون والامين والمأمون . (معارف ابن قتيبة ص ٢٠٠)

(٢) في نسخة : سوّ .

على عدوي ؟ فقام الرجل ، فقال وهو مولٍّ : ان نعمة عدوك لَقِلادَةٌ في عنقي لا ينزعها الا غاسلي . فقال له المنصور : ارجع يا شيخ فرجع فقال له : اشهد انك نهيض حرة وغراس شريف عـد الى حديثك فعاد الشيخ الى حديثه حتى اذا فرغ ، دعا له بمال ليأخذه فقال : « والله يا امير المؤمنين ، ما بي حاجة اليه ولقد مات عني من كنت في ذكره آنفاً ، فما احوجني الى وقوف على باب احد بعده . ولولا جلالة عز امير المؤمنين وايثار طاعته ما لبست لاحد بعده نعمة . » فقال المنصور : « مت اذا شئت ، فلله انت فلو لم يكن لقومك غيرك ، لكنت قد ابقيت لهم مجداً مُخَلَّداً » . ويقال ان الرجل كان من شيبان .

الادب عندما يتكلم الملك

ومن حق الملك ـ اذا حضره سماره او محدثوه ـ ان لا يحرك احد منهم شفتيه مبتدئاً ، ولا يقطع حديثه بالاعتراض فيه ، وان كان نادراً شهياً ، وان يكون غرضهم حسن الاستماع ، واشغال الجوارح بحديثه . فاذا فرغ من الحديث فنظر الى بعضهم ، فقد اذن له ان يحدثه بنظير

ذلك الجنس من الحديث. وليس له ان يأخذ في غير جنس حديثه.

الادب في تحديث الملك

وليس لمن حدث الملك ان يفسد الفاظه و كلامه ، بان يقول في حديثه : « فاسمع مني » او « افهم عني » او « يا هذا » او « الا ترى » فان هذا وما اشبهه عِيٌّ من قائله وحشو في كلامه وخروج من بسط اللسان ودليل على الفدامة [1] والغثاثة [2]. وليكن كلامه كلاماً سهلًا ، والفاظه عذبة متصلة ، وسقط كلامه قليلًا . فاذا فرغ من الحديث ، فليس له ان يصله بحديث آخر ، وان كان شبيها بالحديث الاول ، حتى يرى ان الملك قد اقبل عليه بوجهه واصغى الى حديثه. (فان اعرض) لشغل يعرض له ، (فليس له) ان يمر في حديثه وان يصل كلامه ، فيحتاج الملك الى الاصغاء اليه ويحتاج الى التشاغل بما عرض له ، فيجمع عليه امرين . فان هذا سُخْفٌ من فاعله وخروج من الادب . ولكن لينصت مطرقاً : فان اتصل شغل الملك ، ترك

(١) الفدامة العي عن الحجة ، والكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم .

(٢) هي سوء الخلق . ويعبر عنها العامة في ايامنا هذه بقولهم : الغتاتة . ومنها فلان غتوت .

الحديث ؛ وان انقطع فنظر اليه ، فقد اذن له في اتمامه واعادته .

عدم الضحك من حديث الملك

ومن حق الملك ان لا يضحك من حديثه اذا حدث ، لان الضحك بحضرة الملك جرأة عليه ، ولا يظهر التعجب بفائدة حديثة . وانما هذا الى الملك . فان ضحك الملك من الحديث واظهر السرور به ، فذاك غرض حديثه ، واليه قصد . وان سكت ، فلم يكن في الحديث ما يلهيه ويطربه او يستفيد منه فائدة ، كان قد سلم من العيب ، اذ لم يضحك ولم يعجب .

عدم اعادة الحديث مرتين على الملك

ومن حق الملك ان لا يعاد عليه الحديث مرتين ، وان طال بينهما الدهر وغبرت بينهما الايام ، الا ان يذكره الملك . فان ذكره ، فهو اذن منه في اعادته.

كلمة روح بن زنباع في المعنى

وكان روح بن زنباع يقول : اقمت مع عبد الملك سبع عشره سنة من ايامه ، ما اعدت عليه حديثاً .

كلمة الشعبي في المعنى

وكان الشعبي [1] يقول : ما حدثت بحديث مرتين لرجل بعينه قط .

كلمة السفاح

وكان ابو العباس [2] يقول : ما رأيت احدا اغزر علماً من ابي بكر الهذلي ، لم يعد علي حديثاً قط .

كلمة ابن عياش في المعني

وكان ابن عياش يقول : حدثت المنصور اكثر من عشرة آلاف

---

(١) هو فقيه العراق واشهر من ان يذكر .

(٢) يعني السفاح رأس الدولة العباسية .

حديث . فقال لي ليلة ، وقد حدثته عن يوم ذي قار [1] : قد اضطررت الى التكرار ، يا ابن عياش ! قلت : ما هذا منها ، يا امير المؤمنين . قال : اما تذكر ليلة الرعد والامطار ، وانت تحدث عن يوم ذي قار ، فقلت لك : ما يوم ذي قار [2] باصعب من هذه الليلة ؟

مواطن اعادة الحديث على الملوك

وكان الشرقي بن القطامي [3] يعيد الحديث مرارا . وذلك ان

(١) ذو قار هو اسم ماء لبني بكر بن وائل ، بالقرب من الكوفة . حدثت فيه معركة هائلة بين العرب والعجم قبل البعثة النبوية ، وقيل بين غزوتي بدر واحد . انتصر فيها العرب على العجم انتصاراً باهراً تغنى به شعراؤهم وتحدث به اخباريوهم . ويسمى هذا اليوم ايضا بيوم الحنو ، ويوم حنو ذي قار ، ويوم حنو القراقر ، ويوم بطحاء ذي قار ، ويوم قراقر ، ويوم الجبابات ، ويوم ذات العجروم . وكلهن مواضع حول ذي قار . ولكنه الأشهر والاكثر في الاستعمال .

(٢) القار (بتخفيف الراء) هو في لغة العرب هذا الاسود (الزفت) الذي تطلى به السفن ، وهو شجر مر أيضاً (عن تاج العروس) . و في لغة الفرس يدل على البياض وعلى السواد (لانه عندهم من اسماء الاضداد) ، وقد اطلقوه من باب التوسع على الثلج وعلى الزفت بسبب لونيهما .

(٣) سماه في القاموس شرقي بن القطامي . وفي شرحه عن بعض اهل اللغة انه

اكثر احاديثه مضاحيك ، وكانت تعجب المهدي فيستعيده .

بفتح الراء . والقطامي بفتح القاف في لغة قيس وعند سائر العرب بالضم .

وهو الوليد بن الحصين الكلبي . والشرقي لقبه ، كما ان القطامي لقب ابيه . كوفي وافر العلم والادب ، واشتهر بمعرفة الانساب ورواية الاخبار والدواوين . ولكنه في الحديث معدود من الضعفاء . كان صاحب سمر . اقدمه أبو جعفر المنصور ليعلم ولده المهدي . وقد سأله : (عَلاَمَ يؤتى المرء ؟ فقال : اصلح الله الخليفة ! على معروف قد سلف ، او مثله يؤتنف ، او قديم شرف ، أو علم مطرف .) ضمه المنصور إلى المهدي حين خلفه بالري ، وله معه هناك حديث ظريف عن الغريين (ساقه في « مروج الذهب » ج ٦ ص ٢٥١ - ٢٥٦ ، واورده ياقوت برواية اخرى في « معجم البلدان » ج ٣ ص ٧٩١ - ٧٩٢) . وله كتب في التاريخ والانساب . روى عنها المسعودي وياقوت والبلاذري . وله قصيدة في الغريب سأله رجل ذات يوم عما كانت تقرؤه العرب في صلاتها على موتاها . فقال : لا ادري . فقال له الرجل : كانوا يقرؤون :

ما كنتَ وكواكا ولا بَزَوَنَّك　　رُوَيدكَ حتى يبعث الخلق باعثهْ

فحدث بذلك في المقصورة يوم الجمعة . (انظر « كتاب الفهرست » ص ٩٠ و ١٧٠ و ٣٠٦ ؛ « ونزهة الالباء » ص ٤٢ - ٤٣ وابن قتيبة في « المعارف » ص ٢٦٨ . وقد صححت البيت عن « لسان العرب » في مادتي زنك ، وكك) .

وكان ابن دأب [1] اذا حدث موسى امير المؤمنين بالحديث ، اعاده عليه في القابلة حتى يحفظه .

---

(١) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، ويكنى أبا الوليد . (ودأب مأخوذ من قولهم : ما زال هذا دأبه وديدنه وعادته ودينه اي فعله الذي لا يفارقه) . كان هو وابوه وأخوه من العلماء بأخبار العرب وأشعارهم. وكان عيسى شاعرا فوق ذلك . وكان يضع بالمدينة الشعر وأحاديث السمر وكلاما ينسب إلى العرب .وكان اكثر اهل الحجاز ومعاصريه ادبا وعلما وعذوبة لفظ ومعرفة باخبار الناس وايامهم ؛ وكان لذيذ المفاكهة ، طيب المسامرة ، كثير النادرة ، جيد الشعر ، حسن الانتزاع له . وهو من نقلة الاخبار ونقاد الاشعار . حظي عند الهادي حظوة لم تكن لاحد قبله . وبلغ من تيهه عند الخليفة انه كان ينادمه ولا يتغدى معه . فقيل له في ذلك ، فقال : أنا لا أتغدى في مكان لا أغسل يدي فيه . فقال له الهادي : فتغدى ! فكان الناس اذا تغدوا تنحوا لغسل ايديهم ، وابن دأب يغسل يديه بحضرة الخليفة . وبلغ من تيهه ودالته عليه ايضا ان الخليفة كان يدعو له بما يتكىء عليه في مجلسه (وما كان يفعل ذلك بغيره ولم يكن عنده احد يطمع منه بذلك) .

وكان يقول له : « ما استطلت بك يوما ولا ليلا ، ولا غبت عن عيني الا تمنيت ان لا ارى غيرك » . امر له مرة بثلاثين الف دينار . فعاكسه الحاجب في قبضها ، فتركها . ثم رآه الهادي ، وليس معه إلا غلام واحد ، فاخذ عليه عدم ظهور النعمة فيه . فلما دخل اليه عرض له بذلك وقال له : « أرى ثوبك غسيلا ، وهذا شتاء يحتاج الى الجديد . » فقال باعي قصير ، فقال : وكيف ، وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك ؟ فقال : ما وصل إلي . فدعا صاحب بيت المال

ويقال انه لم يسامر الخلفاء احد كان انبل من عيسى بن دأب ، ولا اتم صنعة ولا احسن الفاظاً ولا افكه مجلساً ولا اعظم ابهة وقدرا منه. وكان عيسى بن دأب يتكىء في مجلس امير المؤمنين.

ولم يكن هذا لاحد. غير انه يحكى ان روح بن زنباع مرض فكان يدعو له عبد الملك بن مروان بمتكا[1].

واستحضر الثلاثين الف دينار وحملها بين يديه.

وكان كثيرا ما يدعوه ويسأله انشاد الأبيات من اشعر ما قالت العرب. وكان يروي له الاخبار وقد اخذ عليه خلف الاحمر هفوة فقال فيه: « العجب من ابن دأب ! والله لقد طمع في الخلافة حين ظن ان هذا يقبل منه.» وقد هجاه ابن مناذر الشاعر الفصيح المقدم في العلم باللغة لانه قال فيه قولا قبيحاً وله ترجمة وافية في « معجم الادباء » لياقوت

روى هذه الاحوال صاحب « محاسن الملوك » بالحرف الواحد عن الجاحظ دون ان يسميه (ص ٢٤).

(١) دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة ، فجعل يأمره وينهاه ، ثم دعا له بمتكأ ، فقال : اعيذك بالله ، يا أمير المؤمنين ! ما كنت لأتكىء في مجلسك ! فقال له : ان على قلبك من ذلك ثقلا ومؤونة ، فأردنا ان يستريح بدنك ليفرغ لنا قلبك. (« مطالع البدور » ج ١ ص ١٠)

الادب في تحديث الملك

وعلى المحدث للملك ان لا يعجل في كلامه ، وان يدمج[1] الفاظه ، ولا يشير بيده ، ولا يحرك رأسه ، ولا يزحف من مجلسه ، ولا يراوح بين قعدته ، ولا يرفع صوته ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالا ، ولا يقبل على غير الملك بملاحظته ، ولا يكون غرضه ان يسمع حديثه او يفهم عنه سواه .

امارات الملوك للجلساء بالانصراف

ومن حق الملك ـ اذا تثاءب او القى المروحة او مد رجليه او

(١) من قولهم : ادمج الحبل اجاد فتله ، وقيل : احكم فتله في رقة : (عن تاج العروس)

تمطى او اتكأ او كان في حال فصار الى غيرها مما يدل على كسله [1] او وقت قيامه _ ان يقوم كل من حضره .

وكان اردشير بن بابك اذا تمطى ، قام سماره .

وكان الاردوان الاحمر [2] له وقت من الليل وساعات تحصى . فاذا مضت ، جاء الغلام بنعله ، فقام من حضره .

وكان يستاسف اذا دلك عينيه قام من حضره .

وكان يزجرد الاثيم اذا قال : « شب بشد [3] » قام سماره .

وكان بهرام جور اذا قال : « خرم خفتار [4] » ، قام سماره .

وكان قباذ اذا رفع رأسه الى السماء ، قام سماره .

وكان سابور اذا قال : « حسبك يا انسان ! » قام سماره .

---

(١) في نسخة : كله . (بمعنى كلاله)

(٢) لعل الصواب : « الاصغر » .

(٣) جملة فارسية معناها : صار الليل . وفي هامش احدى النسخ : يقول ذهب الليل .

(٤) جملة فارسية معناها : نام مسروراً (؟)

وكان انو شروان اذا قال : « قرت اعينكم ! » قام سماره [1] .

وكان عمر بن الخطاب اذا قال : « الصلاة ! [2] » قام سماره . وكان ينهى عن السمر بعد صلاة العشاء .

وكان عثمان اذا قال : (العزة لله) قام سماره .

وكان معاوية اذا قال : (ذهب الليل) قام سماره ومن حضره [3]

وكان عبد الملك اذا القى المخصرة [4] ، قام من حضره [5] .

---

(١) وكان كيشاسف يدلك عينه ؛ ويزجرد يقول : شب بشد (اي مضى الليل) ؛ وبهرام يقول : خرم خوش باد (اي كن مسروراً) ؛ وابرويز يمد رجليه ؛ وقباذ يرفع رأسه الى السماء . (عن «محاضرات الراغب» ج ١ ص ١٢١ . والتفسير العربي الاول عن المرحوم محمد عارف باشا في حاشية « المحاضرات »)

(٢) اذا قال قامت الصلاة . (في « محاضرات الراغب » ج ١ ص ١٢١)

(٣) قال اصحاب معاويه له : انا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك ، فنريد ان تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك . قال : علامة ذلك ان اقول «اذا شئتم» وقيل ذلك ليزيد ، فقال : اذا قلت « على بركة الله ! » وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان فقال : اذا وضعت الخيزرانة . (« العقد الفريد » ج ١ ص ١٦٦ — ٢٨٨)

(٤) قضيب كالسوط ، وكل ما اختصر الانسان بيده فامسكه من عصا ونحوها . وذلك من شعار الملوك .

(٥) في المسعودي (ج ٥ ص ٢٥٧) وفي الراغب في الموضوع السابق بيانه ، انه كان يقول : «اذا شئتم» وكان سادات العرب يقولون لجليسهم : «اذا شئت فقم !» وهذه الجملة استعملها مصعب بن الزبير ، كما في الاغاني . (ج ٢ ص ١٣٨)

وكان الوليد اذا قال : (استودعكم الله) قام من حضره .

وكان الهادي اذا قال : (سلام عليكم) قام من حضره .

وكا الرشيد اذا قال : (سبحانك اللهم وبحمدك) قام سماره .

وكان المأمون اذا استلقى على فراشه ، قام من حضره .

وكان المعتصم اذا نظر الى صاحب النعل ، قام من حضره .

وكان الواثق اذا مس عارضيه وتثاءب ، قام سماره .

غير ان بعض من ذكرنا كان ربما قام بجنس آخر من الاشارة والكلام ، وانما اضفنا الى كل واحد منهم اغلب افعاله كانت عليه [1] .

---

(١) في « مطالع البدور في منازل السرور » (ج ١ ص ١٨٤) أن أول من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد ، كسرى . وهو أن يمد رجله ، فيعرفون انه يريد قيامهم ، فينصرفون . وتبعه الملوك . فكان فيروز الأصغر يدلك عينيه ، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء . وكان في ملوك الاسلام معاوية يقول : العزة لله ! ، وعبد الملك يلقي المروحة من يده . وحدث بهذا الحديث عند بعض البخلاء وسئل ما أمارته ، فقال : اذا قلت «يا غلام ، هات الطعام» وانظر ايضا « محاضرات الراغب » (ج ١ ص ١٢١)

عدم ذكر احد بالعيب في حضرة الملك

ومن حق الملك ان لا يعاب عنده احد ، صغر او كبر.

تحويش الملك بين رجاله

غير ان من اخلاقها التحريش بين اثنين ، والاغراء بينهما.

فمن الملوك من يدبر في هذا تدبيراً يجب في السياسة. وذلك انه يقال: قل اثنان استويا في منزلة عند الملك والجاه والتبع والعز والحظوة عند السلطان فاتفقا ، الا كان ذلك الاتفاق وهنا على المملكة والملك، وفساداً في تدبيره. وذلك انهما اذا اتفقا ، وهما وزيرا الملك ، كانا — متى شاآ ان ينقضا ما ابرم الملك ويحلا ما عقد ويوهيا ما اكد — قدرا على ذلك الاتفاق والجامعة. ومتى انفصلا حتى يتباينا اويتحاربا كان تباينهما اثبت في نظام الملك واوكد في عز المملكة. وكان متى اراد هذا شيئاً، اراد الآخر خلافه. فاذا تباينا في ذات انفسهما، اجتمعا على نصيحة الملك ، شاآ ام ابيا. وآثرها كل واحد منهما على هوى

نفسه ، وانتظم للملك تدبيره وتم له امره [1] .

ومن الملوك من لا يقصد الى هذا ولا يكون غرضه الاغراء بين وزرائه وبطانته لهذه العلة ، بل ليعرف معايب كل واحد منهما . فان معرفة ذلك تقطع الوزير عن الانبساط في حوائجه والتسحُّب على مَلكه .

آداب السفير

ومن الحق على الملك ان يكون رسوله صحيح الفطرة والمزاج ، ذا بيان وعبارة ، بصيراً بمخارج الكلام واجوبته ، مؤديا لالفاظ الملك ومعانيها ، صدوق اللهجة ، لا يميل الى طمع ولا طبع [2] ، حافظاً لما حمِّل .

---

(١) كان السفاح ، اذا تعادى رجلان من اصحابه وبطانته ، لم يسمع من احدهما في الآخر شيئاً ولم يقبله ، وان كان القائل عنده عدلا في شهادته . واذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه . ويقول ان الضغينة القديمة تولد العداوة المحضة وتحمل على اظهار المسالمة وتحتها الافعى التي اذا استكنت لم تبق . (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٦)

(١) الطبع : الشين والعيب . ومنه الحديث : «استعيذوا بالله من طبع

وعلى الملك ان يمتحن رسوله محنة طويلة ، قبل ان يجعله رسولا

سنة ملوك العجم في اختبار السفير

وكانت ملوك الاعاجم ـ اذا آثرت ان تختار من رعيتها من تجعله رسولا الى بعض ملوك الامم ـ تمتحنه اولا ، بان توجهه رسولا الى بعض خاصة الملك ومن في قرار داره في رسائلها. ثم تقدم عينا عليه يحضر رسالته ويكتب كلامه. فاذا رجع الرسول بالرسالة ، جاء العين بما كتب من الفاظه واجوبته. فقابل بها الملك الفاظ الرسول فان اتفقت او اتفقت معانيها ، عرف الملك صحة عقله وصدق لهجته. ثم جعله الملك رسولا الى عدوه ، وجعل عليه عينا يحفظ الفاظه ويكتبها ، ثم يرفعها الى الملك. فان اتفق كلام الرسول و كلام عين الملك وعلم ان رسوله قد صدقه عن عدوه ولم يتزيد عليه للعداوة بينهما ، جعله

يهدي الى طمع . » اخذه عروة بن اذنيه شاعر قريش فقال :

لاخير في طَمَعٍ يَهْدِي إلى طَبَعٍ وغُفَّةٌ من قِوام العيش تكفيني

والغُفَّةُ البُلْغَةُ من العيش

(عن تاج العروس)

رسوله الى ملوك الامم ، ووثق به. ثم كان بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجة.

كلمة اردشير في حق السفير

وكان اردشير بن بابك يقول : « كم دم قد سفكه الرسول بغير حله وكم من جيوش قد قتلت وعساكر قد هزمت وحرمة قد انتهكت ومال قد انتهب وعهد قد نقض بخيانة الرسول واكاذيبه. »

كلمة ثانية له

وكان يقول : على الملك ، اذا وجه رسولا الى ملك آخر ، ان يردفه بآخر. وان وجه رسولين ، اتبعهما بأثنين. وان امكنه ان لا يجمع بين رسولين في طريق ولا ملاقاة ولا يتعارفان فيتواطآ ، (فعل) ثم عليه ، ان اتاه رسوله بكتاب اورسالة من ملك في خير او شر ، ان لا يحدث في ذلك خيراً او شرا ، حتى يكتب اليه مع رسول آخر يحكى له ما في كتابه الاول حرفا حرفا ، ومعنى معنى. فان الرسول ربما حرم بعض ما امل ، فافتعل الكتب وحرض المرسل على المرسَل

اليه ، فاغراه به و كذب عليه [1] .

ما فعله الاسكندر بسفير كذب عليه

ويقال ان الاسكندر وجه رسولا الى بعض ملوك الشرق . فجاءه برسالة شك في حرف منها . فقال له الاسكندر : ويلك ؟ ان الملوك لا تخلو من مقوّم ومسدّد ، اذا مالت . وقد جئتني برسالة صحيحة الالفاظ بيّنة العبارة ، غير ان فيها حرفا ينقضها . افعلى يقين انت من هذا الحرف ام شاكٌ فيه ؟ فقال الرسول : بل على يقين انه قاله . فامر الاسكندر ان تكتب الفاظه حرفا حرفاً ويعاد الى الملك مع رسول آخر ، فيقرأ عليه ويترجم له . فلما قُرِئَ الكتاب على الملك فمر بذلك الحرف ، انكره . فقال للمترجم : ضع يدي على هذا الحرف . فوضعها . فأمر ان يقطع ذلك الحرف بسكينة [2] ، فقطع

(١) اورد القلقشندي هذه الجملة في الجزء الاول (ص ٧٣) من « صبح الاعشى » ببعض تصرف في الالفاظ . وقد اورد هذه الحكاية صاحب « تنبيه الملوك » (ص ٨٩) . و كذلك صاحب « المحاسن والمساوىء » (ص ١٦٨ — ١٦٩) .

(٢) المدية يسميها العرب سكينا وسكينة . والاسم الاول اشهر واكثر شيوعا . والسكين يذكر ويؤنث ؛ وقال بعضهم ان السكينة خطأ ، وليس كذلك . فقد جاء في شرح الفصيح انها لغة قوم من بني ربيعة ، واوردها الفراء

من الكتاب . وكتب الى الاسكندر : ان رأس[1] المملكة صِحَّةُ فطرة الملك ، ورأس الملك صدق لهجة رسوله ، اذ كان عن لسانه والى اذنه يُؤَدّي . وقد قطعت بسكينتي ما لم يكن من كلامي ، اذ لم اجد الى قطع لسان رسولك سبيلاً . فلما جاء الرسول بهذا الى الاسكندر ، ودعا الرسول الاول ، ما حملك على كلمة اردت بها فساد ملكين ؟ فاقر الرسول ان ذلك كان لتقصير رآه من الموجه اليه . فقال الاسكندر : فاراك لنفسك سعيت لا لنا ؟ فلما فاتك بعض ما املت ، جعلت ذلك ثأراً في الانفس الخطيرة الرفيعة ! فأمر بلسانه فنزع من قفاه .

وابن سيده . قال الشاعر :

سِكّينةٌ من طبع سيفِ عَمْرِو نِصابُها من قَرْنِ تَيسٍ بَرِّي

وفي الحديث : قال الملك لما شق بطنه : إئتني بالسكينة (انظر « تاج العروس » في س ك ن ، « وشفاء الغليل » صفحة ١٢٣) . وقد استعمل الجاحظ كلا من اللفظين .

(١) في نسخة : اس .

احتياط الملك في منامه ومقيله

ومن اخلاق الملك ان لا يكون لمنامه في ليل ولا نهار موضع يعرف به ، ولا حاو [1] يقصداليه . اذ كانت أنفس الملوك هي المطلوب غرتها [2] ، والموكل برعاية سنتها وساعة غفلتها .

ويقال ان ملوك ال ساسان لم يعرف مبيت احد منهم قط ولا مقيله .

سنة ملوك الفرس في النوم

فاما اردشير بن بابك وسابور وبهرام ويزدجرد و كسرى ابرويز و كسرى انو شروان ، فكان يفرش للملك منهم اربعون فراشاً (في اربعين موضعاً [3]) . ليس منهم فراش الا ومن رآه من بعيد

---

(١) في بعض النسخ : «حوى» [واخترت الحاوي لانه من اصطلاحات الفلسفة بمعنى الحيز] .

(٢) في نسخة : عزتها .

(٣) الزيادة عن «محاسن الملوك» .

على الانفراد لا يشك انه فراش الملك خاصة (وانه نائم فيه). ولعله ان لا يكون على واحد منها. بل لعله ينام على مجلس رقيق. وربما توسد ذراعه، فنام.

السنة النبوية في النوم

ولو لم يجب على ملوكنا حفظ منامهم وصيانته عن كل عين تطرف واذن تسمع الا ان النبي (صلى الله عليه وسلم) فلعله — وهو من الله بمكانة المخصوص من كلاءته اياه وحراسة الروح الامين له — لقد كان يحق عليهم ان يقتدوا به ويمتثلوا فعله. وقد كان المشركون هموا بقتاله، فاخبره جبريل (صلى الله عليهما) عن الله (جل ثناؤه) بذلك، فدعا علي بن ابي طالب (عليه السلام) فانامه على فراشه، ونام هو (صلى الله عليه وسلم) بمكان آخر فلما جاء المشركون الى فراشه، فنهض منه علي، انصرفوا عنه. ففي هذا اكبر الادلة واوضح الحجة على ما ذكرنا. اذ كانت انفس الملوك هى الانفس

الخطيرة الرفيعة التي توزن بنفوس كل من اظلت الخضراء [1] واقلت الغبراء [2].

اطلاع الوالدين فقط على منام الملك

وكانت الاعاجم تقول : لا ينبغي للملك ان يطلع على موضع منامه الا الوالدين فقط [3]؛ فأما من دونهما ، فالوحشة منه وترك الثقة به ابلغ في باب الحزم ، واوكد في سياسة الملك، واوجب في الشريعة، واوقع في الهوينا [4].

معاملة الابن للملك

ومن حق الملك ان يعامله ابنه كما يعامله عبده ، وان يدخل

(١) السماء .

(٢) الارض .

(٣) نقل هذه الاحكام صاحب «محاسن الملوك» باختصار مع استعمال الفاظ الجاحظ (ص ٩٣)

(٤) التؤدة والرفق .

مداخله الا عن اذنه ، وان يكون الحجاب عليه اغلظ منه على من هو دونه من بطانة الملك وخدمه ، لئلا تحمله الدالة على غير ميزان الحق .

ما فعله يزدجرد مع ابنه بهرام

فانه يقال ان يزدجرد رأى بهرام ابنه بموضع لم يكن له ، فقال : مررت بالحاجب ؟ قال : نعم . قال : وعلم بدخولك ؟ قال : نعم . قال : فاخرج اليه واضربه ثلاثين سوطاً ، ونحه عن الستر ووكل بالحجابة ارادمرد . ففعل ذلك بهرام وهو اذ ذاك ابن ثلاث عشرة . ولم يعلم الحاجب فيم غضب الملك عليه . فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل ، دفع ارادمرد في صدره دفعة وقذه [1] منها ، وقال : ان رأيتك بهذا الموضع ثانية ، ضربتك ستين سوطاً ، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب

---

(١) اي اوجعته وآلمته كثيرا . والوقذ شدة الضرب . وفي « محاسن الملوك » : فدفعه دفعة اوقعه بها .

بالامس ، وثلاثين لئلا تطمع في الجناية علي. فبلغ ذلك يزدجرد ، فدعا ارادمرد ، فخلع عليه واحسن اليه .

ما فعله معاوية مع ابنه يزيد

ويقال ان يزيد بن معاوية كان بينه وبين ابيه باب. فكان اذا اراد الدخول عليه قال : يا جارية ! انظري هل تحرك امير المؤمنين ؟ فجاءت الجارية (مرة) حتى فتحت الباب . فاذا معاوية قاعد ، وفي حجره مصحف ، وبين يديه جارية تصفح عليه . فاخبرت يزيد بذلك. فجاء يزيد فدخل على معاوية . فقال له : اي بني ! اني انما جعلت بيني وبينك باباً ، كما بيني وبين العامة . فهل ترى احدا يدخل من الباب الا باذن ؟ قال : لا . قال : فكذلك فليكن بابك فاذا قرع عليك فهو اذنك .

ما فعله المهدي مع ابنه الهادي

وهكذا ذكر لنا ان موسى الهادي دخل على امير المؤمنين

المهدي فزبره [1] وقال : اياك ان تعود الى مثلها الا ان يفتح بابك .

ما فعله الحاجب بولد المأمون

وذكر لنا ان المأمون لما استعر [2] به الوجع ، سأل بعض بنيه الحاجب ان يدخله عليه ليراه . فقال : لا والله ما الى ذلك سبيل ، ولكن ان شئت ان تراه من حيث لا يراك ، فاطلع عليه من ثقب في ذلك الباب . فجاء حتى اطلع عليه وتأمله ثم انصرف .

ما فعله الحاجب بولد المعتصم

وذكر لنا ان ايتاخ [3] بصر بالواثق في حياة المعتصم واقفاً في

(١) انتهره .

(٢) اي اشتد عليه ، تشبيهاً باستعار النار . وفي نسخة : استغرقه . [ولعل صواب الرواية : استمر] وفي «المحاسن والمساوىء» : اشتد .

(٣) معناه في اللغة الفارسية الغازي والفاضل ، كما في « برهان قاطع » . كان صل هذا الرجل طباخاً ثم ترقت به الاحوال الى ان صار مقدم الجيوش وكبير االدولة وصاحب مصر في ايام المعتصم . ولذلك قال بابك ان المعتصم لم يبق لديه

موضع لم يكن له ان يقف فيه فزبره وقال : تنح! فوالله لولا اني لم اتقدم[1] اليك في ذلك ، لضربتك مائة عصا .

واجبات ابن الملك

وليس لابن الملك من الملك الا ما لعبده من الاستكانة والخضوع والخشوع ، ولا له ان يظهر دالة الابوة وموضع الوراثة . فان هذا انما يجوز في النمط الاوسط من الناس ثم الذين يلونهم . فاما الملوك فترقى عن كل شي يمت به[2] .

أحداً الا وجه به اليه ، حتى طباخه . وبعث بذلك المعنى الى ملك الروم ، يغريه بالخليفة حينما ضايقه وأخذ بخناقه ، وكتب له : « فان أردت الخروج اليه ، فليس في وجهك أحد يمنعك » . وقد تولى ايتاخ امر اليمن والكوفة والحجاز ومكة والمدينة ودعي له على المنابر . وانتهى أمره بأن خافه المتوكل وأعمل الحيلة في القبض عليه وإماتته عطشاً . واخذ له من الذهب الف الف دينار . كانت وفاته سنة ٢٣٤ . (أنظر « النجوم الزاهرة » وابن الاثير في فهارسها ، « وشذرات الذهب » ج ١ ص ٥٠٠)

(١) في نسخة : أني اتقدّم .

(٢) المت هو التوسل والتوصل بقرابة أو حرمة أو دالة أو نحو ذلك .

وليس لابن الملك ان يسفك دماً ، وان اوجبت الشريعة سفكه وجاءت الملة به ، الا عن اذن الملك ورأيه[2] لانه ــ متى تفرد بذلك ــ كان هو الحاكم دون الملك . وفي هذا وهن على الملك وضعف[1] في المملكة .

وكذلك ايضاً ليس له ان يحكم في الحلال والحرام والفروج والاحكام ، وان كان ولي عهد الملك والمقلد ارث ابيه والمحكوم له بالطاعة ، الا عن امره ورأيه .

وليس له ــ اذا جمعته والملك دار واحدة ــ ان يأكل الا بأكل الملك ولا (ان) يشرب الا بشربه ولا (ان) ينام الا بمنامه .

وكذا يجب عليه في كل شيء من اموره السارة والضارة ان يكون له تابعاً ولحركته تالياً .

وليس هذا على (من) دون ابن الملك من بطانته وسائر رعيته . لان ابن الملك عضو من اعضائه وجزء من اجزائه ، والملك اصل

---

(١) في نسخة : وضعه .

(٢) الواو هنا واو المعية .

والابن فرع ، والفرع تابع للاصل ؛ والاصل مستغن عن الفرع .

وليس لابن الملك ان يرضى عمن سخط عليه الملك ، وان كان المسخوط عليه لا ذنب له عنده . لان من العدل والحق عليه ان يوالي من والى الملك ، ويعادي من عاداه . ولا ينظر في هذا الى حظ نفسه وارادة طبعه ، حتى يبلغ من حق الملك ما ان وجد الى غيلته[1] سبيلا ان يقتله . وعلى هذا ينبغي ان يكون نظام العامة لملكها .

شهوة الاستبدال

وقد تحدث في اخلاق الملك ملالة لشهوة الاستبدال[2] فقط . فليس لصاحب الملك ، اذا احدث الملك خلقاً ، ان يعارضه بمثله ، ولا اذا رأى نبوة وازوراره ، ان يحدث مثله . فانه متى فعل ذلك فسدت

---

(١) الضمير هنا يعود على المسخوط عليه .

(٢) في نسخة : الاستبداد .

نيته . ومن فسدت نيته ، عادت طاعته معصية وولايته عداوة . ومن عادى الملك ، فنفسه عادى و اياها اهان .

الحيلة في معالجتها

ولكن عليه ، اذا احدث الملك الخلق الذي عليه بِنية اكثر الملوك ان يحتال في صرف قلبه اليه . والحيلة في ذلك يسيرة : انما هو ان يطلب خلوته فيلهيه بنادرة مضحكة او ضرب مثل نادر او خبر كان عنه مغطى فيكشفه له .

ما صنعه مازيار المضحك مع احد ملوك العجم

كما فعل بعض سُمَّار ملوك الاعاجم . اظهر الملك له جفوة الملالة فقط ، فلما رأى ذلك ، تعلم نباح الكلاب وعواء الذئاب ونهيق الحمير وصياح [1] الديوك وشحيج البغال وصهيل الخيل . ثم احتال حتى دخل

(١) في المسعودي طبع باريس : « رقاء » ؛ وفي طبعة بولاق : « زقاء » . وهذا هو الصواب ، ومعناه صياح الديك . (انظر القاموس وشرحه) .

موضعاً يقرب من مجلس الملك وفراشه يخفى امره [1]. فنبح نباح الكلاب، فلم يشك الملك انه كلب وابن كلب، فقال: انظروا ما هذا! فعوى عواء الذئاب، فنزل الملك عن سريره. فنهق نهيق الحمار، وفر الملك هارباً. وجاء غلمانه يتبعون الصوت فكلما دنوا منه، احدث معنى آخر فأحجموا عنه. ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه، فاخرجوه وهو عريان مختبى. فلما نظروا اليه، قالوا للملك هذا مازيار المضحك! [2] فضحك الملك حتى تبسط وقال: ويلك! ما حملك على هذا؟ قال: ان الله مسخني كلبا وذئبا وحمارا. لما غضب علي الملك. فامر ان يخلع عليه ويرد الى موضعه.

وهذا لا يفعله الا اهل الطبقة السفلى. فاما الاشراف، فلهم حيل غير هذه، مما يشبه اقدارهم.

كما فعل روح بن زنباع، وكان احد دهاة العرب. رأى من عبد الملك بن مروان نبوة واعراضاً. فقال للوليد: الا ترى ما انا فيه من اعراض امير المؤمنين عني بوجهه، حتى لقد فغرت السباع افواهها

---

(١) في المسعودي: «أخفى امره». وفي نسخة: من مجلس الملك وموضع منامه.

(٢) سماه في المسعودي: «مرزبان» وكرره.

نحوي ، واهوت بمخالبها الى وجهي ? فقال له الوليد : احتل في حديث يضحكه ! فقال روح : اذا اطمأن بنا المجلس ، فسلني عن عبد الله بن عمر ، هل كان يمزح او يسمع مزاحا ? فقال الوليد : افعل .

وتقدم فسبقه بالدخول وتبعه روح . فلما اطمأن بهم المجلس ، قال الوليد لروح : هل كان ابن عمر [1] يسمع المزاح ? قال حدثني ابن ابي عتيق [2] ان امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن هجته ، فقالت :

ذهب الاله بما تعيش به   وقمرت ليلك ايما قمر

انفقت مالك غير محتشم   في كل زانية وفي الخمر

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب . وورعه وتقواه أشهر من نار على علم (وترجمته في « الطبقات الكبرى » لابن سعد . وفي « أسد الغابة » وغيرهما من الكتب الكثيرة الخاصة بالصحابة) .

(٢) هو عبد الله بن ابي عتيق بن أبي بكر الصديق بن أبي قحافة . كان من نساك قريش وظرفائهم بل قد بذهم ظرفاً . وله أخبار كثيرة . في الخلاعة بغير رفث وفي المجون بغير فسوق . وقد غلبت عليه الدعابة واشتهر بها . (انظر « العقد الفريد » ج ٣ ص ٢٣٨ ؛ وراجع « كامل » المبرد و « الأغاني » و « الكامل » لابن الأثير – بمقتضى فهارسها) .

قال : وكان ابن ابي عتيق صاحب غزل وفكاهة ، فاخذ هذين البيتين – وهما في رقعه – فخرج بهما . فاذا هو بعبد الله بن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ! انظر في هذه الرقعة ، واشر علي برأيك فيها . فلما قرأها ، استرجع عبد الله . فقال : ما ترى فيمن هجاني بهذا ؟ قال عبد الله : ارى ان تعفو وتصفح ! قال : والله يا ابا عبد الرحمن ، لئن لقيت قائلها لانيلنه نيلا جيدا ! فاخذ ابن عمر [1] افكل ، واربد لونه وقال : ويلك ! اما تستحي ان تعصي الله ؟ قال : هو والله ما قلت لك .

وافترقا . فلما كان بعد ذلك بايام لقيه . فاعرض ابن عمر بوجهه ، فقال : بالقبر ومن فيه ، الا ما سمعت كلامي ! فتحوّب عبد الله ، فوقف واعرض عنه بوجهه [2] . فقال : علمت يا ابا عبد الرحمن اني لقيت قائل ذلك الشعر فنلته ؟ فصعق ابن عمر ولُبِطَ به . فلما رأى

---

(١) الأفكل الرعدة . وفي المسعودي : « أفكل ورعدة » ، من باب عطف التفسير .

(٢) أقسم عليه بالروضة الشريفة وبالمدفون فيها وهو النبي صلى الله عليه وسلم . فتحوّب أي وجد في عدم الوقوف إثمًا ، فوقف ولكن معرضا عنه بوجهه .

ما حل به ، دنا من اذنه فقال : انها امرأتي ! فقام ابن عمر فقبل ما بين عينيه .

فضحك عبد الملك حتى فحص برجله وقال : قاتلك الله يا روح ! ما اطيب حديثك ! ومد اليه يديه فقام روح فاكب عليه وقبل اطرافه وقال : يا امير المؤمنين ، ألذنب فأعتذر ام لملالة فارجو عاقبتها .
قال : لا والله ! ما ذاك من شيء نكرهه . ثم عاد له احسن حالا .

ونحو هذا يحكى عن جرير بن الخطفي [1] ، حين دخل على عبد الملك ، وقد اوفده اليه الحجاج بن يوسف . فدخل محمد بن الحجاج وقال لجرير : كن في آخر من يدخل . فلما دخل جرير ، قال محمد : يا امير المؤمنين هذا جرير بن الخطفي ، مادحك وشاعرك ! قال بل مادح الحجاج وشاعره . قال جرير : فقلت : بل بك يا امير المؤمنين ! قال : هات في الحجاج ! فانشدته قولي في الحجاج :

---

(١) سماه في « الصحاح » الخيطفي . واللفظان معناهما واحد ، وهو السريع ، وهما مأخوذان من الخطف وهو الاستلاب . وهو لقب جده ، لبيت قاله في شعره. ولكن الاسم المخفف الذي استعمله الجاحظ هو الاكثر شيوعا ، وقد ورد في شعر الاخطل . (انظر « تاج العروس » ، « كتاب الاشتقاق » لابن دريد (ص١٤١)، « ديوان الاخطل » الذي نشره الأب الفاضل أنطون صالحاني (ص ٢٢٤)؛وغيرها من دواوين الادب) .

صَبَرْتَ النفسَ ابنَ أبي عُقَيلٍ مُحافَظَةً ، فكيف ترى الثوابا ؟
ولو لم تَرْضَ ربَّك ، لم يُنَزِّلْ مع النصرِ الملائكةَ الغِضابا .
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجّاج أثقبها شِهابا .

فقال : صدقت ، هو كذلك ! ثم قال للاخطل [1] ، وهو خلفي وانا لا اراه : قم فهات مديحا ! فقام فانشده فاجاد وابلغ . فقال : انت شاعرنا وانت مادحنا . قم فاركبه ! قال : فالقى النصراني ثوبه ، وقال جب [2] ! يا ابن المراغة [3] . قال : وساء ذلك من حضر من المضرية

---

(١) سبب تسمية الاخطل ان اثنين تحاكما إليه فأقسم أنها لئيمان ، هما وامهما وهو نفسه ايضا . فقيل له ان هذا لخطل من قولك . فسمي الاخطل (أمالي القالي ج ٢ ص ٢٣٤) .

(٢) أمره بوضع يديه على ركبتيه او على الارض ليتمكن من ركوبه . و « جب » فعل امر من التجبية بمعنى الانحناء . قال في « لسان العرب » في مادة ج ب ي ما نصه : وجبى الرجل وضع يديه على ركبتيه في الصلاة او على الارض . « وهو ايضاً انكبابه على وجهه . والعامة في مصر تقول الآن في مثل هذا المقام : « طاطي البصلة » ويعنون بالبصلة الرأس . وذلك في حال ما يريد احدهم ركوب الآخر .

(٣) هذا هو اسم أم جرير . وقيل ان الفرزدق والاخطل سمياها كذلك في

وقالوا : يا امير المؤمنين ، لا يركب الحنيف المسلم ، ولا يظهر عليه .
فاستحيا عبد الملك ، وقال : دعه ! قال فانصرفت اخزى خلق الله
حالا ، لما رأيت من اعراض امير المؤمنين عني ، واقباله على عدوي .
حتى اذا كان يوم الرواح للوداع ، دخلت لاودعه ، فكنت آخر من
دخل عليه . فقال له محمد بن الحجاج : يا امير المؤمنين ، هذا جرير ،
وله مديح في امير المؤمنين . فقال : لا ، هذا شاعر الحجاج ! قلت :
وشاعرك يا امير المؤمنين ! قال : لا . فلما رأيت سوء رأيه ، انشأت
اقول :

اتصحو ام فؤادك غير صاح ؟...

فقال : ذاك فؤادك !

ثم انشدته حتى بلغت البيت الذي سره ، وهو قولي :

أَلستُمْ خيْرَ مَن رَكِبَ المطَايا وأَندىٰ العالَمينَ بُطونَ رَاح ؟

هجاه كل منهما له . وقيل ان ذلك تعيير له ببني كليب لأنهم أصحاب حمير . ووفود جرير على عبد الملك مذكور في كثير من كتب الادب مثل « الاغاني » و « العقد الفريد » (ج ١ ص ١٥١) . ولكن رواية الجاحظ هي اوفى وأحسن

فاستوى جالساً ، وكان متكئاً ، فقال : بلى نحن كذلك ، أعد ! فاعدت . فاسفر لونه وذهب ما كان في قلبه ، ثم التفت الى محمد (بن الحجاج) فقال : ترى أم حزرة [1] تُرويها مائة من الابل ؟ قلت نعم يا امير المؤمنين ! ان كانت من فرائض كلب فلم تروها ، فلا ارواها الله ! قال : فامر لي بمائة فريضة . ومددت يدي ـ وبين يديه صحاف اربع من فضة قد اهديت اليه ـ فقلت : المِحلَبَ ، يا امير المومنين ! فاخذت منها واحدة . فقال : خذها ، لا بورك لك فيها ! قلت : كل ما اخذت من امير المؤمنين مبارك لي فيه .

وهكذا فعل بالامس عبد الملك بن مهلهل الهمداني ، وكان سليمان بن ابي جعفر قد جفاه . فاتاه يوما في قائم الظهيرة ، والهجيرة تقد [2] . فاستأذن ، فقال له الحاجب : ليس هذا بوقت اذن على الامير . فقال

---

(١) حزرة هي بنت جرير . وكان يكنى بها . قال في « تاج العروس » ما نصه : « وابو حزرة كنية سيدنا جرير رضي الله عنه » . ولا ادري لماذا لقبه بالسيادة ثم ترضى عنه (؟ !) ويظهر انه فهم انها كنية جرير بن عبد الله البجلي الصحابي ، وليس كذلك .

(٢) أي كانت شديدة الحر تتوقد . وفي مروج الذهب : واحتدام الهجير .

له : اعلمه بمكاني . فدخل عليه فاعلمه ، فقال له : مره يسلم قائماً ويخفف ! فخرج الحاجب فاذن له وامره بالتخفيف . فدخل فسلم قائماً ثم قال : اصلح الله الامير ! اني انصرفت بالامس نحو منزلي ، و (قد) امسيت . فبينا انا في الطريق ، اذا بمؤذن قد ثوب [1] بصلاة المغرب على مسجد معلق . فصعدت ثم صعدت ثم صعدت . . . قال سليمان : فبلغت السماء ، فكان ماذا؟ قال: فتقدم انسان ، إما كُرَيجي وإما سُنَيدي وإما طُمطاني . فأم القوم فقرأ بكلام لم افهمه (ولغة ما اعرفها) ، فقال :«ويل لكل هره زمأ مالا وعدده » يريد « ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ٱلَّذي جَمَعَ مالاً وعَدَّده » . قال : واذا خافه رجل سكران ما يعقل سكراً ، فلما سمع قراءته ضرب بيديه ورجليه وجعل يقول « ايرعكي ! ايرعكي در كلي ! ايرعكى در كلي في حِرمٌ قاريك ! » فضحك سليمان ثم تمرغ على فراشه ، وقال : ادن مني يا (أبا) محمد ، فانت اطيب امة محمد ! ثم دعا له بخلعة وقال : الزم الباب واغد في كل يوم . » وعاد الى احسن حالاته عنده .

---

(١) ثوّب : دعا الى الصلاة .

وهذه اخلاق الملوك لمن فهمها . وليس بعجب ان تتلون اخلاقهم ، اذ كنا نرى اخلاق القرين المساوي والشريك والالف تتلون ولا تستوي ، ولعله يجد عن الفه وقرينه وشكله مندوحة . فكيف بمن ملك الشرق والغرب، والاسود والابيض ، والحر والعبد ، والشريف والوضيع ، والعزيز والذليل ؟

ثمرات التأديب بالجفوة

وعلى انه ربما كانت جفوة الملك اصلح في تأديب الصاحب من اتصاله بالانس ، وان كان ذلك لا يقع بموافقة المجفو . لان فيها فراغ المجفو لنفسه وتخلصه لامره ولما كان لا يمكنه الفراغ له من مهم امره . وفيها ايضاً انه ان كان المجفو من اهل السمر واصحاب الفكاهات ، فالبحرى ان يستفيد بتلك الجفوة علما طريفاً محدثاً له بالكتب ودراستها او بالمشاهدة والملاقاة ، وربما كان لا يمكنه قبل ذلك ، وهو في شغله . ومنها ان جفوة الملك ربما ادبت الصاحب الادب الكبير

وذاك انه كل من انفس (1) الملك بمجلسه وطال معه قعوده وبه انسه، تمنى الفراغ وطلبت منه نفسه التخلص والراحة والخلوة لارادة نفسه كما انه من كثر فراغه وقل اناسه، جفي واُطرِحَ، وطلب الشغل والانس وما اشبه ذلك.

فبهذه الاخلاق رُكِبَت الفِطَرُ وجبلت النفوس.

فاذا جاءه الفراغ الذي كان يطلبه ويتمناه من الجهة التي لم يقدرها طلبت نفسه الموضع الذي يمله والشغل الذي كان يهرب منه.

ومنهـا انه كان في عز ومنعة وامر ونهي، وكان مرغوبا اليه مرهوبا منه، ثم (لما) حدثت جفوة الملك، انكر ما كان يعرف، وعصاه من كان له مطيعاً، وجفاه من كان به براً.

ومنها ان جفوة الملك تحدث رقـة (2) على العامة ورأفة بهم، وتحدث للمجفو حسن نية.

ومنها ان الرضا، اذا كان يعقب الجفوة، وجب على المجفو شكر الله تعالى على ما الهم الملك فيه فتصدق واعطى وصام وصلى.

---

(1) بمعنى ان الملك يجد مجلسه وجلوسه معه نفيسا.

(2) اي رحمة.

فكل شيء من امر الملك حسن في الرضا والسخط ، والاخذ والمنع ، والبذل والاعطاء ، والسراء والضراء . غير أنه يجب على الحكيم المميز ان يجهد بكل وسع طاقته ان يكون من الملك بالمنزلة بين المنزلتين . فانها احرى المنازل بدوام النعمة ، واستقامة الحال ، وقلة التنافس ومصارعة [1] اهل الحسد والوشاة .

صفات المقربين

وليس من اخلاق الملك ان يدني من عظم قدره واتسع علمه وطاب مركبه ، او ظهرت امانته او كملت آدابه .

وهذه الصفات هي جنس آخر يحتاج الملك الى اصحابه ضرورة : لحاجته من القضاة الى الفقه والامانة ، وحاجته من الطبيب الى الحذق بالصناعة والركانة [2] ، وحاجته من الكاتب الى تحبير الالفاظ ومعرفة مخارج الكلام والايجاز في الكتب ، وما اشبه ذلك . فاما

(١) في نسخة : « مسارعة » . وفي نسخة اخرى : « مشاغبة » .

(١) الركانة ، على ما في « تاج العروس » هي السكون الى الشيء والاطمئنان به .

القرناء والمحدثون واصحاب الملاهي ومن أشبههم ، فكل من دنا منهم من الملك واعلق به : كائنا من كان ومن حيث كان .

وكذا وجدنا في كتب الاعاجم وملوكها .

كلمة انو شروان ، وامثولة كليلة ودمنة

وفيما يذكر عن انو شروان انه قال : « صاحبك من علق بشوبك »

وكذا وجدنا في امثال « كليلة ودمنة » ان الملك « مثل الكرم الذي لا يتعلق باكرم الشجر ، انما يتعلق بما دنا منه [1] » . وقد نجد مصداق ذلك عيانا في كل دهر واخبار كل زمان .

سخاء الملك ورحمته

ومن اخلاق الملك السخاء والحياء .

فهما قرينا كل ملك كان على وجه الارض . ولو قال قائل انها

(١) نقلت هذه العبارة عن اقدم نسخة معروفة للآن من كتاب « كليلة ودمنة » وهي التي طبعها الاب الفاضل لويس شيخو اليسوعي سنة ١٩٠٥ (ص ٥٧) .

ركبا في الملوك كتركيب الاعضاء والجوارح ، كان له ان يقول . اذ كنا لم نشاهد ولم يبلغنا عمن مضى من الملوك ، ملوك العجم ومن كان قبلهم ، وملوك الطوائف وغيرهم ، القحة والبخل .

فاما السخاء فلو لم يكن احد طبائع الملوك ، كان يجب ان يكون باكتساب ، ان كان الملك من اهل التمييز . وذلك انه يفيد [1] اكثر مما ينفق . فاذا كانت هذه صفة كل ملك ، فما عليه من اتخاذ الصنائع وعم المنن والاحسان الى من نأى عنه او دنا منه من اوليائه ، والرحمة للفقير والمسكين ، والعائدة على اهل الحاجة .

واما الحياء فهو من اجناس الرحمة .

وحقيق للملك (اذ كان الراعي) ان يرحم رعيته ، (واذ كان الامام) ان يرق علي المؤتم به (واذ كان المولى) ان يرحم عبده .

فقد تخطىء العامة وكثير من الخاصة في الملوك حتى يسمونهم بغير اسمائهم ويصفونهم بغير صفاتهم وينحلونهم البخل والامساك ، اذا رأوا الملك على سنن من القصد وعدل من حد الانفاق ، ويغفلون عما ادب الله تعالى به نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله عز وجل : « ولا

---

(١) افاده واستفاده وتفيده بمعنى واحد . (عن القاموس)

تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »، ويمدحه الصالحين من عباده بالقصد في ذات ايديهم ، بعلمهم ان ارضى الاحوال عنده ما دخل في باب الاقتصاد ، بقوله : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا و كان بين ذلك قواماً . »

الرد على من وصف المنصور بالبخل

وقد ذكر بعض من لا يعلم (في كتاب الفه في البخلاء من الملوك [1]) ان هشام بن عبد الملك بن مروان ومروان بن محمد وابا

(١) هو غير الكتاب الذي الفه الجاحظ في البخلاء عامة ، وقد طبعه في ليدن سنة ١٩٠٠ المستشرق الهولندي فان فولتن وقد روى الجاحظ فيه (ص ١٦٣) ان هشاماً هذا « دخل حائطاً (بستانا) له فيه فاكهة واشجار وثمار ومعه اصحابه . فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة . فقال هشام : يا غلام ! اقلع هذا واغرس مكانه الزيتون » فذلك يدل على انه اراد تحقيق دعوة اصحابه ، لان الزيتون هو الشجرة المباركة . ويدل ايضاً على بخله ، حتى اذا جاء حائطه مرة اخرى لم يجد اصحابه سبيلا الى الاتيان على فاكهته وثمراته . روى صاحب « شذرات الذهب » (ج ١ ص ١٨١) هذه الحكاية بما يدل على بخل هشام، وختمها بقول هشام لقيم البستان : « اقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل احد منه شيأ ». ولم يذكر الجاحظ شيئاً من هذا القبيل عن المنصور في كتابه في البخلاء .

جعفر المنصور [1] وغيره، منهم . ولولا انا احتجنا الى الاخبار عن جهل هذا، لم يكن لذكره معنى ولا للتشاغل بالرد عليه . وكيف يكون المنصور ممن دخل في جملة هذا القول، ولايعلم ان احدا من خلفاء الاسلام ولا ملوك الامم وصل بألف ألف لرجل واحد [2] غيره!

---

(١) من الغريب ان صاحب «محاسن الملوك» نقل كثيرا عن الجاحظ بالحرف الواحد او بالاختصار ولكنه لم يسمه ولم يشر الى كتابه، فكان مثله كمثل المسعودي ونفر كثير من المؤرخين والمتأدبين . ولكنه حينما جاء الى ذكر المنصور بتبخيله ذكر اسم الجاحظ، فقال في صفحة ١٠٢ ما نصه : (قال الجاحظ : ربما وصف الأغبياء المنصور بالبخل، وليس الامر كذلك . فانه لم يسمع عن احد الخلفاء والملوك أنه وهب لرجل واحد الف ألف غيره . وفرق على اهل بيته في ليلة واحدة ألف ألف .) ثم روى القصة الآتية عن زيد مولى عيسى بن نهيك باختصار وختمها بهذه العبارة : (قال الجاحظ : فهل يجوز ان يعد من فعل هذا الفعل بخيلا ؟)

(٢) المنصور هو اول خليفة أعطى الف الف لكل رجل من عمومته الاربعة (طبري سلسلة ٣ ص ٤٢١) ومما يدخل في مكارم المنصور ان الشعراء دخلوا عليه فأنشدوه من وراء حجاب، فاستحسن اقوال بعضهم، فأمر برفع الحجاب وظهر لهم وأمر لأحدهم بعشرة آلاف دينار وأعطى الباقين ألفين ألفين (ذيل الامالي للقالي ص ٤١) .

ودخل عليه رجل من اهل الشام فاعجبه كلامه فقال : يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة الف درهم، فحملت معه (ذيل الامالي للقالي ص ٢٢٨) .

ودخل عليه فتى من بني حزم فذكر له ما فعل بنو امية بقومه وأنشده شعراً

واقد فرق على جماعة من اهل بيته عشرة آلاف الف درهم . ذكر ذلك الهيثم بن عدي والمدايني . وحدثني بعض اصحابنا عن ابيه عن زيد[1] مولى عيسى بن نهيك[2] قال : دعاني المنصور بعد موت مولاي فقال :

للاحوص كان سبباً في حرمانهم من أموالهم منذ ستين سنة . فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم كتب إلى عماله برد ضياع آل حزم عليهم وإعطائهم غلاتها في كل سنة من ضياع بني امية ، وتقسيم أموالهم بينهم على كتاب الله على الناسخ ، ومن مات منهم وفر على ورثته . فانصرف الفتى بما لم ينصرف به احد من الناس . (طبري سلسلة ٣ ص ٤٢١) .

(١) سماه في محاسن الملوك (يزيد) .

(٢) كان الامير عثمان بن نهيك على حرس المنصور . فلما مات سنة ١٤٠ في فتنة الراوندية ، استعمل الخليفة اخاه عيسى هذا على حرسه . وكان ذلك بالهاشمية . وهنالك ابن نهيك آخر استعمله المهدي وامره بضرب بشار بن برد حتى قتله . واما ابراهيم بن عثمان بن نهيك فقتله الرشيد لانه كان يبكي على قتل جعفر البرمكي وعلى ما وقع للبرامكة . فكان إذا أخذ منه الشراب ، يقول لغلامه : هات سيفي ! فيسله ويصيح : واجعفراه ! ثم يقول : لآخذن ثأرك ، ولأقتلن قاتلك ! فنم عليه ابنه عثمان للفضل بن الربيع فأخبر الرشيد ، فكان ذلك سبب قتله . (ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨٤ و « شذرات الذهب » ج ١ ص ٢٣٠ و « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٥٢٤) وروى صاحب « المحاسن والمساوىء » رواية اخرى في وشاية الولد بأبيه للرشيد (ص ٥٩٢) .

يا زيد ! قلت : لبيك يا امير المؤمنين ! قال : كم خلف ابو زيد من المال ؟ قلت : الف دينار او نحوها . قال : فأين هي ؟ قلت : انفقتها الحرة [1] في مأتمه . قال : فاستعظم ذلك ، وقال . انفقت في مأتمه الف دينار ! ما اعجب هذا ! ثم قال : كم خلف من البنات ؟ قلت ستاً . فاطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال : اغد الى باب المهدي . فغدوت فقيل لي : معك بغال ؟ فقلت لم اومر باحضار بغل ولا غيره ، ولا ادري لم دعيت . قال : اعطيت ثمانين ومائة الف دينـــار ، وامرت ان ادفع لكل واحدة من بنات عيسى ثلاثين الف دينار . ففعلت . ثم دعاني المنصور فقال : قبضت ما امرنا به لبنات ابي يزيد ؟ قلت نعم يا امير

واما لفظ « نهيك » فهو « مشتق من النهاكة وهي الجرأة والاقدام يقـــال : انتهك فلان فلانا اذا نال من عرضه وشتمه . ومنه : انتهاك المحارم ، ونهكته الحمى اذا أضرت به ، وأنهكه عقوبة إذا أوجعه ضربا . » (الاشتقاق لابن دريد ص١٢٨)

(١) هذا اللقب كان يعطى عادة في ايام الدولة الاموية والعباسية لنساء الامراء والاشراف والسادات والاكابر . فلمـــا تغلبت الدولة التركية في العراق ، وفي مصر خصوصاً ، صار لقب نساء الملوك « خونده » « خاتون » « آدر (جمع دار) » وهذا اللقب كان خاصا بمصر في زمان المماليك . وفي عصرنا هـــذا نقول « حرم . » و « هانم » وهما لقبان يطلقان على نساء الاكابر . (انظر ص ١٢١ من كتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » المطبوع في باريس) .

المؤمنين ! قال : اغد علي باكفائهم حتى ازوجهن منهم . قال : فغدوت عليه بثلاثة من ولد العكي [1] وثلاثة من آل ناهيك من بني عمهن . فزوج كل واحدة منهن على ثلاثين الف درهم ، وامر ان يجعل صداقهن من ماله . وامرني ان اشتري بما امر لهن ضياعاً يكون معاشهن منها .

فهل سمع هذا الجاهل الخائن بمثل هذه المكارم لعربي او عجمي ؟ ولو اردنا ان نذكر محاسن المنصور على التفصيل والتقصي لطال بها الكتاب و كثرت فيه الاخبار .

وقلما استعملت العامة و كثير من الخاصة التمييز ، ايثاراً للتقليد . اذ كان اقل في الشغل وادل على الجهل واخف في المؤونة . وحسبك من جهل العامة انها تفضل السمين على النحيف ، وان كان السمين مأفونا [2] والنحيف ذا فضائل ؛ وتفضل الطويل على القصير ، لا للطول

---

(١) الظاهر ان العكي المذكور هنا هو مقاتل بن حكم العكي الذي استخلفه المنصور على حران ، وقد حاصره بها عبد الله بن علي عم المنصور ثم قتله . فهو اذن من اولياء المنصور . (انظر الطبري سلسلة ٣ ص ٩٣ و ٩٤)

(٢) المأفون الضعيف الرأي والعقل .

ولكن لشيء آخر لا ندري ما هو ، وتفضل راكب الدابة على راكب البغل وراكب البغل على راكب الحمار ، اقتصاراً على التقليد اذ كان اسهل في المأتى واهون في الاختيار .

الادب في اعتلال الملك ونظام التشريفات

ومن حق الملك – اذا اعتل – ان لا تطلب خاصته الدخول عليه في ليل ولا نهار ، حتى يكون هو الذي يأمر بالاذن لمن حضر ، وان لا يرفع اليه الحاجب اسماءهم مبتدئاً حتى يأذن له بالدخول ، فمن حقه ان لا تدخل عليه الطبقة العالية مع التي دونها ، ولا يدخل عليه من هذه الطبقة جماعة ، ومن غيرها جماعة . ولكن على الحاجب ان يحضر الطبقات الثلاث كلها او من حضر منها ، ثم يأذن للعليا جملة . فاذا دخلت ، قامت بحيث [1] مراتبها ، فلم تسلم عليه فتحوجه الى رد السلام ، فاذا علمت انه قد لاحظها ، دعت له دعاء يسيراً موجزاً ، ثم خرجت . ودخلت التي تليها ، فقامت على مراتبها اقل من قيام الاولى

---

(١) في نسخة : بجنب

ودعت دعاء اقل من دعاء الاولى. ثم دخلت بعدهما الثالثة، فكان حظها ان يراها فقط. وليس من عادة الملوك وقوف هذه الطبقة الثالثة تتأمل الملك وتدعو له وتنظر اليه. وانما مراتبها ان يراها فقط.

ومن حق الملك ان لا ينصرف احد من هذه الطبقة الى رحله الا في اليوم الذي كان فيه ينصرف في صحة الملك. وبالحرى ينبغي ان لا يبرح فناء سيده ومالكه، انتظاراً لافاقته من علته وفحصاً عن ساعات مرضه.

جوائز البطانة وصلاتهم

ومن الحق على الملك تعهد بطانته وخاصته بجوائزهم وصلاتهم، ان كان ذلك يكون مشاهرة او مساناة.

ومن اخلاق الملك ان يوكل بادكاره صلاتهم، ولا يحوج احداً منهم الى رفع رقعة او اذكار او تعريض. فان هذا ليس من اخلاق المتيقّظ من الملوك.

سنة ملوك ساسان في الجوائز

وكانت ملوك آل ساسان يفعلون في هذا فعلا بقي لهم ذكره الى هذه الغاية والى انقضاء مدة العالم .

فكان الملك منهم يقدر للرجل من خاصته وبطانته تقديراً وسطاً بين الاسراف والاقتصاد في مُؤَنِهِ كلها ، وحوائجه خاصها وعامها . فاذا كان التقدير ـ على الجهة التي وصفنا ـ عشرة آلاف درهم في الشهر ، وكانت للرجل ضيعة ، امر ان يدفع اليه في كل ثلاثين ليلة عشرة آلاف درهم لأنزاله [1] ونفقاته وحوائجه . ويقول له الملك : « قد علمنا ان الضيعة التي افدتها هي مما تقدم من صلاتنا لك وقد تسلفنا شكر تلك النعمة منك ؛ وليس من العدل ان تكون في خدمتنا ، وتكون نفقتك من شيء افدته بشكر قد تقدم وحرمة قد تأكدت . فليكن ما اثمرت لك ضيعتك ظِهْرِيًّا لنوائب الزمان وتخرم الايام وانقلاب الدول وحوادث الموت . ولتكن مُؤَنُك وكُلَفُك على خاص اموالنا . »

(١) الانزال (جمع نزل) : القوم النازلون على الانسان ، او ما هيء للضيف ان ينزل عليه ، كما في تاج العروس .

وكذلك الطبقات على هذا النظام والاحكام. فيمضي على احدهم عشرون سنة لا يفتح فاه بطلب درهم ولا غيره، منبسطاً لزمانه مبتهجاً بنعم ملكه مسروراً بما يكفي عن التذكار وشكوى الحال.

هدايا المهرجان والنيروز من الملك وله

ومن حق الملك هدايا المهرجان [١] والنيروز [٢].

والعلة في ذلك انهما فصلا السنة.

فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد، والنيروز اذن بدخول فصل الحر. الا ان في النيروز احوالا ليست في المهرجان. فنها استقبال السنة وافتتاح الخراج وتولية العمال والاستبدال وضرب الدراهم

(١) كلمتان فارسيتان معناهما محبة الروح.

(٢) كلمتان فارسيتان معناهما اليوم الجديد اي رأس السنة.

والدنانير وتذكية بيوت النيران وصب الماء وتقريب القربان[1] واشادة البنيان وما اشبه ذلك.

فهذه فضيلة النيروز على المهرجان.

ومن حق الملك ان يهدي اليه الخاصة والعامة.

والسنة في ذلك عندهم ان يهدي الرجل ما يحب من ملكه، اذا كان في الطبقة العالية. فان كان يحب المسك، اهدى مسكاً لا غيره، وان كان يحب العنبر، اهدى عنبرا، وان كان صاحب بزة ولبسة[2] اهدى كسوة وثيابا، وان كان الرجل من الشجعاء والفرسان، فالسنة ان يهدي فرساً او رمحا او سيفا، وان كان راميا، فالسنة ان يهدي نشابا، وان كان من اصحاب الاموال، فالسنة ان يهدي ذهباً او

---

(١) في نسخة: والاخذ بالاسفند. (والذي في المعجم الفارسي العربي والانكليزي لرتشاردصن ان الاسفند هو اسم اليوم الثالث من الخمسة الايام التي يضيفها الفرس لآخر الشهر الثاني عشر من السنة. ولما كان الشهر عندهم ثلاثين يوماً فهم يضمون خمسة ايام على آخر الشهر من السنة ليجعلوها معادلة للسنة الشمسية. وربما كان الجاحظ يشير الى حفلة خاصة بالفرس في ذلك اليوم بتقريب القربان)

(٢) في نسخة: صاحب كسوة وثياب.

فضة ، وان كان من عمـال الملك ، و كانت عليه موانيذ[1] للسنة الماضية ، جمعها وجعلها في بدر حرير صيني وشريحات فضة وخيوط ابريسم وخواتيم عنبر ثم وجهها .

و كذلك ، انمـا كان يفعل من العمال من اراد ان يتزين بفضل نفقاته او بفضل عُمالته او اداء امانته .

---

(١) وردت هذه الكلمة في كتاب « المعرب من الكلام الاعجمي » للامام الجوالقي (طبع العلامة الالماني سخاو بمدينة ليبسك سنة ١٨٦٧ في صفحة ١٤٣) وقد استشهد عليها ، بقول الفرزدق .

« خَرَاجُ مَوانِيذِ عَلَيْهِمْ كَثِيرةٍ   تُشَدُّ لَهَا أَيْدِيهِمْ بالعوائقِ »

وهذا البيت من قصيدة طويلة في مدح عمر بن هبيرة الفزاري ، ضمن ديوان الفرزدق الذي طبعه باللغة العربية وترجمه الى الفرنسية العلامة المستشرق المسيو بوشيه في باريس سنة ١٨٧٠ . (انظر صفحة ٢٣٨ من القسم العربي و ٧١٧ من القسم الفرنسي) . وقد ظن هذا العالم ان الكلمة ربما كان الاصح في كتابتها الدال المهملة بدلا من المعجمة ، وظن انها تعريب كلمة «ماندة» الفارسية وان العرب يجعلون الدال ذالا عند التعريب واما الاصل الفارسي فهو « مانده » من مصدر « مانيدن» بمعنى البقاء . وجمعوا الكلمة بعد تعريبها على « موانيذ » بجعل الدال ذالا جريا على عادتهم في التعريب .

وكان يهدي الشاعر الشعر، والخطيب الخطبة، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضراوات.

وعلى خاصة نساء الملك وجواريه ان يهدين الى الملك ما يؤثرنه ويفضلنه كما قدمنا في الرجال. غير انه يجب على المرأة من نساء الملك – ان كانت عندها جارية تعلم ان الملك يهواها ويسر بها – ان تهديها اليه باكمل حالاتها وافضل زينتها واحسن هيآتها. فاذا فعلت ذلك، فمن حقها على الملك ان يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة، ويعلم انها قد آثرته على نفسها وبذلت له ما لا تجود النفس به وخصته بما ليس في وسع النساء – الا القليل منهن – الجود به.

ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوم قيمة عدل.

فاذا كانت قيمة الهدية عشرة الاف، اثبتت في ديوان الخاصة. فان كان صاحبها ممن يرغب في الفضل ويذهب الى الربح ثم نابته نائبة من مصيبة يصاب بها او بناء يتخذه او مأدبة يأدبها او عرس يكون من تزويج ابن او اهداء ابنة الى بعلها، نظر الى ما له في الديوان (وقد

وكل بذلك رجل يرعى هذا وما اشبهه ويتعهده) ، فاذا كانت قيمة الهدية عشرة الاف ، اضعفت له ليستعين بها على نائبته .

وان كان الرجل ممن اهدى نشابة او درهما او تفاحة او أُتْرُجَّةً ، فان تلك الهدية انما قدمها لتثبت له في الديوان ، ويخبر الملك ان نابته نائبة. فعلى الملك اعانته عليها ، اذا كان من اساورته وبطانته او محدثيه. فاذا رفع للملك ان له في الديوان نشابة او درهما او اترجة او تفاحة امر الملك ان تؤخذ أُتْرُجَّةٌ فَتُمْلَأَ دنانير منظومة ويوجه بها اليه . و كان لا يعطى صاحب التفاحة الا كما يعطى صاحب الاترجة. واما صاحب النشابه فكانت تخرج نشابته من الخزانة وعليها اسمه، فتنصب ويوضع بازائها من كسوة الملك ومن سائر الكساء . فاذا ارتفعت حتى توازي نصل النشابة ، دعي صاحبها فدفعت اليه تلك الكسوة .

و كان من تقدمت له هدية في النيروز والمهرجان (صغرت ام كبرت ، كثرت ام قلت) ، ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبة تنوبه او حق يلزمه ، فعليه ان يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه ، وان لا يغفل عن احياء السنة ولزوم الشريعة . وان غفل عن امره بعارض يحدث ، فان ترك ذلك على عمد ، فمن سنة الملك ان يحرمه ارزاقه لستة اشهر ، وان يدفعها الى عدو ، ان كان له . اذ اتى شيأ فيه شين

على الملك وضَعَةٌ في المماكة .

وكان اردشير بن بابك وبهرام جور وانو شروان يأمرون باخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنيروز من الكسى فتفرق كلها على بطانة الملك وخاصته ، ثم على بطانة البطانة ، ثم على سائر الناس ، على مراتبهم .

وكانوا يقولون : ان الملك يستغني عن كسوة الصيف في الشتاء ، وعن كسوة الشتاء في الصيف ، وليس من اخلاق الملوك ان تُخَبَّأ كسوتها ، في خزائنها ، فتساوي العامة في فعلها .

فكان يلبس في يوم المهرجان الجديد من الخز والوشي والملحم . ثم تفرق كسوة الصيف على ما ذكرنا .

فاذا كان يوم النيروز ، لبس خفيف الثياب ورقيقها ، وامر بكسوة الشتاء كلها ففرقت .

امير مسلم اقتدى بالفرس في تفريق كسوته

ولا نعلم ان احداً بعدهم اقتفى آثارهم ، الا عبد الله بن طاهر ، فاني سمعت من محمد بن الحسن بن مصعب يذكر انه كان يفعل ذلك

في النيروز والمهرجان ، حتى لا يترك في خزائنه ثوبا واحدا الا كساه وهذا احسن ما حكي لنا من فضائله .

لهو الملوك

ومن اخلاق الملوك اللهو .

غير ان اسعدهم من جعل للهوه وقتاً واحداً ، واخذ نفسه بذلك. فانه اذا فعل ذلك ، استطاب اللهو والهزل والمفاكهة . واذا ادمن ذلك خرج به اللهو من بابه حتى يجعله جدا لا هزل فيه ، وحقاً لا باطل معه، وخُلقا لا يمكنه الانصراف عنه .

وليس هذا صفة الملك السعيد .

ترك الادمان في الملاذ

ومن ادمن شيأ من ملاذ الدنيا ، لم يجد له من اللذة وجود القَرِم النَّهِم المشتاق .

وهذا قد نراه عيانا . وذلك ان الذ الطعام واطيبه ما كان على

جوع شديد ، والذ الجماع واطيبة ، اذا اشتد الشبق وطالت الغربة ، والذ النوم وأهناه ما كان بعقب التعب والسهر .

وعلى هذا جميع ملاذ الدنيا .

فالملوك الماضية انما جعلت للملاذ وقتاً واحداً من اليوم والليلة ، لهذه الفضيلة التي فيها .

فعلى الملك السعيد ان يقسم يومه أقساماً . فأوله لذكر الله تعالى وتعظيمه وتهليله ، وصدره لرعاياه واصلاح امرها ، ووسطه لاكله ومنامه ، وطرفه للهوه وشغله . وان لا يثابر على ادمان الشغل في كل يوم . وان طالت هذه الاقسام بمواضعها ، فلا يجد للهو لذته ، ولا للنعيم موضعه الذي هو به .

سيرة الملوك والخلفاء في الشرب

وكانت الملوك الماضيـة من الاكاسرة تشرب في كل ثلاثه ايام يوماً ، الا بهرام جور والاردوان الاحمر[1] وسابور . فانهم كانوا

(١) لعل الصواب : الاصغر .

يدمنون الشرب في كل يوم .

وكان ملوك العرب (كالنعمان) وملوك الحيرة وملوك الطوائف اكثرها يشرب في كل يوم وليلة مرة[1] .

وكان من ملوك الاسلام ، من يدمن على شربه ، يزيد بن معاوية . وكان لا يمسي الا سكران ، ولا يصبح الا مخموراً .

وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء[2] هو او في الماء ، ويقول : « انما أقصد في هذا الى اشراك العقل ، وتقوية مُنَّة الحفظ ، وتصفية[3] موضع الفكر . » غير انه كان اذا بلغ آخر هذا السكر[4] افرغ ما كان في بدنه حتى لا يبقى في اعضائه منه شيء . فيصبح خفيف البدن ، ذكي العقل والذهن ، نشيط النفس ، قوي المنة .

وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً .

---

(١) في نسخة : في كل جمعة يوماً وليلة .

(٢) في نسخة : الارض .

(٣) في نسخة : وتقويته وتصفيته .

(٤) في نسخة : آخر حد السكر .

وكان سليمان (بن عبد الملك) يشرب في كل ثلاث ليال ليلة .

ولم يشرب عمر بن عبد العزيز منذ افضت اليه الخلافة الى ان فارق الدنيا ، ولا سمع غناء .

وكان هشام يسكر في كل جمعة .

وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشرب . فأما يزيد بن الوليد ، فكان دهره بين حالين ، بين سكر وخمار ، ولا يوجد ابداً الا ومعه احدى هاتين .

وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت .

وكان أبو العباس (السفاح) يشرب عشية الثلاثاء وحدها ، دون السبت [1] .

وكان المهدي والهادي يشربان يوماً ، ويدعان يوماً .

وكان الرشيد يشرب في كل جمعة مرتين . وربما قدم ايامه واخرها . على انه لم يره احد قط يشرب ظاهراً . الا انه كان يقعد هذين اليومين لندمائه .

وكان المأمون في اول ايامه يشرب الثلاء والجمعة . ثم ادمن الشرب عند خروجه الى الشام في سنة خمس عشرة (ومائتين) الى ان توفي .

(١) في نسخة : وحدها في كل جمعة .

وكان المعتصم لا يشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة .

وكان الواثق ربما أدمن الشرب وتابعه . غير انه لم يكن يشرب في ليلة الجمعة ولا يومها .

لبس الملوك

واخلاق الملوك تختلف في اللبسة والطيب .

فمن الملوك من كان لا يلبس القميص الا يوماً واحداً او ساعة واحدة . فاذا نزعه لم يعد الى لبسه .

ومنهم من كان يلبس القميص والجبة اياماً ، فاذا ذهب رونقه رمى به فلم يلبسه بعد .

فأما أردشير بن بابك ويزدجرد وبهرام وكسرى ابرويز وكسرى انو شروان وقباذ ، فانهم كانوا يلبسون القميص ويغسل لهم . فاذا غسل ثلاث عركات[1] لم يغسل بعدها ، وجعل في الخلع التي تخلع على الولد والقرابات والعم وابن العم والاخ . ولم يكونوا يخلعون ما قد لبسوه الا على القرابات من اهل بيت المملكة خاصة ، ولا يجاوزونهم

(١) اي مرات والعركة المرة الواحدة .

الى غيرهم . فاما الخلع التي تقطع وتتخذ للطبقات وسائر الناس، فتيك صنف آخر .

وكان ملوك العرب منهم من يلبس القميص مراراً ويغسل له غسلات : معاوية وعبد الملك وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام ومروان بن محمد وابو العباس وابو جعفر والمأمون .

فاما يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد والمهدي والهادي والرشيد والمعتصم والواثق فانهم كانوا لا يلبسون القميص الا لبسة واحدة، الا ان يكون الثوب نادراً معجباً غريباً .

فأما الجباب والاردية ، فلم تزل الملوك تلبسها السنة او اكثر ايام السنة . ومنهم من كان يلبس الجبة والمطرف [1] السنين الكثيرة . وليس الجباب والارديه كالقميص والسراويل لان القميص والسراويل هما الشعار ، وسائر الثياب الدثار . ولذلك كره من كره اعادة لبسها .

---

(١) هو رداء من خز مربع له اعلام ولم يذكره دوزي في «معجم أسماء الثياب عند العرب» .

تطيب الملوك

واخلاق الملوك في العطر ومس الطيب وتغلل الغالية [1] تختلف .

فمن الملوك من اذا مس الطيب وتغلل [2] بالغالية لم يعد الى مس طيب ما دام عبقها في ثوبه .

ومن الملوك من كان اذا مس الطيب وتغلل بالغالية فتضوعت منه وعلقت بثيابه ، امر بصب ماء الورد [3] على رأسه حتى يسيل . فاذا كان من غد ، فعل مثل ذلك .

فاما من كان لا يمس طيباً ما دام يجد عبق الطيب في ثيابه : فاردشير بن بابك وقباذ (بن فيروز) بن يزدجرد و كسرى ابرويز

---

(١) قال ابو نصر : سألت الاصمعي هل يجوز تغلفت من الغالية ؟ قال : ان اردت انك ادخلتها في لحيتك او شاربك ، فجائز . وكذلك غلت بها لحيتي ، شدد للكثرة . صحاح .

(٢) في تاج العروس : غل الدهن في رأسه ادخله في اصول شعره ، وغل شعره بالطيب ادخله فيه .

(٣) في نسخة : الماورد . (وقد استعمل الكتاب هذا التركيب المزجي ونسبوا اليه فقالوا : الماوردي)

وكسرى انوشروان ، ومن ملوك العرب : معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام ومروان (بن محمد) ، ومن خلفاء بني العباس : ابو العباس وابو جعفر والمأمون .

وكان المعتصم قلما يمس الطيب . وكان يذهب في ذلك الى تقوية بدنه واعانته على شدة البطش والايد . واما في ايام حروبه ، فكان من دنا منه وجد رائحة صدأ السلاح والحديد من جسمه .

زيارة الملوك تكريماً لرجالهم ، وانواعها

ومن اخلاق الملوك الزيارة لمن خص بالتكرمة منهم وآثروه المنزلة ورفع المرتبه .

وزيارة الملك على اربعة اقسام : فمنها الزيارة للمطاعمة والمنادمة ، ومنها الزيارة للعيادة ومنها الزيارة للتعزية في المصيبة [1] ، ومنها الزيارة للتعظيم فقط .

---

(١) اتفق مثل هذا الصنيع الجميل ، لاحد السابقين من ملوك النيل ، وهو السلطان الملك الناصر حسن صاحب الجامع الاشهر القريب من القلعه . وذلك أنه في يوم

واكبر هذه الاقسام وارفعها ذكراً الزيارة للتعظيم .

لان هذه الاقسام الثلاثة اكثر ما تقع وتتفق بسؤال المزور الملك وتلطفه في ذلك .

وربما رفع الملك مرتبة الوزير وخصه وقدمه على سائر بطانته ، فيكون من حيل الوزير ان يتعالل فيعوده الملك ، فيظهر للعامة منزلته عنده وتكرمته اياه وايثاره له .

وايضاً فقل ملك سأله وزيره او صاحب جيشه او احد عظمائه زيارته الا اجابه الى ذلك ، و (لا) سيما اذا علم ان غرضه في ذلك الزيادة في المرتبة والتنويه بالذكر .

الاثنين ١١ شعبان سنة ٧٨٥ هـ حاول احد المماليك اغتيال رئيس الحكومة وصاحب الحل والعقد في ديار مصر ؛ واعني به الاتابكي سيف الدين شيخو العمرى (وهو اول من تلقب باسم امير كبير ؛ وكانت وظيفته إذ ذاك تعادل رياسة مجلس النظار في أيامنا هذه) ، فضربه وهو في الايوان في يوم الموكب بالسيف في وجهه ثلاث ضربات . فوقع الاتابكي إلى الأرض مغشياً عليه . فحملوه الى بيته وبه بعض رمق وهنالك ضمدوا جراحاته . فنزل السلطان من القلعة في اليوم التالي وذهب بموكبه إلى داره وترجل عن فرسه وواسى رئيس حكومته . ولكن الاتابكي مات يوم الجمعة ١٦ ذي القعدة من السنة المذكورة . فاحتفل السلطان بجنازته وحضرها بنفسه وصلى عليه قبل دفنه . (راجع ابن إياس ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥)

فاذا كانت الزيارة من الملك على احد هذه الاقسام الثلاثة ، فهي منزلة كان صاحبها يحاولها فبلغها ، وامنية طلبها فادركها

فاما الزيارة للتعظيم ، فانها لا تقع بسؤال ولا بارادة المزور . اذ كان ليس من اخلاق وزير ولا شريف ان يقول للملك : زرني لتعظِمَني ، ولترفع في الناس من ذكري وقدري .

فاذا كان ذلك من الملك ابتداء ، فقد علمنا ان تلك ارفع مراتب الوزراء ، وافضل درجات الاشراف .

وكان اردشير وانوشروان اذا زارا وزيراً من وزرائهما او عظيما من عظمائهما للتعظيم لا لغيره ، وارخت الفرس تلك الزيارة ، وخرجت بذلك التاريخ كتبهم الى الآفاق والاطراف .

وكانت سنة من زاره الملك للتعظيم ان تُوغَرَ[1] ضياعه وتوسم خيله ودوابه لئلا تُسخَّرَ ، ولا تُمتَهَنُ . ويأتيه خليفة صاحب الشرطة في كل يوم مع ثلاثمائة راكب ومائة راجل ، يكون ببابه الى

(١) يقال اوغر الملك الرجل الارض : جعلها له من غير خراج ، او هو ان يؤدي الخراج الى السلطان الاكبر فرارا من العمال (قاموس) . وهذا المعنى الثاني هو الذي اراده الجاحظ ، لقوله بعد ذلك بخمسة اسطر : « ويوغر عليه وظيفة ما عليه من خراج ارضه حتى يكون هو الحامل له » .

الى غروب الشمس . فان ركب كانت الرجالة مشاة امامه، والركبان من خلفه ، ولا يحبس احـد من حامته وخاصته لجناية جناها ، ولا يحكم على احد من عبيده بحكم ، وان وجب على احد من بطانته حدٌ ، وجه به اليه ليرى فيه رأيه ، ويؤخر عليه وظيفة ما عليه من خراج ارضه حتى يكون هو الحـامل له ، وتقدم هداياه في النيروز والمهرجان على كل هدية وتعرض على الملك ، ويكون اول من يأذن له الحاجب ، ويكون من الملك اذا ركب عن يمينه منزوياً ، وتكون مرتبته اذا قعد عن يمينه ، واذا خرج من دار المملكة ، لم يقعد بعده احد .

وكانت ملوك آل ساسان لا تزور احداً لعلة من هذه العلل التي قدمنا ذكرها ، فينصرف [1] بخلعة او طيب او تحفة او هدية من جارية او غلام . غير انه كان اذا نزل الملك ، وطأ لرجله [2] فرساً رائعاً بسرج مُذَهَبٍ واداة تامـة ، فقدم اليه اذا اراد الانصراف . فكان الامر كذلك ، حتى ملك بهرام بن يزدجرد . فكان ينادم الاساورة

(١) لعله . فتنصرف . وبقية الكلام يدل على ان الضمير هنا يرجع للملوك ولعل الفاعل مقدر ويكون المعنى : فينصرف الملك منهم .

(٢) اي : وطأ المزور لرجل الملك الزائر .

من ابناء اهل الشرف ، فيخلع [1] عليه في كل ساعة خلعة مجـددة ، ويشتهي الزامرة والمغنية والرقاصة فيأخذها . وكان اول من اطلق يده في ذلك ، لغلبة اللهو عليه وايثاره هواه .

فاما من كان من ملوكهم قبله، فعلى الامر الذي ذكرنا والحكاية التي ادينا

استقبال الناس في الاعياد

ومن اخلاق الملك القعود للعامة يوماً في المهرجـان ، ويوما في النيروز . ولا يحجب عنه احد في هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف [2] .

وكان الملك يأمر بالنداء قبل قعوده بايام ، ليتأهب الناس لذلك . فيهيئ الرجل القصة ، ويهيء الرجل الآخر الحجة في مظلمته ، ويصالح الآخر صاحبه اذا علم ان خصمه يتظلم منه الى الملك . فيأمر الموبـذ ان يوكل رجالا من ثقات اصحابه فيقفون بباب العامة ، فلا يمنع احد

(١) اي الاسوار المزور .

(٢) وهذا ايضاً من منقولات الجاحظ عن آيين الفرس .

من الدخول على الملك . وينادي مناديه : « من حبس رجلاً عن رفع مظلمته . فقد عصى الله وخالف سنة الملك ، ومن عصى الله ، فقد اذن بحرب منه ومن الملك . »

التظلم من الملك الى القاضي

ثم يؤذن للناس وتؤخذ رقاعهم ، فينظر فيها . فان كان فيها شيء يتظلم فيه من الملك ، بدىء به اولا ، وقدم على كل مظلمة . ويحضر الملك الموبـذ الكبير والدبيربذ ورأس سدنة بيوت النار ، ثم يقوم المنادي فينادي : « ليعتزل كل من تظلم من الملك ! » فيمتازون . ويقوم الملك مع خصومه حتى يجثو بين يدي الموبذ فيقول له : « ايها الموبذ ، انه ما من ذنب اعظم عند الله من ذنب الملوك ! وانما خولها الله تعالى رعاياها لتدفع عنهـا الظلم وتذب عن بيضة الملك جور الجائرين وظلم الظالمين . فاذا كانت هي الظالمة الجائرة ، فحق لمن دونها هدم بيوت النيران ، وسلب ما في النواويس من الاكفان . ومجلسي هذا منك ـ وانا عبد ذليل ـ يشبه مجلسك من الله غداً . فان آثرت

الله آثرك ، وان آثرت الملك عذبك [1] . » فيقول له الموبذ : « ان الله اذا اراد سعادة عباده ، اختار لهم خير اهل ارضه . فاذا اراد ان يعرفهم قدره عنده ، اجرى على لسانه ما اجرى على لسانك . » ثم ينظر في امره وامر خصمه بالحق والعدل . فان صح على الملك ، شيء اخذه به ، [2] والا حبس من ادعى عليه باطلاً ، ونكل به . ونودي عليه :

---

(١) في «محاسن الملوك» ان الخصم هو الذي يقول ذلك الكلام للقاضي ، لا الملك . (ص ٣٩) .

(٢) في تواريخ الاسلام غرر كثيرة من هـذا القبيل . فالخلفاء وآل بيتهم والملوك ووزراؤهم كانوا يساوون اقل الخصوم في مجلس القاضي ويجري عليهم الحكم الشرعي كما يجري على سائر الناس . فقد تحاكم علي بن ابي طالب امام عمر ابن الخطاب (مستطرف ج ١ ص ١١٨) ثم تحاكم وهو خليفة مع ذمي امام القاضي شريح (ابن خلكان في ترجمة شريح) ، وتحاكم هشام الاموي مع صاحب حرسه امام القاضي في دار الخلافة (ابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٣٩) ، وخاصم رجل من حلوان مصر الخليفة عمر بن عبد العزيز وتوجها معا الى مجلس القاضي فساوى بينهما في كل شيء وقضى للرجل عليه (المحاسن والمساوىء ص ٥٢٥ ، وفيها وفيما يليها وقائع اخرى من هذا القبيل لعمر بن الخطاب) ، وتحاكم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن اكثم « محاضرات الراغب » ج ١ ص ١٢٤ و « المحاسن والمساوىء » ص ٥٣٢ « والمستطرف » ج ١ ص ١١٩ ، وتحاكم ابراهيم بن المهدي مع بختيشوع الطبيب عند القاضي احمد بن ابي دؤاد « العقد الفريد » ج ١ ص ٣٣ ، وتحاكم الوزير ابن

الزيات في مجلس القضاء ، وفي دار الوزارة « محاضرات الراغب » ج ١ ص ١٢٣ و ١٢٤ ، وتحاكم الاشعث عنـــد شريح القاضي « العقد الفريد » ج ١ ص ٣٤ . والامر اشهر من ان يذكر ، والوقائع اكثر من ان تحصر .

وابدع من ذلك كله ماجرى بالقاهرة في ايام الايوبيين فقد روى السيوطي انه في سنة ٦٣٩ للهجرة تولى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام المشهور بسلطان العلماء قضاء مصر والوجه القبلي . وكان قدم في هذه السنة من دمشق بسبب ان سلطانها الصالح اسماعيل استعان بالفرنج واعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف ، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له في الخطبة ، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين ابو عمرو بن الحاجب المالكي . فغضب السلطان منهما ، فخرجا الى الديار المصرية ، فأرسل السلطان الى الشيخ عز الدين (وهو في الطريق) قاصداً يتلطف به في العود الى دمشق . فاجتمع به ولاينه ، وقال له : ما نريد منك شيئاً الا ان تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير . فقال الشيخ له : يا مسكين ! « مـــا ارضاه يقبل يدي فضلا عن اقبل يده ! ! ياقوم ، انتم في واد وانا في واد ! والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به ! » فلما وصل الى مصر ، تلقاه سلطانهم الصالح نجم الدين ايوب واكرمه وولاه قضاء مصر . فاتفق ان استاذ داره فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذي كان اليه امر المملكة) عمد الى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناء طبلخاناه ، وبقيت تضرب هنالك . فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين ، حكم بهدم ذلك البناء واسقط فخر الدين ، وعزل نفسه من القضاء . ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان . وظن فخر الدين وغيره ان هذا الحكم لا يتأثر به في الخارج . فاتفق ان جهز السلطان رسولا من عنده الى الخليفة المستعصم ببغداد . فلما وصل الرسول الى الديوان ، ووقف بين يدي الخليفة وادى الرسالة له ، خرج اليه وسأله : هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حملنيها عن السلطان

خر الدين ابن شيخ الشيوخ ، استاذ داره . فقال الخليفة : ان المذكور اسقطه ابن
عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته . فرجع الرسول الى السلطان حتى شافهه
بالرسالة ، ثم عاد الى بغداد واداها . ولما تولى الشيخ عز الدين القضاء تصدى لبيع
امراء الدولة من الاتراك ، وذكر انه لم يثبت عنده انهم احرار ، وان حكم
الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب عندهم ،
واحتدم الامر ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً . وتعطلت
مصالحهم لذلك وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً . فاجتمعوا وارسلوا
اليه . فقال : نعقد لكم مجلساً وننادي عليكم لبيت مال المسلمين ! فرفعوا الامر
الى السلطان ، فبعث اليه . فلم يرجع . فارسل اليه نائب السلطنة بالملاطفة ، فلم يفد
فيه . فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ونحن ملوك
الارض ! والله لاضربنه بسيفي هذا فركب بنفسه في جماعته ، وجاء الى بيت الشيخ
والسيف مسلول في يده . فطرق الباب . فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة
ما رأى ، وشرح له الحال . فما اكترث لذلك . وقال : يا ولدي ابوك اقل من ان
يقتل في سبيل الله ! ثم خرج . فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب
وسقط السيف منها ، وارعدت مفاصله . فبكى وسأل الشيخ ان يدعو له ، وقال :
يا سيدي ، ايش تعمل ! قال انادي عليكم وابيعكم ! قال : ففيم تصرف ثمننا ؟
قال : في مصالح المسلمين ! قال : من يقبضه ؟ قال : انا ! فتم ما اراد ونادى على
لامراء واحدا واحدا ، وغالى في ثمنهم ولم يبعهم الا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه
في وجوه الخير . « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩ (من النسخة المطبوعة على
الحجر بالقاهرة) . وقد روى السبكي هذه الحكاية بتفصيل في ترجمة الشيخ عبد
العزيز في « طبقات الشافعية » (ج ٥ ص ٨٠ - ١٠٧) .

« هذا جزاء من اراد شين الملك ، وقدح في المملكة[1] ! »

فاذا فرغ الملك من مظالمه في نفسه ، قام فحمد الله ومجده طويلاً ، ثم وضع التاج على رأسه وجلس على سرير الملك ، والتفت الى قرابته وحامته وخاصته وقال : « اني لم ابدأ بنفسي فانصف منها الا لئلا يطمع طامع في حيفي . فمن كان قبله حق فليخرج الى خصمه منه ، اما بصلح واما بغيره . »

فكان اقرب الناس الى الملك (في الحق) كأبعدهم ، واقواهم كأضعفهم .

فلم يزل الناس على هذا من عهد اردشير بن بابك ثم هلم جرا حتى ملكهم يزدجرد الاثيم ، فغير سنن آل ساسان وعاث في الارض وظلم الرعايا واظهر الجبرية والفساد ، وقال : « ليس للرعية ان تنتصف من

(١) في نسخة : اراد شر المملكة والقدح فيها بالباطل . (اقتطع صاحب « محاسن الملوك » هنا سياق الكلام ، واضاف حاشية نبه على انها ليست من الخبر وهذا نصها : « وذكر ان احد خلفاء العلويين الفاطميين فعل مثل فعل هذا وجلس بين يدي قاضي القضاة محاكماً لخصم ولم يتحرك له القاضي عند حركته للقعود بين يديه وحكم القاضي بالحق بينه وبين خصمه فلما بت الحكم وقضى به ، وثب مقبلاً للارض ، جالساً دون مجلس الخليفة . فقال : والله ! لو تحرك لي اولاً وخرج عن حكم الحق لضربت عنقه »)

الراعي ، ولا للسوقة ان تتظلم من الملوك ، ولا للوضيع ان يساوي الرفيع في حق ولا باطل . »

العقوبة الربانية للملك الظالم

فذكرت الاعاجم في كتبها وسير ملوكها انه بينا هو قاعد في الايوان – والناس على طبقاتهم ومراتبهم – اذ دخل من باب الايوان فرس مسرج ملجم ، لم ير قط شيء احسن منه منظراً ، ولا اكمل اداة . فاهوى نحو يزدجرد الاثيم فقامت اليه الاساورة لتدفعه عنه . فجعل لا يدنو منه احد الا رمحه [1] فارداه [2] . وهو في خلال ذلك يقصد الى الملك . فقام اليه يزدجرد وقال للاساورة : دعوه ، فانه الي يقصد .

فدنا منه حتى اخذ بمعرفته ؟ فذل له الفرس وتطامن حتى ركبه . فلما جال في متنه ، خطا به خطاً ، ثم رده الى قرار مجلسه ، فنزل عنه

(١) اي رفسه برجله او برجليه . يقال ذلك للفرس والبغل والحمار وكل ذي حافر ، وربما استعير لذي الخف . (تاج العروس)

(٢) اي فاهلكه .

وجعل يمسحه بيده ، مقبلاً ومدبراً . حتى اذا وجد الفرس منه ممكنا وغفلة ، رمحه فاصاب حبة قلبه فقتله . فقالت الفرس : هذا ملك من الملائكة ، جعله الله في صورة فرس ، فبعثه لقتل يزدجرد ، لماظلم الرعية وعاث في الارض .

ما صنعه بهرام جور لاخذ ملك ابية

وكان بهرام جور بن يزدجرد في حجر النعمان بن المنذر ، ملك الحيرة . وضعه ابوه عنده ليتأدب بآداب العرب : يعرف ايامها واخبارها اولغاتها . فبلغه خبر ابيه ، وان الفرس ملكت عليها رجلاً ليس من ابناء ملوكها . فاستنهض النعمان بن المنذر واستنجده . وقال : « ان لي عليك حقاً ، اذ كنت احد اولادك . وان ابي قد مات وملكت الفرس رجلا من غير بيت الملك . فان انت خذلتني ، ذهب ملك آل ساسان ، » فقال له النعمان : « ما انا وآل ساسان ، وهم الملوك وانا رعية ؟ ولكني اخرج معك في جيشي لتقوى نيتك وتصح عزمتك . ثم انت اولى بقومك ، وهم اولى بك . » قال : فهذا اريد .

فخرج النعمان مع بهرام حتى صار بالمداين ، وبلغ الفرس قدومها فخرجوا الى بهرام ، فقالوا : ما تريد ؟ فقال : ملك ابي وارث آل ساسان . قالوا : ان اباك سامنا العذاب ايام مدته ، فانفرد الله بقتله . فلا حاجة لنا في احد من عقبه . فقال بهرام : ان جور ابي وظلمه لا يُلزِمُني لائمة ولا يُكسِبُني ذماً . وانتم لم تخبروني ، فيجب علي حمداو ذم قالوا :فانا قد اقمنا رجلاً نرضاه . فقال:ان هذا فساد في صلب المملكة ان تملكوا من ليس من اهلها . فاذا فعلتم ، فامتحنوني وهذا الرجل بِمحنة توجب المملكة . قالوا وما هي ؟ قال : تعمدون الى اسدين ضاريين فتجمعونها في موضع واحد ، وتضعون تاج المملكة بينها ، وتقولون لهذا الذي ملكتموه امر كم ياخذه من بينها . فان فعل فهو احق بالملك واولى . وان ابى ان يفعل ، وفعلت انا ذلك ، كنت احق بالملك منه . قالوا: نعرض عليه هذا .

فقالوا ذلك له ، فقال : ما اقدر على هذا، ولكن قولوا له فليفعل فان اخذ التاج من الاسدين فهو احق بالملك واولى .

فاخذوا التاج وعمدوا الى اسدين فاجاعوهما ثم وضعوا التاج بينهما

وقالوا لبهرام : شأنك ! فنزل بهرام عن فرسه واخذ الطبرزين[1] ومضى نحوهما. ثم بدا له فجعل الطبرزين في منطقته ودنا من الاسدين فاهويا نحوه ، فاخذ برأس احدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به حتى قتلهما جميعاً . وشد على التاج فاخذه من موضعه فجعله على رأسه .

فملكته الفرس امرهم ، وانصرف النعمان الى الحيرة . وسار بهرام سيرة حسنة وعـدل فيهم ، حتى كان احب اليهم من جميع ملوك آل ساسان .

الا ان اللهو واللعب كان اغلب احواله عليه .

استقصاء الملك لاحوال رعيته

ومن اخلاق الملك السعيد البحث عن سرائر خاصته وحامته ، واذكاء العيون عليهم خاصة وعلى الرعية عامة .

---

(١) جمعه طبرزينات (انظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٨) . وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسية (تبر ، تير) ومعناها الفأس : وهي آلة للقتال عبارة عن عمود له حدان ، وكانوا يعلقونها في السرج ليستخدمهـا الفارس في وقت النزال والبراز .

وانما سمي الملك راعياً ليفحص عن دقائق امور الرعية وخفي نياتهم . ومتى غفل الملك عن فحص اسرار رعيته والبحث عن اخبارها ، فليس له من اسم الراعي الا رسمه ، ومن الملك الا ذكره .

فاما الملك السعيد ، فمن اخلاقه البحث عن كل خفي ودفين حتى يعرفه معرفة نفسه عند نفسه ، وان لا يكون شيء اهم ولا اكبر في سياسته ونظام ملكه من الفحص عما قدمنا ذكره .

الملوك والخلفاء الذين اشتهروا بذلك

ولم ير ملك قط كان اعجب في هذا الامر من اردشير بن بابك . ويقال انه كان يصبح فيعلم كل شيء بات عليه من كان في قصبة دار مملكته من خير او شر ، ويمسي فيعلم كل شيء اصبحوا عليه . فكان متى شاء قال لارفعهم واوضعهم : كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت [1] . ثم يحدثه بكل ما كان فيه الى ان اصبح .

(١) بفتح التاء ، وبكسرها كذا وكذا .

فيقال ان بعضهم كان يقول انه كان يأتيه ملك من السماء فيخبره وما كان ذلك الا لتيقظه و كثرة تعهده لامور رعيته.

ثم كان فيمن نأى من اهل مملكته على مثل هذه الحال.

فيقال ان الامم كلها، اولها وآخرها، وقديمها وحديثها، لم تخف احدا من ملوكها خوفها اردشير بن بابك من ملوك الاعاجم ومن كان قبلهم، وعمر بن الخطاب من خلفاء الاسلام.

فان عمر كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحــد، وعلى وساد واحد. فلم يكن له في قطر من الاقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا امير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده. فكانت الفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسي ومصبح. وانت ترى ذلك في كتبه الى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم اقرب الخلق اليه واخصهم به. فساس الرعية سياسة اردشير بن بابك في الفحص عن اسرارها خاصة.

ثم اقتفى معاوية فعله وطلب اثره، فانتظم له امره وطالت له مدته.

و كذا كان زياد ابن ابيه يحتذي فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعل عمر. وفيما يحكى عنه ان رجلا كلمه في حاجة له، فتعرف اليه ـ وهو يظن انه

لا يعرفه _ فقال : اصلح الله الامير ! انا فلان بن فلان . فتبسم زياد وقال : تتعرف الي وانا اعرف بك منك بابيك ؟ والله اني لاعرفك واعرف اباك وجدك وامك وجدتك ، واعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان بن فلان . فبهت الرجل وارعب حتى ارعد (وكاد يغشى عليه) .

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان ؛ والحجاج بن يوسف .

ثم لم يكن بعد هؤلاء احد في مثل هذه السياسه حتى ملك المنصور . فكان اكثر الامور عنده معرفة احوال الناس ، حتى عرف الوليّ من العدو والمداجي من المسالم . فساس الرعية ولبسها [1] ، وهو من معرفتها على مثل وضح النهار .

ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد . فكان اشد الملوك بحثاً عن اسرار رعيته واكثرهم بها عناية واحزمهم فيها امراً .

وعلى نحو هذا كان المأمون ايامه . والدليل على ما قلنا فيه ما شاهدنا من رسالته الى اسحاق بن ابراهيم في الفقهاء واصحاب الحديث وهو بالشام . خبّر فيها عن عيب واحد واحد وعن حالته واموره التي

(١) لبسها أي تملّى بها دهراً طويلا

خفيت ـ او اكثرها ـ عن القريب والبعيد [1].

ثم ما علمت ان احدا ممن كان دون السلطان الاعظم في دهرنا هذا، كان اشدَّ على الاسرار بحثاً واكثر لها فحصاً حتى بلغ من هذا الجنس اقصى حده وآخر نهايته وابعد مداه، وجعله اكثر شغله في ليله ونهاره، الا اسحاق بن ابراهيم [2]. فحدثني موسى بن صالح بن شيخ [3]؟ قال : كلمته في امرأة من بعض اهلنا وسألته النظر لها. فقال : يا ابا محمد! من قصة هذه المرأة ومن حالها ومن فعلها [4]. قال : فوالله! لم يزل يصفها ويصف احوالها حتى بُهِتُّ.

---

(١) كان للمأمون الف عجوز وسبعمائة، يتفقد بهن احوال الناس من الاشقياء ومن يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، وكان لا يجلس الى دار الخلافة حتى تأتيه كلها. وكان يدور ليلا ونهارا مستترا. (محاضرات الاوائل)

(٢) هو المصعبي امير بغداد.

(٣) هو موسى بن صالح بن شيخ (بالشين المعجمة والياء المثناة التحتية والخاء المعجمة) ابن عميرة الاسدي. كان من ندماء الامير اسحاق بن ابراهيم المصعبي امير بغداد.

(٤) يعني : من قصتها كيت وكيت. وقد ترك المؤلف الخبر لانه معلوم. وهذه عادة شائعة بين اكابر الكتاب.

(وحدث ابو البرق الشاعر قال : كان يجري عليَّ ارزاقا فدخلت عليه ، فقال بعد ان انشدته : « كم عيالك ؟ تحتاج في كل شهر من الدقيق الى كذا ومن الحطب الى كذا . » فاخبرني بشيء من امر منزلي مما جهلت بعضه وعلمه كله .)

وحدثني بعض من كان في ناحيته ، قال : رفعت اليه رقعة اسأله فيها اجراء ارزاقي . فقال : كم عيالك ؟ فزدت في العدد . فقال : كذبت ! فبهت وقلت في نفسي . يا نفس من اين علم اني كذبت ! فاقمت سنة لا اجترىء على كلامه . ثم رفعت اليه رقعة اخرى في اجراء ارزاقي . فقال : كم عيالك ؟ فقلت : اربعة . فقال : صدقت . فوقع في حاشية رقعتي : يجري على عياله كذا و كذا .

ولولا ان يطول كتابنا في اسحاق وذكره ، لحكينا عنه اخباراً كثيرة . وهي من هذا الجنس ، وفيما ذكرناه كفاية .

التمييز بين الاولياء والاعداء

فعلى الملك ان يميز بين اوليائه واعدائه بالفحص عن اسرارهم

« ان الملك تطول مدته اذا كانت فيه اربع خصال :

احداها ، انه لا يرضى لرعيته الا ما يرضاه لنفسه ،

والاخرى ، ان لا يسوف عملاً يخاف عاقبته ،

والاخرى ، ان يجعل ولي عهده من ترضاه وتختاره رعاياه لا من تهواه نفسه ،

والرابعة ان يفحص عن اسرار الرعية ، فحص المرضع عن منام رضيعها . »

وقد نجد مصداق هذا القول ونشهد به . وذلك انا لم نر مدة طالت لملك عربي ولا عجمي قط الا لمن فحص عن الاسرار ، وبحث عن خفي الاخبار ، حتى يكون في امر رعيته على مثل وَضَح النهار .

واجبات الملوك عند الاحداث الخطيرة

ومن اخلاق الملك ، اذا دهمه امر جليل من فتق ثغر او قتل صاحب جيش او ظهور عدو يدعو الى خلاف الملة او قوة مناوي ، ان يترك

ودقيق اخبارهم ، حتى ان امكنه أن يعرف مبيت احدهم ومقيله وما احدث فيهما ، فعل .

فان الرعية لا تسكن قلوبها جلالة ملكها ـ ولو عبدته الجن والانس ودانت له ملوك الامم كلها ـ حتى يكون اشد اشرافاً عليها واكثر بحثاً عن سرائرها ، من أم الفريد[1] عن حركته وسكونه .

بماذا تطول مدة الملك

وايضاً فانه يقال في بعض كتب الاوائل في مواعظ الملوك وآدابها :

---

(١) في نسخة : « سرائرها في الفريد » . وينبغي ان يكون نص هذه الجملة : « ان الملك يجب ان تكون عنايته بهذه الامور اكثر من عناية الام بحركة ولدها الوحيد الفريد وبسكونه . » وبذلك يستقيم المعنى وينسجم الكلام . (يؤيد هذا التخريج قول الجاحظ بعد ذلك بستة سطور : « والرابعة ان يفحص عن اسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها . »)

الساعات التي فيها لهوه ويجعلها وسائر الساعات في تدبير مكايدة عدوه وتجهيز جنوده وجيوشه ، وان يصرف في ذلك شغله وفكره وفراغه (على مثل ما فعل من مضى من ملوك الاعاجم وغيرها) ولا يجعل للتسويف والتمني وحسن الظن بالايام نصيبا .

فان هذا عجز من المِلك ووهن يدخل على المُلك .

سنة الاعاجم اذا دهمتهم الكوارث والعظائم

وكانت ملوك الاعاجم ، اذا حزبها مثل هذا ، امرت بالموائد التي كانت توضع في كل يوم ان تُرفَعَ وظائفها ، واقتصرت على مائدة لطيفة تقرب من الملك ويحضرها ثلاثة : احدهم موبذان موبذ والدبيربذ ورأس الاساورة . فلا يوضع عليها الا الخبز والملح والخل والبقل . فيأخذ منه شيأ ومن معه ، ثم يأتيه الخباز [1] بالبزماورد [2]

---

(١) الخباز (هنا وفي كتب المسعودي وفي كتاب الاغاني) معناه خادم المائدة لا بمعنى الذي يصنع الخبز . وذلك هو الذي نسميه الآن بالسفرهجي .

(٢) قال عاصم افندي في ترجمة المعجم الفارسي «برهان قاطع» الى اللغة التركية ما معناه «بزماورد هو طعام يسمى لقمة القاضي ، وفخذالست ، ولقمة الخليفة . وهو مصنوع من اللحم المغلي بالزبد والبيض . ويقال فيه ايضاً بزماورد

في طبق . فيأكل منه لقمة . ثم يرفع المائدة ويتشاغل بتدبير حربه وتجهيز عساكره . ولا تزال هذه حاله حتى يأتيه عن ذلك الفتق ما ما يرتقه ، وعن ذلك العدو ما يجب . فاذا اتاه ، امر ان يتخذ له طعام مثل طعامه الاول ، وامر الخاصة والعامة بالحضور . وقامت الخطباء بالتهنئة له والتحميد لله تعالى بالفتح عليه والنصر له . ثم قام الموبذ فتكلم ، ثم الوزراء بنحو من كلام الخطباء ثم مد الناس ايديهم الى الاطعمة على مراتبهم . فاذا فرغوا ، بسط للعامة ، في ظهر الايوان ، وللخاصة في صحنه بحضرة الملك . وقعد صاحب الشرطة للعامة ، قعود الملك للخاصة . ثم دعا بالمغنين واصحاب الملاهي .

وكانوا يقولون : ان حق شكر النعمة ان يرى اثرها .

بالراء المهملة » . وقال الشهاب الخفاجي في « شفاء الغليل » ما نصه : « زماورد ، والعامة تقول بزماورد . كلمة فارسية استعملها العرب للرقاق الملفوف باللحم . كذا في حواشي الكشاف . وفي القاموس : الزماورد بالضم طعام من البيض واللحم . وفي كتب الادب : طعام يقال له لقمة القاضي ولقمة الخليفة . ويسمى بخراسان نواله ، ويسمى نرجس المائدة وميسر ومهيأ . »

(وكانت الخلفاء والامراء اذا دهمهم امر — فزعوا الى المنابر وحرضوا الناس على الطاعة ولزوم الجماعة.)

ما فعله معاوية ايام صفين

وفيما يذكر عن معاوية انه قال: ما ذقت ايام صفين لحماً ولا شحماً ولا حلواً ولا حامضاً، ما كان إلا الخبز والجبن وخشن الملح (الى ان تم لي ما اردته).

ما فعله عبد الملك عند خروج ابن الاشعث عليه

ويحكى عن عبد الملك بن مروان ان صاحب افريقية اهدى اليه جارية تامة المحاسن، شهية المتأمل. قال: فلما ان دخلت على عبد الملك بن مروان، نظر اليها وفي يده قضيب خيزران. فصعد ببصره اليها وصوبه ثم رمى بالقضيب. وقال: رديه علي فولت. فنظر اليها مقبلة ومدبرة. فقال: انت والله امنية المتمنى. قالت: فما يمنعك يا امير المؤمنين، اذ كانت هذه صفتي عندك؟ قال: بيت قاله الاخطل:

قوم اذا حاربوا ، شدوا مآزرهم دون النساء ، ولو باتت باطهار

وكان هذا في خروج عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث . ثم امر بها ان تصان وتخدم . فلما فُتِحَ عليه ، كانت اول جارية دعا بها .

ما فعله مروان بن محمد عند ظهور العباسيين

ويحكى عن مروان بن محمد الجعدي انه اقام ثلاثين شهراً لم يطأ جارية الى ان قتل . وكان اذا استهدفت اليه الجارية قال : اليك عني! فوالله لا دنوت من انثى ولا حَلَلتُ لها عقد حبوتي وخراسان ترجف بنصر [1]

---

(١) ترجف بنصر اي تضطرب به . وهو نصر بن سيار الذي ولاه هشام بن عبد الملك اقليم خراسان فلم يزل واليا عليه حتى وقعت الفتنة بظهور العباسيين وطلبهم الخلافة على يد صاحب الدعوة ابي مسلم الخراساني. و كتب نصر الى مروان الجعدي آخر الخلفاء الامويين يستنجده بالابيات المشهورة ، وهي :

أرى خَلَلَ الرَّماد وَميضَ نارٍ ويوشك أن يكون له ضِرامُ
فإنَّ النّارَ بالعُودَيْنِ تُذكَى وإنَّ الحربَ أوّلها الكلامُ
فإنْ لم تطفئوها ، تَجْنِ حرباً مشمَّرةً يشيب لها الغلامُ

وأبو مجرم [1] قد أخذ منه بالمُخَنَّق !

أَقُولُ مِنَ التعجب: ليتَ شِعري! ... أأيقاظٌ أُميَّةُ أم نِيامُ؟
فَإن يَكُ قومنا أضحَوا نياماً، ... فقل: قوموا، فقد حان القيامُ!
ففِرِّي عن رحالك ثم قولي: ... على الاسلام والعربِ السلامُ!

وأخباره معروفة، تراها في «مروج الذهب» و «معارف» ابن قتيبة و «وفيات الاعيان» و «فتوح البلدان» وأبي الفداء و «الاغاني» وابن خلدون و «معجم البلدان».

(١) الاشارة هنا الى أبي مسلم الخرساني الذي كان قد ضيق الخناق على نصر بن سيار المذكور في الحاشية السابقة. وقد لقبه مروان بأبي مجرم بدلا من أبي مسلم بمعنى أبي الذنب والاجرام. وقد بقي له هذا النبز في الدولة العباسية. فان المنصور خاطبه بعد ان قتله بقوله:

زعمتَ أن الدَّيْن لا يُقتضى؟ ... فاستوفِ بالكيل، أبا مُجرِمِ!
اشرَبْ بكأسٍ كنت تَسقِي بها، ... أمرَّ في الحلق من العَلقم!

وقال أبو دلامة:

أبا مُجرِمٍ، ما غيَّرَ الله نعمةً ... على عبده حتى يغيِّرها العبدُ!
أفي دولة المنصور حاولتَ غَدرَةً؟ ... ألا انَّ أهل الغدر آباؤكَ الكُرْدُ!
أبا مسلمٍ خوَّفتني القتل فانتحى ... عليك بما خوفتني الأَسَدُ الوَرْدُ!

مكايدة الملوك في الحروب

ومن اخلاق الملوك المكايدة في حروبها

ولذلك كان يقال ينبغي للملك السعيد ان يجعل المحاربة آخر حيله . فان النفقة في كل شيء انما هي من الاموال ، والنفقة في الحروب انما هي من الانفس . فان كان للحيل محمود عاقبة ، فذلك بسعادة الملك ، اذ ربح ماله وحقن دماء جيوشه . وان اعيت الحيل والمكايد ، كانت المحاربة من وراء ذلك .

فاسعد الملوك من غلب عدوه بالحيلة والمكر والخديعة .

وقد روينا عن نبينا (صلى الله عليه وسلم) ما يحقق هذا ويؤكده بقوله : « الحرب خدعة » .

وليس لاحد من الخدع ما لملوك الاعاجم . والاخبار في ذلك عنهم كثيرة . ولكنا نقتصر من ذلك على حديث او حديثين .

خدعة بهرام جور

فمن ذلك ما يذكر عن بهرام جور انه لما ملك بعد ابيه يزدجرد ، بلغه ان ناحية من نواحي اطرافه قد اخذت ، وغاب عليها العدو . فاستخف بها واظهر الاستهانة به حتى قوي امر ذلك العدو واشتدت شوكته . فكان اذا اخبر بحاله ، استخف بامره وصغر من شأنه . حتى قيل انه زحف اليك ووجه جيوشه الى قرار دارك . فقال : دعوه فليس امره بشيء . فلما رأى وزراؤه تهاونه وتراخيه عن امر عدوه واستهانته به ، اجتمعوا اليه فقالوا : ان تراخي الملك عن عدوه ليس من سياسة الملك ولا تدبير المملكة ، وقد قرب هذا العدو من قرار دار الملك ، وامره كل يوم في علو . فقال بهرام : دعوه ، فانا اعلم بضعفه وصغر شأنه منكم . واقبل على اللهو واللعب ، وترك ما يجب عليه من الصمد [1] لعدوه والقصد له . فلما دنا عدوه منه واشرف عليه وخاف الوزراء ورؤساء اهل المملكة اجتياحه ، اجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه واعلامه ما قد اشرفوا عليه

(١) الصمد هو القصد كما فسره المؤلف بعده بواو العطف .

من البوار والهلكة . وبلغه الخبر . فامر مائتي جارية من جواريه ، فلبسن الثياب المصبغة المختلفة الالوان ، ووضعن على رؤوسهن اكاليل الريحان ، وركبن القصب . وفعل بهرام كما فعلن . فلبس من ثيابهن المصبوغة ، وركب قصبة . واذن للوزراء ، فدخلوا عليه . فلما رآهم ، صاح بالجواري . فمررن يخطرن ، وبهرام خلفهن يغني ، وهن يغنين معه ، ويصحن ويلعبن . فلما رأى ذلك وزراؤه يئسوا منه واجتمعوا على خلعه . وبلغه الخبر . فدعا جارية من خاص جواريه ، وقال : لك الويل ان علم احد من اهل المملكة ما اريد ان افعل ! ثم امرها ان تحلق رأسه ، فحلقته . ودعا بمدرعة صوف فتدرعها ، وخرج في جوف الليل ومعه قوسه ونشابه . وتقدم الى الجارية ان تخفي امره وتظهر انه عليل الى رجوعه اليها . ومضى وحده حتى انتهى الى طلائع العدو . فكمن في منار على ظهر الطريق . فجعل لا يمر به طائر في السماء ولا وحش في البر ، الا وضع سهمه منه حيث احب . وجعل يجمع كل ما صاد من ذلك ، فجمعه بين يديه حتى صار كالشيء العظيم . قال : فمر به صاحب طليعة العدو ، فنظر الى امر بهت له . فاخذه وقال : ويلك ! ما انت ومن انت ومن اين انت ؟ قال : ان اعطيتني الامان اخبرتك !

قال : فلك الامان ! قال : انا غلام سائس ، وان مولاي غضب علي ـ وكان لي محسناً ـ فاوجعني ضرباً ونزع ثيابي وحلق رأسي والبسني هذه المدرعة واجاعني . واني طلبت غفلته ، فخرجت اطلب شيئاً اصيده فآكله . فلما اعجبني كثرة ما صدت ، اردت ان ارمي بكل ما معي من هذه السهام ، ثم أنصرِف .

فاخذه فحمله الى الملك فاخبره بقصته . فقال له الملك : ارم بين يدي ! فرمى بين يديه . فكان لا يضع سهمه في طائر ولا غيره الا اصابه حيث اراد . فبهت الملك ، وطال تعجبه . فقال : ويلك ! في هذه المملكة من يرمي رمايتك ؟ فضحك بهرام ، وقال : ايها الملك انا اخسهم رماية واحقرهم قدراً . وعندي جنس آخر من الثقافة[1] . قال : وما هو ؟ قال : ادع لي بابرة . فدعا له بها . فاخذ ابرة فرمى بها على عشرة اذرع ، ثم اتبعها باخرى فشكها ، ثم اتبعها باخرى فشكها كذلك ، حتى جعلها سلسلة قد تعلق بعضها ببعض .

فبهت الملك وملىء قلبه رعباً . فقال له : ويلك ! ملككم هذا جاهل ! اما يعلم اني قربت من قرار داره ؟ فضحك بهرام ، وقال :

---

(١) الحذق والخفه والفطنة .

ان اعطاني الملك الامان نصحته . قال قد اعطيتك الامان . قال : ان ملكنا انما تركك استهانة بأمرك ، وتصغيراً لشأنك ، وعلما بانك لا تخرج من قبضته . ذلك اني اخس من في دار مملكته واخملهم ذكراً فاذا كنت — وانا بهذه الحال — اقتل بألف سهم الف رجل ، فما ظنك بالملك ، وله مائة الف عبد في قرار داره ، اصغرهم شأناً اكبر مني ؟ فقال له الملك : صدقتني فيما قلت ! ولقد خُبّرتُ عن بهرام من تصغيره لشأني واستخفافه بأمري ما طابق خبرك . وما تركني ابلغ هذا الموضع من ملكه الا لما ذكرت .

فامر عظيم جيشه ان يرتحل من ساعته . ونادى في الناس بالرحيل ثم خرج لا يلوي على شيء ، واطلق بهرام . فانصرف بعد ثالثة حتى دخل داره ليلاً . فلما اصبح ، قعد للناس ودخل عليه الوزراء والعظماء فقال : ما عندكم من خبر عدونا هذا ؟ فاخبروه بانصرافه عنهم . فقال : قد كنت اقول لكم انه صغير الشأن ، ضعيف المنة [1] .

ولم يعلم احد منهم ما كانت العلة في انصرافه .

---

(١) اي القوة .

مكايد ابرويز

وكان كسرى ابرويز، بعد بهرام جور، صاحب مكايد وخدع في الحروب ونكاية في العدو.

وكان قد وجه شهر براز [1] لمحاربة ملك الروم، وكان مقدماً عنده في الرأي والنجدة والبسالة ويمن النقيبة. فكان شهربراز قد ضيق على ملك (الروم) قرار داره واخذ بمُخَنَّقِه حتى هم بمهادنته ومل محاربته وطلب الكف عنه. فابى ذلك عليه شهر براز. واستعد له ملك الروم بافضل عدة واتم آلة واحد شوكة، وتأهب للقائه في البحر. فجاءه في جمع لا تحصى عدته. قد اعد في البحر كل ما يحتاج اليه من مال وسلاح وكراع وآلة وطعام وغير ذلك، والسفن مشحونة موقَرَة. فبينا هو كذلك اذ عصفت ريح في تلك الليالي فقلعت اوتاد تلك السفن كلها وحملتها الى جانب شهربراز، فصارت في ملكه. واصبح ملك الروم، قد ذهب اكثر ما كان يملك من الاموال والخزائن

---

(١) في نسخة: شهر براز وفي نسخة اخرى شهربار وقد اورد هذه القصة برواية اخرى في «المحاسن والمساوىء» ص ١٣٦ – ١٣٧. وسمى القائد (شهر براز) على الوجه الصحيح الذي في المتن.

والعدد والسلاح . فوجه شهربراز بتلك الخزائن والاموال الى ابرويز.
فلما رأى ابرويز ما وجه به شهربراز ، كبر في عينه وعظم في قلبه .
وقال : ما نفس احق بطيب الثناء ورفيع الدعاء والشكر على الفعل
الظاهر من شهر براز ! جاد لنا بما لا تسخو به النفوس ولا تطيب به
القلوب ! فجمع وزراءه وامر بتلك الاموال والخزائن فوضعت نصب
عينيه ، ثم قال لوزرائه : هل تعلمون احداً اعظم خطراً وامانة، واحرى
بالشكر من شهربراز ؟ فقامت الوزراء فتكلم كل واحد منهم ، بعد
ان حمد الله وشكره ومجده ، واثنى على الملك وهنأه ، ثم ذكر ما
خص الله به الملك من يمن نقيبة شهربراز وعفافه وطهارته ونبله وعظيم
عنايته . حتى اذا فرغوا ، امر باحصاء تلك الاموال والخزائن . ثم
قام ابرويز فدخل الى نسائه . وكان للملك غلام يقال له زُنْسَته ، وكان
سيء الرأي في شهربراز . فقال : ايها الملك ! قد ملأ قلبك قليل من
كثير ، وصغير من كبير ، وتافه من عظيم ، خانك فيه شهر براز واثر
به نفسه . ولئن كان الملك ، مع رأيه الثاقب وحزمه الكامل ، يظن
ان شهر براز ادى الامانة ، لقد بعد ظنه من الحق وخَسَّ نصيبه [1] .

---

(١) في نسخة : « نفسه » . ولعل الصواب « نصيبه » . قال في القاموس :
« خس نصيبه جعله خسيساً دنيئاً حقيرا . » .

فوقع (في) نفس ابرويز ما قال رسته ، فقال له : ما اظنك الا صادقاً فما الرأي عندك ؟ تكتب اليه بالقدوم وتوهمه ان بك حاجة الى مناظرته ومشاورته في امر لم تجز الكتابة به فانه اذا قدم ، لم يخلف ما يملك وراءه ، اذ كان لا يدري ايرجع الى ما هناك ام لا. فيكون كل ما يقدم به نصب عينيك.

فكتب ابرويز الى شهربراز يأمره بالقدوم عليه لمناظرته ومشاورته في امر يَدِقُّ عن الكتابة والمراسلة.

فلما مضى الرسول ، اردفه برسول آخر وكتب اليه : « اني قد كنت كتبت اليك آمرك بالقدوم لاناظرك في مهم من امري. ثم علمت ان مقامك هناك اقدح في عدوك وانكى له واصلح للملك واوفر على المملكة. فاقم وكن من عدوك على حذر ، ومن غِرّته على تيقظ. فانه من ذهب ماله ، حمل نفسه على التلف او الفلج [1]. والسلام ! »

---

(١) في نسخة: الفتح ، وفي نسخة : الحتف. وقد صححت بما في المتن ليكون المعنى ان الذي يذهب ماله يركب اخشن المراكب فاما ان يتلف واما ان يظفر وينجح لانه يكون في حالة يأس تحمله على المخاطرة بنفسه او يفوز.

وقال للرسول الثاني : ان قدمت فرايته قـد تأهب للخروج الي ّ وظهر ذلك في عسكره ، فادفع اليه هذا الكتاب . و كتب : « اما بعد ، فاني كتبت اليك وقد استبطأت جواب قدومك وحركتك وعلمت ان ذلك لامر نفسك او مكيدة عدوك . فاذا اتاك كتابي هذا فخلف اخاك على عملك واغذّ السير ولا تُعَرِّج على مهم ولا غيره . ان شاء الله ! » . وان لم تره استعد للخروج ولا تأهب له ، فادفع اليه الكتاب الاول .

فقدم الرسول الثاني ، وليس لشهربراز في الخروج عزم ولا خاطر ، ولا هم به . فدفع اليه الكتاب الاول . فقال شهر براز : اول كل قتلة حيلة . وكان خليفة شهر براز بباب الملك قد كتب اليه ما كان من قول رسته للملك وما كان من جواب الملك له . ثم نازعت ابرويز نفسه ودعاه شرهه الى اعادة الكتاب الى شهر براز بالقدوم عليه .

فلما قرأ شهر براز كتابه الثالث قال : كان الامر قبل اليوم باطناً فاما اليوم فقد ظهر .

فلما علم ابرويز ان نية شهر براز قد فسدت وانه لا يقدم عليه ، كتب الى اخي شهر براز : « اني قد وليتك امر ذلك الجيش ومحاربة ملك الروم . فان سلم لك شهر براز ما وليتك ، والا فحاربه ! »

فلما اتاه كتابه اظهره وبعث الى شهر براز يخبره ان الملك قد ولاه موضعه، وامره بمحاربته ان ابى ان يسلم اليه ما ولاه . فقال له شهر براز : انا اعلم بأبرويز منك . هو صاحب حيل ومكايد ، وقد فسدت نيته لي ولك . فان قتلني اليوم ، قتلك غداً ؛ وان قتلك اليوم ، كان على قتلي غدا اقوى [1] .

ثم ان شهر براز صالح ملك الروم ، لما خاف ابرويز . وتوثق كل واحد منهما من صاحبه . واجتمعا على محاربة ابرويز . فقال له شهر براز دعني اتولى محاربته ، فاني ابصر بمكايده وعوراته [2] . فابى عليه ملك الروم ، وقال : بل اقم في دار مملكتي حتى اتولى انا محاربته بنفسي .

---

(١) رواية ابن الاثير في هذا الموضوع احسن وامتن . ومحصلها ان شهر براز لما امتنع عن اجابة كسرى ، بعد طلبه ثلاث مرات ، امر الملك بعزله وبتولية اخيه فرخان الذي كان معه ، وامره بقتله . فلما اراد فرخان ان يقتله ، قال له شهر براز : امهلني حتى اكتب وصيتي . ثم احضر درجا واخرج ثلاثة كتب من كسرى يامره فيها بقتله ، واطلعه عليها ، وقال له : انا راجعت فيك اربع مرات ولم اقتلك ، وانت تقتلني في مرة واحدة . فاعتذر فرخان اليه واعاده الى الامارة . واتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى . (ج ٢ ص ٣٤٨)

(٢) في نسخة : وغدراته .

فقال شهر براز : اما اذا ابيت علي فاني مصور لك صورة ، فاعمل بما فيها وامتثلها .

ثم صور له كل منزل ينزله بينه وبين ابرويز في طريقه كله، واي المنازل ينبغي له ان يقيم فيه ، وايها يجعلها طريقاً وسيراً ماضيا حتى اذ اقامه من طريقه كله على مثل وضح النهار ، قال له : فاذا صرت بالنهروان ، فاقم دونه ولا تقطعه اليه ، واجعله منزلك وجهز جيوشك وعساكرك اليه .

فمضى ملك الروم نحوه . وبلغ ابرويز الخبر فضاق به ذرعه ، وارتج [1] عليه امره . فكان اكثر جنوده قد تفرقوا لطلب المعاش ، قطعه عنهم ما كان يجب لهم من اقطاعاتهم وارزاقهم . فبنى في جند كالميت اكثرهم هزلى اضراء [2] .

وكان ملك الروم يعمل على ما صوره له شهر براز في طريقه كله، حتى اذا اشرف على النهروان ، عسكر هناك واستعد للقاء ابرويز . وقد بلغه قلة جوعه وتفرق جنوده وسوء حال من بقيَ معه . وكان في

(١) اي اضطرب .
(٢) اي مهزلون مرضى .

اربعمائة الف ، قد ضاقت بهم الفجاج والمسالك . فطمع في قتل ابرويز ولم يشك في الظفر به .

فدعا ابرويز رجلاً من النصاري وكان جده قد انعم على جد النصراني واستنقذه من القتل ايام قتل ماني ، وكان من اصحابه الذين استجابوا له . فقال له ابرويز : قد علمت ما تقدم من ايادينا عندكم ، اهل البيت قديماً وحديثاً . قال : اجل ايها الملك ! واني لشاكر ذلك لك ولآبائك . قال : فخذ هذه العصا وامض بها الى شهر براز ، فأته في قرار ملك الروم ، فادفعها اليه من يدك الى يده . وعمد الى عصا مثقوبة ، فادخل فيها كتابا صغيراً منه الى شهر براز : « اما بعد فاني كتبت اليك كتابي هذا واستودعته العصا . فاذا جاءك ، فحرق دار مملكة الروم ، واقتل المقاتلة ، واسب الذُّرية ، وانهب الاموال ، ولا تتركن عيناً تطرف ولا اذناً تسمع ولا قلباً يعي ، الا كان لك فيه حكم . واعلم اني واثب بملك الروم يوم كذا و كذا . فليكن هذا وقتك الذي تعمل فيه ما امرتُك . »

قال : وامر للنصراني بمال وجهزه ، وقال : لا تعرجن على شيء ولا تقيمن يوما واحداً . واياك ثم اياك ان تدفع العصا الا الى شهر براز ، من يدك الى يده !

ثم ودعه ومضى النصراني . فلما عبر النهروان ، اتفق ان كان عبوره مع وقت ضرب النواقيس . فسمع قرع عشرة آلاف ناقوس او اكثر فانهملت عيناه وقال : بئس الرجل انا ، إن اعنتُ على دين النصرانية واطعت امر هذا الجبار الظالم !

فاتى باب ملك الروم ، فاستأذن عليه ، فاذن له . فاخبره بقصة ابرويز حرفاً حرفاً . ثم دفع اليه العصا ، فاخذها ونظر فيها . ثم استخرج الكتاب منها فقرىء عليه . فنخر ، وقال : خدعني شهر براز ولئن وقعت عيني عليه ، لاقتلنه !

وامر فقوّضت ابنيته من ساعته ، ونادى في الناس بالرحيل . وخرج ما يلوي على احد .

ووجه ابرويز عيناً له يجيئهُ بخبره . فانصرف اليه فاخبره ان الملك قد مضى ما يلتفت لفتة . فضحك ابرويز ، وقال : ان كلمة واحدة هزمت اربعمائة الف لجليلٌ قدرها ورفيع ذكرها [1] !

(١) والعرب تقول : انفذ من الرمية ، كلمة خفية («العقد الفريد» ج١ ص١٦٥)

خاتمة الكتاب

واذ قد انتهينا الى هذا الموضع من كتابنا هذا وأخبرنا باخلاق الملوك في انفسها ، وما يجب على رعاياها لها ، بقـدر وُسع طاقتنا ، فلنختم كتابنا هذا بذكر من بعثنا على نظمه ، وكان مفتاحا لتأليفه اوجمعه .

ولنقل انا لم نر في صدر هـذه الدولة المباركة العباسية ولا في تاريخها وايامها الى هذه الغاية فتى اجتمعت له فضائل الملوك وآدابهـا ومكارمها ومناقبها ، فحاز الولاء من هاشم والخصيصي [١] من خلفاء بني العباس الطيبين ، والتبني من المعتصم بالله واخوته الابرار مـن ائمة المؤمنين وورثة خاتم النبيين ، عدا الامير الفتح بن خاقان مولى امير المؤمنين .

فلتهنئه هذه النعمة المهداة ! وبارك له واهبها ، وزاده اليها الدأب عليها حتى يبلغ به ارفع يفاعها واسنى ذروتها واعـلى درجاتها ، في

---

(١) اي الاختصاص بالتفضيل .

طول من العمر وسلامة من عوادي الزمان وغيره ونكباته وعثراته فانه رحيم كريم !

في آخر النسخة السلطانية ما نصه :

تم الكتاب المبارك بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيراً

حسبنا الله ونعم الوكيل

فهرست

كتاب التاج ـ في أخلاق الملوك

اولا – مضامين صفحات الكتاب

صحيفة

باب في المنادمة

صحيفة

صحيفة

فهرست الصفحات

ثانياً – الفهارس الابجدية

الفهرس الابجدي الاول

بأسماء الرجال المذكورين في « التاج » وحواشيه

(ا)

صحيفة

احمد بن سهل — ابو زيد البلخي

ابو احيحة — سعيد بن العاص

(ب)

(ث)

(ج)

صحيفة

(ح)

صحيفة

(ر)

(ز)

صحيفة

صحيفة

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(ن)

«ه»

صحيفة

(و)

الفهرس الابجدي الثاني

بأسماء الامم والقبائل والشعوب والبيوت ونحوها

«أ»

صحيفة

«ب»

(ز)

(س)

(ش)

(ض)

(ع)

صحيفة

(ف)

(ق)

(م)

(ن)

(هـ)

الفهرس الابحدي الثالث والاخير

بأسماء البلاد والمدن والمواضع والاماكن ونحوها

(ا)

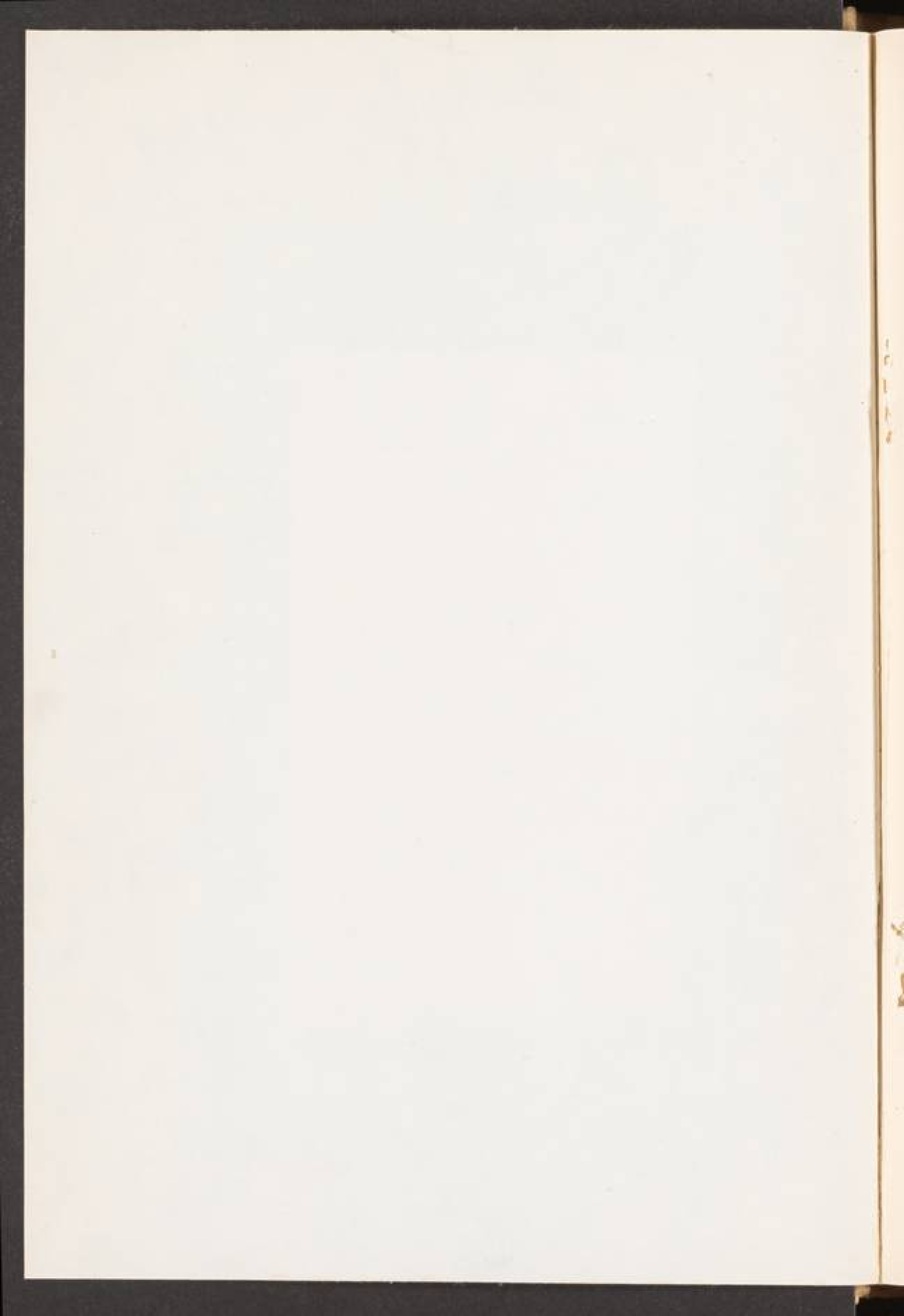
صحيفة

صحيفة

صحيفة

(م)

[تم الكتاب والحمد لله اولا وآخراً]



Date Due

